أدهم شرقاوي

"قس بن ساعدة"

على خطى الرسول ﷺ



kalemat

على خطى الرسول

صلى الله عليه وسلم

أدهم شرقاوي

كلمات للنشر والتوزيع 2021

الإهداء

هذا لأجلِ يوم نزول الوحيَ إذ لم أكنْ موجوداً

لأضمَّكَ إلى قلبي وأنتَ ترتجف!

ولأجلِ يوم الطائف إذ لم أكنْ موجوداً

لأصدَّ عنكَ الحجارة بصدري!

ولأجلِ يوم موت خديجة إذ لم أكنْ موجوداً

لأمسحَ دمعتكَ، وأقول لكَ: أنا فِدى نعلكَ!

ولأجلِ يوم أُحدٍ إذ لم أكنْ موجوداً

وأنتَ تمسحُ الدّم عن وجهكَ الشريف لأقيكَ تلك الضّربة!

ولأجلِ كتف الشاة المسمومة إذ لم أكن موجوداً

لآكلها عنكَ!

هذا لأجلِ أني آمنتُ بكَ ولم أرك،

ولأجلِ أني صدّقتُكَ ولم أسمع منك،

ولأجلِ أني أحببتُكَ ولم أُكحّلْ عينيَّ بكَ،

بأبي أنتَ وأمي يا رسول الله ﷺ

أَوْجَبَ طلحة!

لم تكن غزوة أُحدٍ بالنسبة إلى قريش مجرَّد نزالٍ ثانٍ مع المسلمين، وإنما كانت معركة ثأر، فقد مرَّغ الإسلامُ العظيمُ كبرياءها عند آبار بدر، وتركَ صناديدها وكبراءها صرعى على رمال الصحراء، لهذا جاءتْ بخيلها ورَجْلها تطلبُ ثأرها!

أما في معسكرِ المسلمين فالاستعداداتُ كانت على قدمٍ وساقٍ للنزال، النبيُّ صلى الله عليه وسلم لبس درعين لا درعاً واحدة ليعلمنا ثقافة الأخذ بالأسباب، وأنّ صاحب الدعوة أول من يذود عنها، حمزة قائد هيئة الأركان أخذ موقعه ومن خلفه خيرة رجالٍ مروا على ظهر هذه الأرض، وعلى الجبل تسمَّر الرماة بالأمر النبوي القاطع: لا تبرحوا أماكنكم، إن رأيتمونا نُنصر فلا تشاركونا، وإن رأيتمونا نُهزم فلا تنصرونا!

وبدأ القتال... وسرعان ما ولَّتْ قريش أدبارها متجرعة بعض الذي تجرعته في بدر، عندها نزل الرماة عن الجبل مخالفين الأمر النبوي الشريف، فاستغلّ خالد بن الوليد الموقف، والتفَّ بفرسانه من وراء الجبل وحوَّل نصر المسلمين إلى هزيمة!

انسحبَ المسلمون إلى الجبل ليصعُبَ على قريشٍ تتبعهم، وشُجَّ رأس النبي صلى الله عليه وسلم وكُسرتْ مقدمة أسنانه، وهو يمسحُ الدم عن وجهه الشريف ويقول: كيف يفلحُ قوم شجوا رأس نبيهم!

وعند الجبل أراد النبيُّ صلى الله عليه وسلم أن يصعد على صخرة فلم يستطع بأبي هو وأمي بسبب ثقل الدرعين، وما أصاب الجسد الشريف من جراح، عندها انحنى طلحة بن عبيد الله وجعل من جسمه سُلّماً يرقى عليه النبي صلى الله عليه وسلم ليصعد إلى الصخرة، فلما وصل إليها قال: أَوْجَبَ طلحة! أي وجبتْ له الجنة!

أوجبَ طلحة لأنه جعل من نفسه سُلَّماً يرقى عليه النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن باب الوجوب لم يُغلق بعد، فما زال بإمكاننا أن نُدركَ طلحة، النبي صلى الله عليه وسلم ليس معنا بجسده لنذلل له الظهور والرقاب ليصعد عليها، ولكن دينه وشرعه وسنته بيننا، وكل من حمل هذا الدين على عاتقه يرقى فقد أوجبَ، وأدركَ بإذن الله طلحة!

أيها المجاهد الذي وضع روحه على كفه لإعلاء كلمة لا إله إلا الله قد أوجبتَ!

أيها الداعية الذي قال كلمة الحق ولم يخشَ في الله لومة لائم، ودلَّ الناس على الله قد أوجبتَ!

أيتها الفتاة التي امتثلتْ أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالحجاب والعفة ليعود الإسلام سيرته الأولى قد أوجبتِ!

أيها الشاب الذي راوده الإعلام الهابط عن دينه فقال معاذ الله، وزاحم في حِلق الذِّكر، وحلقات التحفيظ، وأدام السير إلى المسجد قد أوجبتَ!

أيها الأبُ الذي أمر أولاده بالصلاةِ أبناء سبعٍ، ودرَّبهم على الصيام منذ نعومة أظفارهم، قد أوجبتَ!

أيها المدرِّس الباحث بين تلاميذه عن أبي بكر وعمر قد أوجبتَ!

أيها الطبيب الإنسان، وأيها النجار الصادق، وأيها الموظف الأمين، وأيها الابن البار، وأيها الجار الصالح، وأيها الأخ الحنون، وأيتها الزوجة المحبة، وأيتها الكِنَّة الخلوقة، قد أوجبتم جميعاً بإذن الله!

فكلما ضاقت الدنيا بكم، وراودتكم عن أخلاقكم ودينكم، تذكروا أن الجنة قد وجبتْ لطلحة لأنه كان سُلماً لهذا الدين، وتخيلوا النبي صلى الله عليه وسلم يقول: أوجبتَ فلان وينطقُ اسمك!

خِبْءٌ من عملٍ صالح!

قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم مرةً لأصحابه: من استطاعَ منكم أن يكون له خبءٌ من عملٍ صالحٍ فليفعل!

خرجَ المسلمون يوماً لقتال الروم، فلما التقى الجيشان خرجَ فارس من جيش الروم يطلب المبارزة، فخرج له رجل مُلثَّم من جيش المسلمين فبارزه حتى قتله!

ثم خرج فارس آخر من جيش الروم يطلب المبارزة، فخرج إليه نفس الرجل الملثم من جيش المسلمين فبارزه حتى قتله!

ثم خرج فارس ثالث من جيش الروم يطلب المبارزة، فخرج إليه نفس الرجل الملثم من جيش المسلمين فبارزه حتى قتله!

فاجتمع عليه المسلمون يريدون أن يعرفوا من هو، وهو يمسكُ بلثامه خشية أن يعرفه أحد، فقام رجل يُقال له أبو عمر ونزعَ اللثام عن وجهه فإذا هو عبد الله بن المبارك!

فقال لأبي عمر: ما حسبتكَ ممن يُشنِّعْ علينا يا أبا عمر!

أراد عبد الله بن المبارك أن يكون جهاده خبيئة بينه وبين الله تعالى، لا يدري بها أحد من خلقه، واعتبرَ أن كشف وجهه من قبل أبي عمر

فضيحة له! إلى هذا الحد بلغَ به الإخلاص، أن يُخفي وجهه في موضع لا تُخفى فيه الوجوه مخافة أن يرى الناس حسن صنيعه فيثنون عليه، وهو يريد أن يبقى جهاده في سبيل الله سراً بينه وبين الله!

من استطاع منكم أن يكون له خبيئة فليفعل!

الخبيئة الصالحة؛ هي عبادة تفعلها ولا تُطلع عليها أحداً من الخلق تُبقيها لكَ ذُخراً إلى يوم تُبلى فيه السرائر!

الخبيئة الصالحة؛ هي صدقة تضعها في يد فقيرٍ دون تصوير أو توثيق، تخفيها حتى عن امرأتك!

الخبيئة الصالحة؛ هي ركعات تصليها في جوف الليل وأهل بيتك نيام، تتسحَّبُ من فراشك كي لا يشعر بكَ أحد!

الخبيئة الصالحة؛ هي ورد من القرآن تلزمه دائماً لا تتباهى به ولا يدري عنه أحد!

الخبيئة الصالحة؛ هي أذكار وتسابيح واستغفار بينك وبين الله وأنت تقود سيارتك، أو وأنت تتسوق، أو وأنت تمارس رياضة المشي اليومي!

الخبيئة الصالحة؛ هي دمعة تنزل من عينك حين تقرأ آيةً عن عذاب النار، فتمسحها بيدك كي لا يراها أحد!

أكثروا من الخبايا فإنَّ الله يحبها!

فإنه يُبعثُ يوم القيامة مُلبياً!

كان رجلٌ واقفاً مع النبيِّ صلى الله عليه وسلم بعَرَفة، فوقع عن راحلته فانكسرتْ عنقه فمات، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: اغسلوه بماءٍ وسِدر، وكفِّنوه في ثوبين، ولا تُحنطوه/ لا تضعوا له طيباً، ولا تُخمروا/ تغطوا رأسه، فإنه يُبعثُ يوم القيامة ملبياً!

ما زلنا كل فترة نسمعُ عن إنسان ماتَ ساجداً، وآخر ماتَ صائماً، وثالث تصدَّق على فقير ثمَّ خرَّ ميتاً، هذه ليست مصادفة، هذه مكافأة نهاية الخدمة، فمن عاشَ على شيء ماتَ عليه.

على أنه يجب أن يُعلم أن حسن الخاتمة ليس مقصوراً في أن يموت الإنسان ساجداً، أو صائماً، أو متصدقاً، أو مُحرماً في الحج؛ وإنما حسن الخاتمة أن يأتيك الموت ولم تتركْ صلاةً، ولم تُفرّطْ بصيام، ولم تبخلْ بزكاة أو صدقة، ولم تُؤجل الحج رغم استطاعتك، فمن ماتَ مقيماً لأمر الله فهذه حُسن الخاتمة!

حُسن الخاتمة أن يأتيك الموتُ وليس لأحدٍ عندك حق، لم تسلبْ مالاً، ولم تأكل ميراث إخوتك، ولم تخض في أعراض الناس، ولم تأكل لحومهم بالغيبة!

حُسن الخاتمة أن يأتيك الموت وقد أمِنَ منك جيرانك، ولِنتَ بلسانك وقلبك لزملائك، وخفضتَ جناح الذل لوالديك، وبادرتَ بالصلة أقاربكَ، وعاملتَ بالإحسان زوجتكَ، وربيتَ على الدِّين أولادك!

حُسن الخاتمة ليس كيف متَّ وإنما كيف عشتَ!

أبو بكر ماتَ على فراشه ولكنه نال حسن الخاتمة

وعمر مات مطعوناً ونال حسن الخاتمة

وعثمان ماتَ مذبوحاً ونال حسن الخاتمة

وعليٌّ ماتَ اغتيالاً ونال حسن الخاتمة

وأبو عبيدة ماتَ بالطاعون ونال حسن الخاتمة

وخالد بن الوليد نجا من المعارك كلها، ومات على فراشه ولكنه نال حسن الخاتمة

حسن الخاتمة ليس أن تموت في سبيل الله فقط بل أن تعيش في سبيل الله أيضاً!

وما أدراك أن الذي مات في حادث سير كان وقتها يُسبّح،

والذي مات بسكتةٍ قلبية كان وقتها ذاهباً بصدقة إلى فقير،
لا توزعوا الناس على الجنة والنار وسلوا الله حُسن الخاتمة!

نبني لكَ عريشاً!

خرجَ المسلمون من المدينة يريدون قافلة قريش علَّهم يعوضون شيئاً مما سلبتهم إياه في مكة، فقد صادر صناديدُ قريشٍ أموالهم، ولكنَّ أبا سفيان فرَّ بالقافلة بعيداً عن مرمى المسلمين، وأرسل يطلب المدد من قريش، فجاءت بجيشها.

وها هم المسلمون قاب قوسين أو أدنى من معركةٍ لم تكن بالحسبان!

وقبل أن يبدأ القتال، نظرَ سعد بن معاذ في موازين القِوى، فرأى قريشاً أكثر عدداً وتجهيزاً فقد جاءت للحرب، ورأى المسلمين قلةً فما خرجوا إلا لأجل القافلة، فخشيَ على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له: يا نبيَّ الله، ألا نبني لكَ عريشاً تكون فيه، ونعدُّ عندكَ ركائبك، ثم نلقى عدُوّنا، فإن أعزَّنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى، جلستَ على ركائبك، فلحقتَ بمن وراءنا، فقد تخلَّفَ عنكَ أقوام ما نحن بأشد لكَ

حباً منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك، يمنعكَ الله بهم، يناصحونك ويجاهدون معك!

فأثنى عليه النبي ﷺ خيراً، ودعا له بخير، ثم بُني للنبي ﷺ عريشٌ فكان فيه أول المعركة، ثم نزل فقاتلَ مع المسلمين حتى منَّ الله عليهم بالنصر.

خِطَّة سعد بن معاذ باختصار أن لا يشترك النبي ﷺ في القتال وإنما يكون في عريشٍ خلف الجيش، وعنده فرس سريعة، فإذا انهزم المسلمون عاد إلى المدينة، لأن أمر الإسلام معقود به بأبي هو وأمي.

ولكن ليس هنا مربط الفرس، وإنما حديث سعد بن معاذ عن الذين تخلفوا عن غزوة بدر، فلم يقل للنبي ﷺ أرأيتَ كيف أنهم لم يخرجوا معك، نحن الذين خرجنا فقط؟!

وإنما قال بقلب أبيض يحسن الظن بإخوانه أن في المدينة رجالاً يحبونه أكثر من الذين خرجوا معه، وأنهم لم يخرجوا لأنهم ظنوا الأمر مهاجمة قافلة لا حرباً مع جيش قريش!

فهل حفظنا غيبة بعضنا وذكرنا محاسن الغائبين، ولم نستغل الفرصة لننال منهم، ونرفع من شأن أنفسنا؟!

عندما تصطحب أحد أبويك إلى الطبيب لا تنل من إخوتك، فتضيع أجرك بالنميمة، ولا تقل ليس لك إلا أنا وإخوتي تركوك، قل إن إخوتي لديهم مشاغل وظروف ولو سمحت ظروفهم ما قصروا معك، وما أنا أكثر حُباً وبراً منهم!

إذا جُمع مال لفقير فلا تقل نحن فقط الذين تصدقنا، وإنما قل إن فلاناً وفلاناً لهم ظروف يعلم الله بها وإلا فلسنا أكثر كرماً منهم!

إن الذي ينال من الآخرين بعد معروف فعله، فليته لم يفعل وسَلِم منه الناس!

يقول الشيرازي: سهرتُ مع أبي ذات ليلةٍ وحولنا نيام، فصلى أبي، وصليتُ أنا ما أراد الله لنا أن نصلي، فقلتُ لأبي: لم يقمْ من هؤلاء من يصلي ركعتين!

فقال لي: يا بُني لو نمتَ لكان خيراً لكَ من وقوعكَ في الخلق!

فعبقَ بي هذا الطِّيب!

روى ابن حجرٍ في «فتح الباري» عن أم عاصمٍ زوجة الصحابي الجليل عُتبة بن فرقد السُّلمي أنها قالتْ:

كُنَّا عند عتبة بن فرقد أربعُ نسوةٍ، فكانتْ كل واحدةٍ منا تجتهدُ في الطِّيبِ/ العِطر لتكون أطيب ريحاً من ضرائرها! وكان عُتبة لا يمسُّ طيباً ومع ذلك كان أطيب رائحةً منا! وكان إذا خرجَ إلى الناس قالوا: ما شممنا ريحاً أطيب من ريح عتبة بن فرقد!

فسألتُه عن ذلك وقلتُ: إننا نجتهد في الطِّيب ولأنتَ أطيبُ منا ريحاً فممَّ ذلكَ؟

فقال: أصابني الشَّرى/ مرض جلدي على عهد النبي ﷺ فأتيته فشكوتُ إليه ذلك، فأمرني أن أتجرَّدَ من ثيابي إلا ما يسترُ عورتي، فتجردتُ وقعدتُ بين يديه، فنفثَ في يده، ومسح ظهري وبطني بيده، فعبقَ بي الطِّيبُ هذا من يومئذٍ!

نبيٌّ مباركٌ حتى من قبل أن يصيرَ نبياً!

ترى أمه في المنام حين حملتْ به أنَّ نوراً خرجَ منها أضاءتْ له قصور بُصرى من أرض الشّام!

وأصابَ الجدبُ والقحط ديار بني سعدٍ فلما جاءت به لترضعه حلَّتْ البركة هناك يوم حلَّ، حتى كان الناس في بني سعدٍ يقولون انظروا حيث ترعى غنم حليمة وارعوا، حسبوا أن البركة في العُشب، وما دروا أن البركة في طفلٍ رضيع سيصبحُ فيما بعد سيد الأنبياء والمرسلين!

يشتاقُ إليه كل شيءٍ، أُحدٌ جبلٌ يُحبه هذا وهو صخر فسبحان من جعلَ له في قلب الصخر محبةً!

ويحنُّ الجذعُ إليه، فيصدر أنيناً فلا يسكت حتى ينزل عن منبره ويضمه، هذا وهو خشب، فسبحان من جعل كل شيءٍ يُحبُّه!

تأتيه امرأة بغلام صغير فتقول: يا رسول الله ﷺ ، إن ابني بلغ الخامسة ولم يتكلم بعد، فيضع يده الشريفة عليه ويقول له: من أنا؟

فيقول الصبيُّ: أنتَ رسول الله!

وليصبح بعد ذلك من خطباء العرب!

ويدخل خيمةً فإذا غُلام يصطدم بوتدها من عمشٍ في عينيه فلا يكاد يرى، فيأخذه ويمسح على عينيه ليبصر، وليبلغَ الثمانين من العمر ويضع من قوة بصره الخيط في الإبرة من أول مرةٍ!

نبيٌّ عظيم مبارك، لأمةٍ عظيمة مباركة، فارفعوا رؤوسكم عالياً!

إنَّ اللهَ يُحِبُّ العبدَ اللحوح، قالتْ أُمنا عائشة: ذات يومٍ دعا النبيُّ صلى الله عليه وسلم، ثم دعا، ثم دعا!

وعن الدعاء يقول النبيُّ صلى الله عليه وسلم: يُستجاب لأحدكم ما لم يَعجلْ، يقولُ: دعوتُ فلم يُستجبْ لي!

ويقول القسطلاني في شرح الحديث: من كان له ملالة من الدعاء لا يُقبل دعاؤه لأن الدعاء عبادة حصلتْ الإجابة أو لم تحصل! فلا ينبغي للمؤمن أن يملَّ من العبادة، ويؤخر الله الإجابة لأنه لم يأتِ وقتها، فإن لكل شيءٍ وقتاً. وإما لأنه لم يُقدَّر له في الأزل قبول دعائه في الدنيا ليُعطى عوضه في الآخرة. وإما أن يؤخر القبول ليلح، ويبالغ في ذلك، فإنَّ الله يحِبُّ الإلحاح في الدعاء، ومن يُكثر قرع الباب يوشك أن يُفتح له!

قد تتأخر إجابة الدعاء لأنَّ هناكَ معصية تطلبُ توبة وأنتَ لم تتُبْ بعد، فراجع نفسك أولاً، لا شيء أحجب للدعاء من المعاصي، خرج موسى عليه السلام ليصلي ببني إسرائيل صلاة الاستسقاء فلم ينزل المطر، فأوحى الله إليه أن فيكم عبداً عاصياً لم يتُبْ! فأخبرهم موسى عليه السلام بذلك، وطلب منهم أن يخرج هذا العاصي من بينهم، وما هي إلا لحظات حتى انهمرَ المطر، فسأل موسى عليه السلام عن سبب نزول المطر رغم أنَّ

هذا العاصي لم يخرج من بينهم، فأوحى الله تعالى إليه أنَّ هذا العاصي قد تابَ بينه وبين ربه!

فسأل موسى عنه، فقال له الله: يا موسى سترته عاصياً فكيف أفضحه تائباً!

أمة كاملة حُرمتْ المطر بمعصية، والفرد أولى أن يؤاخذ بذنبه!

قد تتأخر الإجابة لأنكَ تطلبُ ما فيه ضرر لكَ وأنتَ لا تدري، ألا ترى أنَّ الصبيَّ الصغير إذا بكى يريدُ حبوب الدواءِ لأنها ملونة منعه أبواه منها رغم بكائه، ولله المثل الأعلى، فربما كنتَ كذاك الطفل تَحسبُ أنكَ تطلبُ الخير بفهمك البشري القاصر، فحرمكَ اللهُ ليحميك!

قالتْ الفتاة الصغيرة لأمها: هل يسمع الله دعائي يا أماه؟

فقالت لها: أجل يا ابنتي

فقالت الصغيرة: ولِمَ لم يُعطِني ما سألته إياه؟

فقالتْ لها: لأن الطبيب يعطينا الدواء الذي نحتاج لا الذي نريد!

ورُوي عن بعض التابعين أنه سأل الله الغزو طويلاً، فلم ييسره الله له، فلما استغربَ عدم الإجابة، رأى في المنام من يقول له: إنكَ إن غزوتَ أُسِرتَ، وإن أُسِرْتَ تنصَّرتَ!

ثِقْ دوماً أن منعَ اللهِ عطاء!

قد تتأخر الإجابة لأن الوقت لم يحِنْ بعد،

ثمة أشياء إذا أخذتها قبل وقتها كان فيها هلكتكَ،

وإنَّ الله الذي ضبطَ الكون بنظام ودقة،

فيرسلُ الشمس في وقتها المحدد،

ويجري علينا نظام الفصول بترتيب مدهش،

أعلمُ منكَ بالوقت الأنسب لإجابة دعائك!

دعا الصحابة كثيراً في مكة أن يُؤذن لهم بالقتال، فتأخرَ الإذن إلى الوقت الذي أراده الله!

لقد أراد أن يُربي هذه الأمة أولاً، لأن السيف الذي لا عقيدة خلفه قد يصبح وسيلة انتقام، وقد أراده الله خادماً لدينه لا خادماً لهوى المسلمين!

مَنْ رجلٌ يبيعُ لنا نفسه!

روى عبد الله بن المبارك في كتابه الجهاد قال:

لما دنا العدوُّ من النبيّ صلى الله عليه وسلم يوم أحُدٍ، دافعَ عنه مصعب بن عمير حتى قُتل، وأبو دُجانة حتى كثُرتْ فيه الجراح، فقال له النبيُّ صلى الله عليه وسلم: مَنْ رجلٌ يبيعُ لنا نفسه؟!

فوثبَ زياد بن السَّكن، فقاتلَ حتى أثخنته الجراح، فقال له النبيُّ صلى الله عليه وسلم: أُدنُ مني!

فوسَّده فخذه حتى ماتَ عليها!

انتهتْ غزوة أُحد، ولكن صوتَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم ما زال يصدح: مَنْ رجلٌ يبيعُ لنا نفسه؟!

رحلَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم عن هذه الدنيا بجسده، ولكنه باقٍ أبد الدَّهر بدينه وشريعته وأمته، وما زال السُّوق مستقراً، وعرض البيعِ سارياً فمن يبيعُ له نفسه!

كلما رأيتَ فقيراً ذا حاجةٍ وعيالٍ تذكَّر قول نبيِّك: من يبيعُ لنا نفسه؟

وقُلْ: أنا يا رسول الله! وأخرجْ من مالكَ وتصدَّق!

كلما جُمع مالٌ لعملية جراحية طارئة لفقير تذكَّر قول نبيك: من يبيعُ لنا نفسه؟

وقل له: أنا يا رسول الله! وساهِمْ بقدر ما تستطيع!

كلَّما مرض عندكَ أم أو أب وأنتَ غارقٌ في وظيفتك وتجارتك، تذكَّرْ قول نبيك: من يبيعُ لنا نفسه؟

وقُلْ له: أنا يا رسول الله! ثم فرِّغْ وقتك، وخذ المريض منهما إلى الطبيب!

كلما نشبَ خلافٌ عائلي لن يُحلَّ إلا إذا تنازل أحدهم وبادر بالصلح والتنازل، تذكرْ قول نبيك: من يبيعُ لنا نفسه؟

وقل له: أنا يا رسول الله! وكُنْ الأطيب قلباً، والأسرع مبادرة!

كُلَّما فُتح لكَ بابٌ لشهوة حرام ميسورة مستورة، تذكَّرْ قول نبيك: من يبيعُ لنا نفسه؟

وقُلْ له: أنا يا رسول الله! ثم تعففْ متحسساً أنَّ من تركَ شيئاً لله عوَّضه الله خيراً منه!

بيعُ النَّفس لله ورسوله ليس في المعارك فقط وإن كان هذا أجملَ البيع وأجلَّه، وإنما في كل يوم هناك سوق بيعٍ للنفس في سبيل اللهِ ورسوله، فبِعْ نفسكَ!

إذا عَمِلَ حَسَنَةً سرَّته!

جاء رجلٌ إلى أبي ذرٍّ، وسأله عن الإيمان، فقرأ عليه أبو ذرٍّ قول الله تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ

آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾

فقال الرَّجلُ: ليسَ عن البرِّ سألتك!

فقال له أبو ذرٍّ: جاءَ رجلٌ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم فسأله عن الذي سألتني عنه، فقرأ عليه كما قرأتُ عليكَ، فقال له الذي قلتَ لي، فلما أبى أن يرضى، قال له النبيُّ صلى الله عليه وسلم: أُدْنُ مني!

فلما دنا منه، قال له: إنَّ المؤمن إذا عمل الحسنة سرَّته، ورجا ثوابها، وإذا عملَ السَّيئة ساءته، وخاف عقابها!

إذا سرَّتكَ حسنتُكَ، فأنتَ مؤمن!

الدنيا مزرعة الآخرة، ونحن نزرع فيها، والحصاد غداً حين نُقبلُ على الله تعالى، والمؤمن هو الذي إذا بذرَ بذرة خير في الدنيا، وجدَ سعادةً في نفسه، وراحةً في قلبه، يعلمُ يقيناً أنه أراد بهذه الحسنة وجه الله تعالى، وأنه لاقيه لا محالة، وأنه لا أحد أوفى من الله، وأنه سيحسِنُ له الجزاء!

وإذا ساءتكَ سيئتكَ فأنتَ مؤمن!

كلنا ذو خطأ، ولو كان للذنوب رائحة ما جالس أحدٌ أحداً، فسبحان من ستر منا ما نكره أن يراه الناس، ونشر لنا ما نحبُّ أن يراه الناس! يقعُ الذَّنبُ من المؤمن، فتجده يحزن، وينكسر قلبه، فيسارع على الفور بالعودة إلى الله، صلاةً، واستغفاراً، وصدقةً، وقيام ليل، ودمعة صادقة!

ولكن الخوف كل الخوف على من اقترفَ السَّيئة فلم يحزن، وعلى من عصى فظنَّ حلم الله عليه عجزاً، وعلى من فجرَ فسُتِر، فتمادى بدل أن يتوب!

يقول الدكتور محمد رجب: يا بُنيَّ، ليس أضرُّ ذنبك أوله ولا آخره، ولا دِقَّه أو جلّه، وإنما مقتلُكَ عند أول ذنبٍ لم تتوجع له نفسكَ، ولم يستوحش منه قلبك، بل ألِفه واعتاده، ولم تجد فيه تلك الكسرة التي تحملكَ على التوبة! يا بُنيَّ لو أحسنَّا التفتيش في أيامنا لاستخرجنا ذنوباً كثيرة قد صارتْ من عادات الحياة، فما عادتْ تنتبه لحرمتها القلوب!

يا بُنيَّ: إنما أضرُّ ذنبٍ ما خدَّركَ!

أنا أحق بموسى منكم!

جاءَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فرأى اليهود يصومون يوم عاشوراء،

فقال: ما هذا؟

فقالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجَّى اللهُ فيه بني إسرائيل من عدوهم، فصامه موسى عليه السلام.

فقال: أنا أحقُّ بموسى منكم!

فصامه، وأمر الناس بصيامه.

هذه الدعوة ضاربة في عمق التاريخ، والإسلام واحد، وإنما تختلف الشَّرائع!

لهذا لا تنظُرْ إلى الإسلام نظرةً زمنيةً محدودةً بدأتْ منذ اعتناقك له، وتنتهي لحظة خروجك من الدنيا. وإنما انظرْ على أنها دعوتك منذ أن نفخَ الله تعالى الروح في آدم عليه السلام، حتى ينفخ إسرافيلُ في الصُّور!

كل نبيٍّ جاء هو حلقة في سلسلة الإسلام الطويلة، وكل صراع بين حق وباطل قام هو معركتك وإن غبتَ عنها! فالصراع بين التوحيد والشرك، وبين الإيمان والكفر، وبين الهدى والضلال واحد في كل العصور، الجنود فقط هم الذين يتغيرون!

عِشْ مع آدم عليه السلام اللحظة التي وسوس له فيها إبليس ليخرجه من الجنة، واعرفْ عدوَّك جيداً، فالحربُ ما زالت مستمرة بيننا وبينه!

عِشْ مع نوحٍ عليه السلام في السفينة، تحسس معيَّة الله، تأمل نصره للمؤمنين من عباده، وأن الذي أغرق الأرض لعبده الذي ناداه ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ موجود دائماً ومُطلع، ولا يترك عباده أبداً، ولكن هناك شرط لا بُدَّ أن يتحقق: كُنْ للهِ كما يُحب يكُنْ لكَ كما تُحبْ!

عِشْ مع موسى عليه السلام حين وصل إلى شاطئ البحر ببني إسرائيل، وجيش فرعون صار على مقربة منه، وظنَّ بنو إسرائيل أنهم مُدركون، غير أن الواثق بربه قال لهم: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾!

أحسِنْ ظنكَ باللهِ، الذي شقَّ البحر لعبده بضربة عصا قادر أن يشقَّ لكَ أصعب الدروب، فكُن له يكُن لك!

عِشْ مع يوسف عليه السَّلام وامرأة العزيز تراوده عن نفسه وهو يدافعها ويهرب بدينه منها نحو الأبواب!

تركَ شهوته، وآثر السجن على المعصية، فلم تمضِ سنوات إلا وهو على كرسي الملك! من تركَ شيئاً لله عوَّضه الله خيراً منه، فاصدُقْ في التَّرك لتنعم بالأخذ!

تخيَّلْ تلك اللحظات التي ربما لن تشهدها، أنتَ جزءٌ منها أيضاً، تخيَّلْ عيسى عليه السلام قد نزلَ عند المنارة البيضاء بدمشق حاملاً رمحه ليقتل الدَّجال، لتعرف أن الله الذي نصر دينه في الماضي، وسينصره في المستقبل،

ولا بدَّ أن ينصره في حاضرك الذي تعيشه فلا تيأس! وتذكر دوماً نحن لسنا مسؤولين عن النتائج نحن مسؤولون عن الطريق التي نمشي بها، فكُنْ على الطريق، فالسير على طريق الحق وصول وإن لم تصِلْ!

من أخذَ شبراً من أرضٍ ظُلماً!

كان لسعيد بن زيد أَحد العشرة المبشرين بالجنة أرضاً، فادَّعتْ امرأةٌ اسمها أروى عليه عند مروان بن الحكم أنَّ هذه الأرض لها. فأرسل مروان في طلب سعيد بن زيد، وذكرَ له ادعاء أروى عليه.

فقال له سعيد بن زيد: كيف أنتقصُ من حقها شيئاً وقد سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: من أخذَ شبراً من أرضٍ ظُلماً فإنه يُطوّقه/ يصير كالطوق في عنقه يوم القيامة من سبع أراضين!

ثم كره سعيد النزاع في الدنيا، فتركَ الأرض لأروى، ورفع يديه يدعو عليها عند مروان بن الحكم فقال: اللهم إن كانت كاذبة فاعمِ بصرها، واجعلْ قبرها في دارها! واستجاب الله دعوة سعيد بن زيد، فما لبثتْ أروى أن أُصيبت بالعمى، وكانت مرةً تمشي في دارها فوقعتْ في البئر التي في

ساحة البيت، فلما عجزوا عن استخراجها ردموا البئر عليها، فكان قبرها في دارها!

وقفتان في هذا الحديث:

الأولى: اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافراً، فكيف وإن كان صالحاً، فمن عادى للهِ ولياً فقد آذنه بالحرب!

إن الصالحين في الأرض هم أهل الله وخاصته، وإن الله لا يترك أهله وخاصته، فيا أيها الإعلامي المأجور الذي تخوض في رواد المساجد، ويا أيها الداعية المرتزق الذي يتهم حلقات التحفيظ بأنها منابع الإرهاب، ويا أيتها المثقفة التي تفرَّغتْ للحرب على الحجاب والمحجبات، احذروا جميعاً أنتم تخوضون حرباً مع جهة تكفَّل الله بالدفاع عنها، فلا تبيعوا آخرتكم بدنيا غيركم، فتكونوا ككلبِ الصيد يتبع طرائد سيده وليس له من هذا السباق إلا الجهد والتعب!

الثانية: اتقوا الله في حقوق الناس، فإنَّ العبدَ أن يأتي يوم القيامة بألف ذنب بينه وبين الله، أهون من أن يأتيه بذنبٍ واحدٍ بينه وبين الناس، فإنَّ الله من رحمته وعفوه يغفر ما كان بحقه، ولكنه من عدله يأخذُ حقوق الناس!

فيا أيها الذي أكل حق إخوته في الميراث،

ويا أيها الذي استعملَ أجيراً مسكيناً فلما أتمَّ عمله لم يعطِه أجره،

ويا أيها الذي استدان من رجل ديناً ولم يكن هناك عقد ولا شهود فأنكره،

ويا أيها الذي شهدَ شهادة زور جعلتْ الحقَّ باطلاً والباطل حقاً،

تداركوا أنفسكم، وأعيدوا الحقوق إلى أهلها من قبل أن تقوم محكمة الآخرة، عند قاضي السماوات والأرض، حيث لا درهم ولا دينار، ويودُ الظالم لو افتدى نفسه بملء الأرض ذهباً ولن يُقبل منه حينها، اليوم عمل ولا جزاء، وغداً جزاء ولا عمل، وهنيئاً لمن أتى الله ولم يُصِبْ دماً حراماً، ولم يخُضْ في عرض أحدٍ، ولم يأكل مال أحد!

أين المتصدق بعرضه البارحة؟!

كانت غزوة تبوك علامةً فارقةً في غزوات النبي صلى الله عليه وسلم رغم أنه لم يحدث فيها قتال أبداً، ولكنها كانت كذلك لأنها كانت الغزوة الأبعد مسافةً عن المدينة المنورة، ولأن الوقت صيف والصحراء لظى، وما زاد الطين بِلَّةً

أن بيت المال كان خالياً، فحثَّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم المسلمين على الصدقة لتجهيز الجيش الذي عُرف في كتب السيرة بجيش العُسرة!

فجادوا ولم يُقصروا، جاء أبو بكر بكل ماله، وعمر بنصف ماله، والعباس بن عبد المطلب بدراهم لا تُحصى، وكلٌّ قد جادَ مما عنده، غير أن تلك الغزوة كانت غزوة الثّري عثمان بن عفان الذي جهَّز وحده ثلث الجيش، فحاز على وسام نبوي شريف من رتبة: ما ضرَّ عثمان ما فعل بعد اليوم!

وبينما النبيُّ صلى الله عليه وسلم يحثُّ على الصدقة، قام عُلبة بن زيد فقال: يا رسول الله إني فقير، وليس لديَّ ما أتصدقُ به، ولكني أُشهدكَ أني تصدقتُ بعرضي على من ناله من المسلمين.

فلم يُعلقْ النبي صلى الله عليه وسلم على قول عُلبة، ولكنه في اليوم التالي أمرَ من يُنادي: أين المتصدق بعرضه البارحة؟!

فقام عُلبة بن زيد فقال: ها أنا يا رسول الله

فقال له النبيُّ صلى الله عليه وسلم: قد قبلَ الله منك صدقتكَ!

أُنظرْ إلى الخُلق الذي يعاملُ اللهُ تعالى به خلقه، فعاملهم أنتَ به تنلْ رضاه!

لا شيء أحبّ إلى الله تعالى من العفو، وإن أحبَّ أسمائه إليه الرحمن، والعفو جزء من الرحمة، فارحمْ تُرحمْ، واعفُ يُعفَ عنك!

كن مبادراً ولا تدع الشيطان يُدندن على وتر كرامتك!

إذا حصل خلافٌ بينك وبين أخٍ أو أختٍ، ورأيتَ الحقَّ معك، فلا تنتظر كثيراً، فكلما طال أمد الخلاف قست القلوب، بادِرْ، وقل اللهم قد تصدقتُ بمظلمتي طمعاً بما عندكَ! وأن الذي قبلَ صدقة عُلبة بن زيد سيتقبل صدقتكَ!

تصدَّق بعرضك على الجار الذي أساء إليكَ وكُن خير ابني آدم!

تصدَّق بعرضك على الزميل الذي أساء إليكَ، فالحقد يفسدُ القلوب، فطهِّرْ قلبكَ بالتسامح!

أعرفُ أن الأمر صعب أحياناً، وأن الإنسان كرامة نهاية المطاف، ولكني أقول ليس بالضرورة أن تعود المياه إلى مجاريها، ولكن لماذا على الماء أن يبقى راكداً وآسناً؟!

ليس المطلوب أن تُعانق عناق الأحبة وإنما المطلوب أن لا تُدبر إدبار الأعداء، وحسبك وعد النبي صلى الله عليه وسلم: ما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عِزاً! مكتبة

إنَّ اللهَ يُحِبُّ معالي الأمور!

كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم سَهْلاً، عذباً، رقيقاً، ليناً، ينهى عن التكلف، ويُسلِّمُ على الأطفال في الطريق، ويرقع ثوبه، ويحلبُ شاته، ويخصِفُ نعله، ويمازحُ زوجاته، ويزور أصحابه، كان بسيطاً دون سذاجةٍ وحاشاه، وعظيماً دون تكبر وحاشاه، ولكن البساطة التي مارسها ودعا إليها هي في شؤون الحياة العادية، فكان يقوم بها دون تعقيد، ولكنه نهى عن الاشتغال بالتوافه من الأمور، وحثَّ على علو الهمة في السعي إلى الآخرة، لهذا قال: إنَّ الله يُحِبُّ معاليَ الأمور، ويكره سفاسفها!

كان الإمام أحمدُ يكثِرُ من ذكر شيخه الإمام الشافعي أمام أهله، ويُثْني عليه، ويُعظِّمُ شأنه، وزار الإمام الشافعيُّ يوماً تلميذه الإمام أحمد في بيته، تناول الضيّفُ الطعام، ومضى إلى فراشه، ثم صلى بأهل البيت صلاة الفجر، ثم عاد إلى مضجعه ليكمل أذكاره...

كان كل شيء يبدو عادياً جداً إلى أن قالت ابنة الإمام أحمد له: يا أبتاه أهذا هو الشافعي الذي كنتَ تحدثني عنه؟

فقال: نعم يا ابنتي

فقالت: سمعتك تُعظِّم الشافعي، وما رأيتُ له هذه الليلة لا صلاةً ولا ذِكراً ولا وِرداً، وقد لاحظتُ عليه أموراً ثلاثة!

فقال: وما هي يا ابنتي؟

فقالتْ: عندما قدَّمنا له الطعام أكل كثيراً على خلاف ما سمعته عنه، ولم يقُم ليصلي الليل، وعندما صلى بنا الفجر لم يتوضأ!

فأخبرَ الإمامُ أحمد الإمامَ الشافعي بما قالته ابنته

فقال الشافعي: يا أحمد لقد أكلتُ كثيراً لأنني أعلمُ أن طعامكَ حلال، والطعام الحلال دواء، وبي مرض، فأكثرتُ من طعامكَ لا لأشبع وإنما لأتداوى!

وأما أنني لم أقم لصلاة الليل، فلأني عندما وضعتُ رأسي لأنام، نظرتُ فكأنَّ أمامي الكتاب والسُّنة، ففتح الله عليَّ باثنتين وسبعين مسألة من علوم الفقه، رتبتها في منافع المسلمين، فحال التفكير بها بيني وبين قيام الليل!

وأما أنني صليتُ بكم الفجر بغير وضوء، فواللهِ ما نامتْ عيني حتى أجدد الوضوء فصليتُ بكم الفجر بوضوء العشاء!

ثم ودَّعه ومضى، فقال الإمام أحمد لابنته: هذا الذي عمله الشافعي الليلة وهو مستلقٍ أفضل مما عملته وأنا قائم!

لقد أعطتنا ابنة الإمام أحمد درساً عملياً في الاهتمام بمعالي الأمور وترك سفاسفها! فملاحظاتها كانت حول طعام كثير لا تعهده من الفقهاء، وحول قيام الليل، ووضوء الفجر! إنها لم تُعلِّق على ثياب الإمام الشافعي، ولا عمامته، ولا شكله، ولا مظهره، فالاشتغال بالمظاهر، وبفلان لبس كذا، وفلانة اشترت كذا، وعِلاَّن سافرَ، وعلتان عاد، هو من سفاسف الأمور!

انظروا إلى الدنيا بعين الآخرة تعتادون الاهتمام بمعالي الأمور!

فليدَعِ الناسَ أذاه!

سأل أبو ذرٍ النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله دُلَّني على عملٍ إذا عملَ العبدُ به دخلَ الجنَّة.

فقال: يؤمنُ بالله.

فقال أبو ذر: يا رسول الله وإنَّ مع الإيمان عملاً؟

فقال له: يرضخُ/ يعطي مما رزقه الله.

فقال أبو ذر: وإن كان معدوماً؟

فقال له: يقولُ معروفاً بلسانه.

فقال: وإن كان عيياً لا يبلغُ عنه لسانه؟

فقال له: فيعينُ مغلوباً.

فقال أبو ذر: فإن كان ضعيفاً؟

فقال له: فليصنعْ لأخرقٍ.

فقال: وإن كان أخرقَ؟

فقال له النبيُّ صلى الله عليه وسلم: ما تريدُ أن تدعَ في صاحبكَ شيئاً من الخير، فليدعِ النّاس من أذاه!

كفُّ الأذى عن النَّاسِ عبادة!

فتعبَّدوا اللهَ تعالى على مبدأ: إن لم تنفع فلا تضُرْ!

المسكين الذي احتاج عمليةً جراحية وطلبَ مساعدة الناس، ولمْ تُردْ أن تساعده فلا تقُلْ إنه تاجر وأنه جمعَ ما يكفي، وتجعل من نفسك محاسب المستشفى، كُفَّ شرَّكَ وباركَ الله بكَ.

الفتاة التي انفصلتْ عن خطيبها دعها وشأنها، العلاقات أسرار، والزواج رزق وكل إنسان يأكل رزقه، فلا تجعل من نفسك جاسوساً تريدُ أن تعرف ما السبب، فلا تترك مجلساً جلستَ فيه إلا وفتحتَ السيرة لتزيد وتستزيد!

الثري الذي يتصدق ليس مرائياً كما تشيعُ بين الناس لترممَ عجزكَ أنكَ لستَ مثله، دعه وشأنه ربه أعلم به، ولا تجمع إثم التقصير وإثم الغيبة!

الكلمة السيئة التي يقولها فلان عن فلان في حضورك، اكتمها، ولا تشتغل ساعي بريد عند إبليس!

والخصام بين أخوين إما أن تسعى في حلِّه، أو تتنحى بارك الله فيك ففي تنحيك هذا عمل عظيم، ولكن لا تصبَّ الزيت على النار، الأمور مستعرة دون جهودك الشيطانية!

العبادة قسمان: فعل معروف وترك منكر، فإذا تركتَ الناس وشأنهم فقد أقمتَ نصف العبادة، وإذا اشتغلتَ بنفسك وآخرتك، تكون قد قمتَ بالنصف الأخر، ولكن للأسف ما أكثر من ترك نصف العبادة، واشتغل بنصف المنكر!

إنما بِعتُكَ الأرضَ وما فيها!

كان من عادة النبيِّ صلى الله عليه وسلم أن يقُصَّ على أصحابه من أخبار الأمم السابقة بهدف العِظة والاعتبار، فقال لهم يوماً: اشترى رجلٌ من رجلٍ عقاراً له، فوجدَ الرجلُ الذي اشترى العقار في عقاره جرَّةً فيها ذهب!

فقال للذي اشترى منه العقار: خُذْ ذهبكَ مني، إنما اشتريتُ منكَ الأرضَ، ولم اشترِ منكَ الذَّهب!

فقال له صاحب الأرض: إنما بعتكَ الأرضَ وما فيها!

فتحاكما إلى رجلٍ، فقال: ألكما ولد؟

فقال أحدهما: لي غلام.

وقال الآخر: لي جارية.

فقال لهما: أَنكِحوا الغُلامَ الجاريةَ، وأنفقوا عليهما منه، وتصدَّقا!

الورعُ في هذه القصة مذهل، والمرءُ لا يعرفُ ممن يعجبُ، من الرجل الذي اشترى الأرضَ وكان بإمكانه أن يأخذ الذهب دون أن يدري أحد، ثم هذا حقه وقد اشترى الأرض. أم من الرجل الذي باع الأرضَ فرفضَ أن يأخذ الذَّهب بعدما جاءه صاحبه به خالصة به نفسه، فاعتبرَ أنه لا حقَّ له فيه بعد أن باعَ الأرض بما فيها!

وعن الورع أحدثكم:

كان لأبي بكر الصديق غلام يخرج له الخَراج، وكان أبو بكر يأكل من خراجه، فجاءه يوماً بشيءٍ فأكل منه، فقال له الغلام: تدري ما هذا؟

فقال: كنتُ قد تكهنتُ لإنسان في الجاهلية، وما أحسنُ الكهانة غير أني خدعته، فلقيني فأعطاني بذلك هذا الذي أكلتَ منه!

فأدخلَ أبو بكر يده في فمه فقاءَ كل شيءٍ في بطنه كي لا يدخل جوفه حرام!

وكان عمر بن عبد العزيز يقسمُ تفاحاً بين الناس، فجاءِ ابن له وأخذ تفاحة، فوثبَ عليه عمر وأخذ التفاحة منه وأعادها إلى مكانها، فذهبَ الغلام إلى البيت حزيناً وحدَّث أمه، فأرسلت خادماً لها فاشترتْ تفاحاً، فأطعمت الصبي وأكلتْ، ولما جاء عمر بن عبد العزيز وضعتْ بين يديه تفاحاً، فقال لها: يرحمكِ الله، واللهِ لقد كنتُ أشتهيه اليوم!

خليفة المسلمين تورَّع عن تفاحة اشتهاها من مال الناس وهو واحد منهم!

وجاءتْ أختُ بِشر الحافي إلى الإمام أحمد فقالتْ: إنَّا نغزلُ على سطوحنا بشعلة الملك/ ضوء مصباحه فهل يجوز لنا ذلك؟

فقال لها: من أنتِ يرحمكِ الله؟

فقالتْ: أخت بشر الحافي!

فبكى الإمام أحمد، وقال لها: من بيتكم يخرجُ الورع الصادق، لا تغزلي على شعاعها! مكتبة

دخلَ عبد الله بن مسعود على النبيِّ صلى الله عليه وسلم فوجده يوعك/ يتوجع، فقال له: يا رسول الله إنَّكَ توعك وعكاً شديداً!

فقال له النبيُّ صلى الله عليه وسلم: أجل، إني أوعكُ كما يوعكُ رجلان منكم!

فقال له ابن مسعود: ذلكَ أنَّ لكَ أجرين؟

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أجل. ذلكَ كذلكَ، وما من مسلم يصيبه أذىً، شوكة فما فوقها إلا كفَّرَ اللهُ بها سيئاته، كما تحطُّ الشَّجرة ورقها!

لفهم هذا الحديث لا بُدَّ أولاً أن ننطلق من فكرة لا يخامرها شكّ ألا وهي أن الله سبحانه رحيم، غنيٌّ عن عذاب عباده، المؤمنين منهم خاصة، وأن كل ما يبدو للعبد عكس ذلك فهو من حكمة الله التي غابتْ عن فهمه البشري القاصر، كل ما في الأمر أن هذه الدنيا دار امتحان وبلاء، وليست دار جزاء وإقامة، وكما يقول ابن القيم: الناسُ مُذْ خُلقوا ما يزالون مسافرين، وليس لهم محطّ رِحال إلا في الجنَّةِ أو النار!

لو كان المرضُ عذاباً ما أُصيب به خيرة خلق الله، وصفوة رسله، ولكن لله حكمة في الأمر، فالأمراض جند من جنود الله يستخدمها حيث يشاء، وعلى من شاء، ومن استقام له فهم الحكمة الإلهية سَهُلَ عليه الصَّبر،

وخرجَ من الأمر بالأجر، ومن استعصى عليه الفهم، غضبَ وتسَخَّطَ، وخرج من الأمر بالوزر!

قد يبتعدُ المسلم عن ربه، فيكره الله ابتعاد عبده، ويريدُ أن يدنيه، فيرسل عليه المرض ليعيده إليه، فإن عاد رفعه عنه، فعندما ينزل بكَ المرض راجع حساباتكَ، وعندما تجدُ نفسكَ أنكَ ابتعدتَ فعلاً، فقل: يا رب لك الحمدُ زهدتُ فيكَ لحظة غفلة وأنا الفقير إليك، فلم تزهد بي وأنتَ الغنيُّ عني، لكَ الحمدُ ربي قد فهمتُ حكمتكَ، ها قد عدتُ إليكَ!

وقد يكون المسلمُ قريباً من ربه، ولكن ما من قريب إلا وله أخطاء، في زوجة لم يعاملها تمام حسن المعاملة، وفي أخ لم يصله تمام الوصل، وفي تجارة لم يقُم بها تمام القيام، وفي لسان قال ما لا ينبغي أن يُقال، وفي عين نظرتْ إلى ما لا يحِلُّ لها أن تنظر، فيرسلُ الله المرضَ على عبده ليطهره مما اقترفَ، وليحطَّ عنه خطاياه كما تحطُّ الأشجار أوراقها في الخريف، المرض خريف السيئات، وبه تتساقط، فقل: ربِّ لكَ الحمدُ، لقد اقتربتُ منكَ قرباً كان فيه لوثة، وعبدتكَ عبادة كان فيها مشوبة، فلكَ الحمدُ أنكَ تريدُ أن تطهرني لأقدمَ عليكَ نقياً!

وقد يخلقُ الله تعالى للمسلم كرماً منه منزلة في الجنة لا يبلغها في الدنيا، فيرسل الله سبحانه وتعالى عليه المرض والابتلاء ليستحقَّ المنزلة بجدارة، فإن

لم تكن قد ابتعدتَ أساساً، وإن كنتَ قريباً كما ينبغي للعبد أن يكون، فأحسِنْ الظنَّ بالرحمن، فهي مرتبة في الجنة ليس لكَ عمل يوصلكَ إليها، فقُلْ: لكَ الحمدَ ربي أنت قيوم السماوات والأرض، تريدُ لي رفعةً عجزتُ أن أصل إليها بعملي، فأعنتني إذ ابتليتني.

وتذكروا دوماً قول عمر بن الخطاب: الخيرُ كله في الرضى، فإن استطعتَ فارضَ، وإن لم تستطِعْ فاصْبِرْ!

يأتي عليكم أُويس بن عامر!

كان عمر بن الخطاب في زمن خلافته إذا جاءه وفد من اليمن قال لهم: أفيكم أُويس بن عامر؟

فيقولون: لا.

حتى كانت مرَّةً، وجاء وفد من أهل اليمن فسألهم سؤاله المعهود: أفيكم أويس بن عامر؟

فقيل له: ذاك أُويس بن عامر!

فقال له عمر: أنتَ أُويس بن عامر؟

فقال له: نعم.

فقال عمر: من مُرادٍ ثم من قرن؟

فقال له: نعم.

فقال عمر: فكانَ بكَ برصٌ فبرأتَ منه إلا موضع درهم؟

فقال له: نعم.

فقال عمر: لكَ والدة أنتَ بارٌ بها؟

فقال: نعم.

فقال عمر: فإني سمعتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقول: يأتي عليكم أُويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن، من مُراد ثم من قرن، كان به برصٌ فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدة هو برٌّ بها، لو أقسم على اللهِ لأبرَّه، فإن استطعتَ أن يستغفر لكَ فافعلْ! فاستغفِرْ لي

فاستغفر أويسٌ لعمر بن الخطاب، ثم سأله: أين تريدُ؟

فقال أويس: إلى الكوفة.

فقال له عمر: فهل أكتبُ إلى واليها كتاباً أوصيه بكَ؟

فقال أويس: لا، فإني أُريدُ أن أكون في سواد الناس فلا أُعرف!

وأنتَ تتعامل مع بسطاء المسلمين تذكَّرْ هذه القصة، لعلَّ فيهم أُويساً مجهولاً لا يعرفه أحد، ولو أقسم على الله لأبرَّه!

ما أدراك أن عامل البلدية البسيط له عند الله مكانةً لم يبلغها أحد من المشاهير الذين تعرفهم؟

وما أدراك أن لبائع الخضار الذي تمرُّ به على عجلٍ، أم مريضة فهو قائم عند قدميها، وله قيام ليل قد رفعه علياً، وله عبادات خفيتْ عليكَ ولكنها لم تخفَ على الله؟

ما أدراك أن سائق سيارة الأجرة قد حجزَ مكاناً في الجنة بأيتامٍ لأخٍ له يعولهم، وبقرآن يتلوه آناء الليل وأطراف النهار، وبقلبٍ طيبٍ يحبُّ الخير للناس جميعاً؟

لا يمنعُ أن يكون أولياء الله أطباء أو مهندسين، وزراء أو مشاهير، ولكن الفكرة تكمن أن لا تستصغر أحداً من الناس، وأن لا تخدعنَّك المظاهر، كان عمر بن الخطاب يبحثُ كل يوم عن أويس القرني، لأنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم أخبره عنه، فكم من أويس لا يعلمهم إلا الله، نمرُّ بهم كل يوم ولا نحفل بهم، فغيِّرْ معايير حكمك على الناس!

لو كان هذا في بيتك!

وقفَ رجلٌ يُصلي في المسجد، فسجدَ، وجعلَ يبكي بكاءً شديداً، فقام إليه أبو أمامة الباهلي صاحب النبيِّ صلى الله عليه وسلم وقال له: أنتَ، لو كان هذا في بيتك!

حاصرَ المسلمون حصناً من حصون الروم وطال الحصار، واشتدَّ الانتظار على المسلمين، وأثخنتهم سهام العدو، فقام رجلٌ من المسلمين سراً إلى ناحية من نواحي الحصن، فحفرَ نفقاً دون أن يدري عنه أحد، ثم دخل منه إلى حصن الروم، وهجمَ على حُرَّاس الباب، فجعلوا يضربونه ويضربهم حتى فتح الباب ودخل جيش المسلمين، ومنَّ اللهُ عليهم بالنصر!

فنادى قائد الجيش مسلمة بن عبد الملك وقال: ليخرج إليَّ صاحب النَّفق!

فلم يخرج أحد!

فقال: أُحرِّج على صاحب النَّفق بحقي من الإمارة أن يأتيني!

فلم يخرج أحد!

فلما كان الليل، دخل الحارس على مسلمة بن عبد الملك وقال له: رجل في الباب يقول إنه مرسل إليك من صاحب النفق!

فأدخله مسلمة على جناح السرعة، وقال له: من صاحب النفق؟

فقال الرجل: إنه يشترط عليك شروطاً قبل أن يخبرك من هو!

فقال مسلمة: وما هي شروطه؟

فقال الرجل: أن لا تسأل عنه، ولا تبحث عنه، ولا تدْعُه إلى مجلسك!

فقال مسلمة: له ما اشترط فمن هو صاحب النَّفق؟!

فقال الرجل: أنا صاحب النفق، فلا تسأل عني، ولا تبحث عني، ولا تدعني إلى مجلسك!

ثم خرج من الخيمة واختفى بين الجند!

فكان مسلمة بن عبد الملك كلما دعا بعدها قال: اللهم احشرني مع صاحب النَّفق!

ليس بالضرورة أن توثق كل خير تفعله كلَّف اللهُ الملائكة بهذه المهمة، فاطمئن، عملك مكتوب وأجرك محفوظ!

ليس بالضرورة أن يرى الناس كل صدقةٍ تصدقتَ بها، ولا كل بطنٍ جائع أشبعته، ولا كل محتاج ساعدته، ولا كل خلافٍ أصلحته، ولا كل دمعةٍ مسحتها، ولا كل مظلوم أنصفته، ما شاء الله كرماً منه أن يُظهره من عملكَ الصالح فبها ونعمتْ، وما كان بإمكانك أن تُخفيه فلا تُظهره، فكم من عملٍ صالح لما اطلع عليه الناس فسدتْ النية التي من ورائه. وربما طلب الإنسان الأجر من الناس وهو لا يدري فحبط العمل، وفي الحديث

القدسي: أنا أغنى الأغنياء عن الشرك، من عمل عملاً أشركَ فيه معي غيري تركته وشركه!

أما واللهِ لأستغفرنَّ لكَ!

عندما حضرتْ أبا طالبٍ الوفاةُ، جاءه النبيُّ صلى الله عليه وسلم فوجدَ عنده أبا جهلٍ وعبد الله بن أبي أُميَّة. فقال له: يا عمْ قل لا إله إلا الله. كلمة أشهدُ لكَ بها عند اللهَ.

فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أُميَّة لأبي طالبٍ: أترغبُ عن ملة عبد المطلب؟

فلم يزل النبيُّ صلى الله عليه وسلم يعرضُ عليه أن يقول لا إله إلا الله، ولم يزل أبو جهل وعبد الله بن أمية يقولان له: أترغبُ عن ملة عبد المطلب؟!

حتى قال: أنا على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول لا إله إلا الله، وماتَ على ذلك.

فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: أما واللهِ لأستغفرنَّ لكَ ما لم أُنْهَ عنك!

فأنزل اللهُ تعالى قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

لا يكاد يخلو عام إلا ويموتُ فيه عالم قد أسدى للبشرية خدمات جليلة في الطب أو الهندسة وهو على غير ملة الإسلام، عندها تجد بعض المسلمين ممن يخلطون بين الرحمة الإنسانية وبين تمام العقيدة يدلون بدلوهم، ويرسلون الرجل إلى الجنة كأن بأيديهم مفاتيحها، ويقول لك أحدهم كيف يُعذب اللهُ أحداً اخترع دواءً وخفف آلام الناس، كيف سيدخل أديسون النار وقد أضاء لنا كوكب الأرض بالكهرباء، وكأن مفتاح الجنة أن تخترع دواءً أو مصباحاً.

على المقلب الآخر تجد قسماً آخر من المسلمين يقطع لهذا العالم الذي ماتَ على غير الإسلام بالنار كأنهم يحملون مفاتيحها أيضاً.

وكلاهما على خطأ وإن كان خطأ الفئة الثانية أيسر من خطأ الفئة الأولى!

نحترم العلم والعلماء، ونقدر خدماتهم الجليلة في سبيل الإنسانية، ولكن هذا شيء والجنة والنار شيء آخر! دفاع أبي طالبٍ عن النبي صلى الله عليه وسلم أهم من اختراع دواء ومصباح. ولكن هذا الدفاع لم يسعفه لأنه ماتَ على

الشرك! هكذا يجب أن يُنظر إلى الأمر بعقيدة لا بعاطفة، مع إيمان ثابت أنه لا أحد أعدل وأرحم من الله!

بالمقابل، قلة أدب مع الله أن نقطع بالنار لشخص بعينه، وإنما نقول بالجملة، أنه من ماتَ على غير الإسلام بعد أن سمعَ به ووصله فرفضه دخلَ النارَ، مع إيمان راسخ أن الأمر لله أولاً وآخراً إن شاء عذَّبَ وإن شاءَ غفرَ.

لن يُسأل الناس في قبورهم عن الكهرباء التي اخترعوها، ولا الأدوية التي صنعوها، ولا الجسور التي أقاموها، وإنما هي العقيدة أولاً وأخيراً.

فلا نخلط بين مسلمات ديننا وبين إنسانيتنا وشفقتنا على الآخرين وتقديرنا لجهودهم، ونتأدب مع الله فلا نقطع بالنار لأحد بعينه، وإنما بعموم الثابت في ديننا، وبصريح قول ربنا: «وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ».

فأقام على التماسه!

كان من عادة النبي صلى الله عليه وسلم أنه إذا أراد السفر أقرعَ بين نسائه، فأيما وقعتْ عليها القرعة أخذها معه، فوقعت القرعة مرةً على عائشة، فلما

كانوا في الصحراء انقطع عقدٌ لها، فأقام النبي ﷺ على التماسه / البحث عنه، وأقام الناس يبحثون معه، ولم ينزلوا يومها عند عين ماء، ولم يكن معهم منه إلا ما يكفي الشرب فقط.

فأتى الناسُ أباها فقالوا: يا أبا بكرٍ ألا ترى ما صنعتْ عائشة؟ أقامت بالنبي ﷺ والناس، وليسوا على ماءٍ إذا حضرتِ الصلاة!

فدخل أبو بكر على عائشة، فإذا النبيُّ ﷺ واضع رأسه على فخذها قد نام لقيلولته.

فقال لها أبو بكر: حبستِ رسول الله ﷺ، والناس، وليسوا على ماء.

وجعلَ يطعنها بإصبعه في خاصرتها مما سمعَ من الناس، وهي تصبر ولا تتحرك حتى لا توقظ النبي ﷺ.

ثم قام النبيُّ ﷺ، وحضرتِ الصلاة، وأنزل الله تعالى آية التيمم فقال أُسيد بن حُضير لأبي بكر: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر!

فتيمم الناسُ، وصلوا، ولما يئسوا من إيجاد عقد عائشة، أرادوا الارتحال، فحركوا الناقة التي كانت تركبُ عليها، فإذا العقد تحتها، فأخذته ومضت.

أوقفَ الجيش كله، وعسكرَ بالناسِ ليبحث لها عن عقدها الذي فقدته عندما علم أنه أثير على قلبها، لم يمنعه الموقف كله أن يُراعي خاطرها، ويمشي في حاجة تسعدها، ولم يخشَ أن يقول أحدٌ أنه عطَّلَ مسير الجيش لخاطر زوجته!

أراد أن يعلمنا أن الحنون يبقى حنوناً حتى في أصعب المواقف، وأن جبرَ الخواطر له متسع مهما كانت الظروف، وأن الإحسان إلى الزوجة ليس ضعفاً في الشخصية، وأن مراعاة مشاعرها ليس تبعية لها، وأن فعل ما يسعدها لا يعني أنها تحكمه، وأن السَّعي لإسعادها ليس نقصاً في الرجولة، فهو سيد الرجال، ولا يفعل إلا مكارم الأخلاق، وتمام الرجولة!

أما أنتَ فلا توقف لها الجيش، ولا تحبس لأجلها الناس عن المسير، ولكن أرِها كل يوم أنكَ تهتم لمشاعرها، وافعَلْ ما يسعدها، أزِلِ الحزن عنها، إذا استطعتَ، استغِلّ أصغر الفرص لتظهر عاطفتكَ نحوها، أشياء صغيرة جداً يقوم بها الرجل تجعله يأسر قلبَ زوجته، فإنَّ إظهار الاهتمام هو إظهار للحب،

فعيشوا مشاعركم، ولا تخجلوا بها، وقد كان لنا في النبيّ صلى الله عليه وسلم أُسوة حسنة.

حتى ينظرَ إلى وجوه المومسات!

كان جُريج رجلاً عابداً، فاتخذ صومعة يعبدُ الله فيها، فأتته أمه وهو يصلي، فقالت: يا جُريج.

فقال: يا رب أمي وصلاتي! فأقبلَ على صلاته، فانصرفتْ أمه.

فلما كان الغد جاءته وهو يصلي، فنادت يا جُريج.

فقال: يا رب أمي وصلاتي! فأقبلَ على صلاته، فانصرفتْ أمه.

وفي اليوم الثالث تكرر المشهد بالحرف، فغضبتْ أمه، ودعتْ عليه فقالت: اللهمَّ لا تمته حتى ينظر إلى وجوه المومسات!

ثم إن بني إسرائيل تذكروا جُريجَ وعبادته، فعرضتْ بغيٌّ من بغايا بني إسرائيل عليهم أن تراوده عن نفسه، فقبلوا، فجاءته، فلم يلتفت إليها!

فذهبتْ خائبة حتى وجدتْ راعياً، فأمكنته من نفسها، فحملتْ منه، ولما ولدتْ جاءتْ إليهم وقالت: هذا ابن جُريج!

فذهبوا إليه فضربوه، وهدموا صومعته، فلما علم بافتراء البغيّ عليه قال: دعوني أصلي!

فلما صلى، نادى بالغلام الرضيع، فلما جيء به قال له من أبوك؟

فقال: فلان الراعي!

فأقبلوا على جُريج يقبلونه ويعتذرون منه، وعرضوا عليه أن يبنوا له صومعته من ذهب، فرفضَ وقال: لا، أعيدوها من طين كما كانتْ!

هذه قصة ثرية قصَّها النبيُّ صلى الله عليه وسلم على أصحابه، ولو أردنا أن نستخرج منها عشرات الدروس لكان قليلاً عليها، ولكن لفتني فيها نقطة واحدة أحببتُ أن أقف عندها ألا وهي دعاء الأبوين على أولادهما!

القدر موكل بالمنطق، وعلى الأبوين أن يمسكا لسانهما عند الدعاء بالشر على أولادهما مخافة أن يوافق دعاؤهما ساعة استجابة، ولاتَ حين مندم!

المشاهد عياناً أن الأم لعاطفتها وسرعة غضبها وملازمتها الأبناء أكثر من الأب هي أكثر دعاءً عليهم، فتجدها تدعو على ولد بعدم التوفيق، وعلى بنتٍ بكسر القلب، وعلى آخر بالفضيحة، وعلى أخرى بأن ينتقم الله منها، وهي حين تدعو فهي تدعو بلسانها لا بقلبها، ولكن اللسان بندقية قاتلة إن وجد ساعة استجابة، فأمسكوا ألسنتكم يرحمكم الله، ولا تدعوا على أولادكم بل ادعوا لهم!

رأى عمر بن الخطاب شيخاً كبيراً يده مشلولة فسأله عنها.

فقال: هذا بدعاء أبي عليَّ في الجاهلية!

فقال عمر: هذا دعاء الآباء في الجاهلية فكيف في الإسلام!

وكان الزمخشري مقطوع الرِّجل، فسُئل عن ذلك

فقال: بدعاءِ أمي عليَّ! ذلك أني كنتُ في صِباي أمسكتُ عصفوراً وربطتُه بخيط في رجله، فشددتها فانقطعتْ!

فتألمتْ أمي وقالت: قطع الله رجلكَ كما قطعتَ رجله!

فلما كبرتُ، وكنتُ في سفرٍ إلى بُخارى لطلب العلم، سقطتُ عن الدابة، فانخلعتْ رجلي، ووجبَ قطعها!

استوِ يا سواد!

لما كانت غزوة بدر، اصطفَّ المسلمون لمواجهة عدوّهم، وتفقَّدَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم صفوف جيشه وفي يده عصاً يعْدِلُ بها اعوجاج الصفوف، فمرَّ بسواد بن غزيّة وكان خارجاً عن الصَّف، فطعنه بالعصا في بطنه وقال له: استوِ يا سَواد!

فقالَ سوادُ: يا رسول الله قد أوجعتني، وقد بعثكَ اللهُ بالحق والعدل، فأقِدْني/ اجعلني أقتصُّ منكَ!

فكشفَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم عن بطنه وقال له: اِستقِدْ يا سواد!

فاعتنقه سوادٌ وقبَّل بطنه!

فقال له النبيُّ صلى الله عليه وسلم: ما حملكَ على هذا يا سواد؟

فقال: يا رسول الله، قد حضرَ ما ترى، فأردتُ إن أنا قُتلتُ أن يكون آخر عهدي من الدنيا أن يمسَّ جلدي جلدكَ!

فدعا النبيُّ صلى الله عليه وسلم بخيرٍ، وقال له: استوِ يا سواد!

إلى هذه الدرجة كان الصحابة يحبون النبيِّ صلى الله عليه وسلم، بل وأكثر من هذه الدرجة وهذه بعض صور حبهم له بأبي هو وأمي.

كان الصحابي الجليل أبو محذورة لا يحلقُ شعره، لأن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قد مسح يوماً على رأسه، كان يكره أن يحلق شعراً مسته يد النبي صلى الله عليه وسلم!

ويوم بدر أراد النبيُّ صلى الله عليه وسلم أن يسمعَ رأي الأنصار قبل الحرب، لأنهم وعدوه أن يدافعوا عنه في المدينة، وها هم خارجها الآن، فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله أموالنا بين يديكَ، خُذ منها ما شئتَ، ودع منها ما شئتَ. وما أخذته كان أحبَّ إلينا مما تركته لنا، ولو استعرضت بنا البحر لخضناه معكَ ما تخلَّفَ منا أحد، إنا واللهِ لَصبرٌ في الحرب، صدق عند اللقاء، فامضِ بنا حيثُ أمركَ الله!

ويوم أُحد أقام الصحابة سياجاً بأجسادهم حول النبيِّ صلى الله عليه وسلم، وقام أبو طلحة بين يديه كي لا يصيبه سهم، وقال له: نحري دون نحركَ يا رسول الله!

وعندما أخبرَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم أبا بكرٍ بأنه قد أُذِنَ له بالهجرة، قال له أبو بكر: الصحبة يا رسول الله.

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: الصحبة يا أبا بكر.

فبكى أبو بكر، حتى قالت عائشة فيما بعد: فواللهِ ما علمتُ قط قبل ذلكَ اليوم أن أحداً يبكي من الفرح حتى رأيتُ أبا بكرٍ يبكي يومئذٍ.

وفي طريق الهجرة كان يسير مرةً خلفه ومرةً أمامه، فسأله النبيُّ صلى الله عليه وسلم عن ذلك. فقال: أذكرُ الطلبَ/ ما يأتي من الخلف فأمشي خلفكَ، وأذكرُ الرصد/ المترصد من الأمام فأمشي أمامك!

وسأل النبيُّ صلى الله عليه وسلم ثوبان: ما غيَّرَ لونكَ

فقال: يا رسول الله ما بي مرضٌ ولا وجع، غير أني إذا لم أركَ استوحشتُ حتى ألقاكَ!

والصحابيات كُنَّ في حبه كالصحابة بل أشد، فهذه أم عمارة يقول النبيُّ صلى الله عليه وسلم عنها يوم أحد: لم ألتفِتْ إلا ووجدتها تُقاتل دوني!

ويوم أُحدٍ جاءت امرأة من بني دينار تتفقدُ أهلها، فقيل لها أن أباها وأخاها وزوجها قد استشهدوا جميعاً!

فقالت: وما فعلَ رسول الله؟

قالوا: هو بخير.

فقالت: أروني أنظر إليه، حتى إذا رأته قالت له: كل مصيبةٍ بعدكَ جلل/ صغيرة يا رسول الله!مكتبة

فشكرَ اللهُ له!

حدَّثَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يوماً أصحابه فقال: بينما رجلٌ يمشي بطريقٍ اشتدَّ عليه العطش، فوجدَ بئراً فنزل فيها، فشربَ وخرجَ، فإذا كلبٌ يلهث، يأكل الثرى من العطش!

فقال الرجلُ: لقد بلغَ هذا الكلب من العطش مثل الذي بلغ مني، فنزلَ البئر فملأ خُفَّه ثم أمسكه بفمه، حتى صعدَ فسقى الكلب، فشكرَ الله له، فغفرَ له!

وحفظَ عنه أصحابه الدرس جيداً، وكانوا صُوراً من صورة رحمته، ولهم في الرحمة على الحيوانات قصصٌ تُكتبُ بماء الذهب على صحائف من فضة!

كان الصحابيُّ الجليل عَديُّ بن حاتم الطائي يفُتُّ الخبزَ للنملِ قربَ جدارِ بيته، ويقول: إنهنَّ جارات لنا ولهُنَّ علينا حق الجوار!

عندما مرضَ أبو الدرداء مرضَ موته، نظرَ إلى باحةِ داره، فرأى بعيراً له كان يستخدمه في معاشه فقال: يا أيها البعير لا تخاصمني إلى ربِّكَ، فإني لم أحمِّلكَ فوقَ طاقتك!

واشتهى عمر بن الخطاب السَّمكَ يوماً، فقال: لقد خطرَ على قلبي شهوة الطَّري من حيتان البحر.

فخرجَ خادمه يرفأ على ناقةٍ لعمر يطلبُ السَّمكَ، فسارَ ليلتين ذاهباً، وليلتين عائداً، وجاء بالسمكِ إلى عمر، فنظر عمر إلى الدابة فرأى عَرَقاً تحت أذنها

فقال ليرفأ: عذَّبتَ بهيمةً من البهائم في شهوة عمر، واللهِ لا أذوقه أبداً، كُله أنتَ!

واللهِ إنه لدين عظيم يرفعُ المرءُ رأسه فخراً أنَّ الله سبحانه قد هداه إليه!

فإذا كان عديُّ بن حاتم يفتُّ الخبزَ للنمل لأنه له عليه حقَّ الجار، فكيف تراه كان يتصرَّفُ مع جيرانه من المسلمين؟!

وإذا كان أبو الدرداء يطلبُ من البعير أن لا يخاصمه عند اللهِ فهو لم يحمل عليه فوق ما يُطيق، فكيف كانت أخلاقه مع أهله وخدمه؟!

وإذا كان عمر قد امتنعَ عن أكل سمكٍ اشتهاه لأنَّ دابةً قد تعبتْ في إحضاره فكيف كانت شفقته على الناس؟!

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم

فإنَّ التشبه بالكرامِ فلاحُ

مَنْ هؤلاء؟!

كان النبيُّ ﷺ جالساً بين أصحابه، فقالوا له: يا رسول الله، إن الله يقول: ﴿هَا أَنتُمْ هؤلاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾

فمن هؤلاءِ الذين ذكرَ اللهُ إن تولينا استبدلوا بنا ثم لا يكونوا أمثالنا؟

وكان سلمان الفارسي جالساً قرب النبي ﷺ، فضربَ النبيُّ ﷺ فخذ سلمان وقال: هذا وأصحابه، والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لتناوله رجال من فارس!

كان طارق بن زياد من البربر، وصلاح الدين الأيوبي من الأكراد، ومحمد الفاتح من الأتراك، ويوسف بن تاشفين من الأمازيغ، وقطز من المماليك،

وبركة خان من المغول، هؤلاء الأبطال فرقتهم الجنسيات والأعراق وجمعهم الإسلام العظيم!

كان الإمام البخاري من فارس، والإمام مسلم من نيسابور، وابن ماجة من قزوين، وأبو داود من سجستان، والترمذي من أوزبكستان، والنسائي من تركمنستان، هؤلاء المحدثون أصحاب الصحاح الستة فرقتهم الجنسيات والأعراق وجمعتهم سُنة النبي صلى الله عليه وسلم!

إنَّ هذا الدين وإن بدأ بالعرب فإنه ليس للعرب من دون الناس، وليس بين الله وبين أحد من خلقه صلة قربى، فأبو لهب الهاشمي في النار وبلال الحبشي في الجنة، وأبو جهل القرشي في النار وسلمان الفارسي في الجنة، والوليد بن المغيرة المخزومي العريق نسباً في النار، وصهيب الرومي في الجنة!

القرشيون عريقو النسبِ الذين دخلوا النار إنما دخلوها بسوء أعمالهم، والمساكين الذين دخلوا الجنة إنما دخلوها بحسن أعمالهم، بعد أن تغمدتهم رحمة الله تعالى، ولو انتفع أحد بنسب لانتفع أبو لهب وهو عم النبي صلى الله عليه وسلم.

قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم يوماً: «يا فاطمة بنت محمد اعملي فإني لا أغني عنكِ من الله شيئاً، يا صفية عمة رسول الله اعملي فإني لا أغني عنكِ من الله

شيئاً، يا عباس عمَّ رسول الله اعملْ فإني لا أغني عنكَ من اللهِ شيئاً، لا يأتيني الناس يوم القيامة بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم»!

أن يُحبّ الإنسان أصله وقومه شيء، وأن يعتقد أنه أفضل من الناس بسبب أصله وقومه شيءٍ آخر، فالأولى من المروءة، والثانية من الجاهلية!

فما زالت الحُزونة فينا!

جاءَ حَزْنُ بن أبي وهب المخزومي جدُّ التابعي الجليل سعيد بن المسيب إلى النبيِّ ﷺ، فقال له: ما اسمكَ؟

قال: حَزْنٌ، والحَزْنُ هو العصيُّ شديد الطباع!

فقال له النبيُّ ﷺ: أنتَ سهل.

فقال: لا أُغيِّرُ اسماً سمانيه أبي!

ويقول سعيد بن المسيِّب، فما زالت الحُزونة فينا برفضِ جدِّي تسمية النبيِّ ﷺ.

لهذا فإن المتأمل في سيرة سعيد بن المسيِّب يجد أنه على علمه وفضله كان صعبَ المراس شديد الطباع!

جاءَ عبد الملكِ بن مروان لزيارة المدينة المنورة، وعندما أراد أن يستلقيَ من الظهيرة جافاه النوم، فقال لأحد حُرَّاسه اذهبْ إلى المسجد النبوي وانظرْ لي شخصاً يُحدِّثني.

فذهب الحارس ودخل المسجد فإذا سعيد بن المسيِّب في حلقةٍ له يُدرّس الناس، فقال له: أَجِبْ أمير المؤمنين.

فقال له سعيد: أسمَّاكَ لي؟

فقال الحارس: لا، ولكنه قال لي انظُرْ لي شخصاً يُحدَّثني.

فقال له سعيد: قُلْ لأمير المؤمنين أني لستُ من جُلساءِ الأمراءِ!

فلما عادَ الحارس إلى عبد الملك وأخبره بالخبر، وقال له لقد هممتُ أن أضرِبَ عنقه لرفضه المجيء!

فقال له عبد الملك: دعه، هذا سعيد بن المسيِّب وما زال على هذه الحال مُذْ سمعنا به!

كان من عادة النبيِّ صلى الله عليه وسلم إذا أتاه من ليس له اسماً حسناً سمَّاه بغيره، فقد كان يتفاءل بالاسم الحسن، لهذا عندما جاءَ سهيل بن عمرو يوم الحديبية للتفاوض، قال: هذا سُهيل بن عمرو، سُهِلَ لكم من أمركم!

وجاء كثيرُ بن الصلت إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم، فقال له ما اسمك؟

قال: قليل.

فقال له النبيُّ ﷺ: بل أنتَ كثير!

وجاءتْ امرأةٌ من بني غفار إلى النبي ﷺ بابن لها عليه تميمة، فنزع التميمة ورماها، وقال لها ما اسم ابنكِ قالت: السائب.

فقال: بل هو عبد الله.

وكان بعد ذلكَ إذا نوديَ بالسائب لم يُجبْ، فإن نوديَ عبد الله أجاب!

فقيل له: ألا تُجيب لاسمكَ الأول؟

فقال: لا أجيب إلا لاسمٍ سمَّاني به النبيّ ﷺ!

لهذا كان من حقْ الأبناء على أهاليهم أن يسموهم أسماء حسنةً لا يخجلون بها إذا كبروا، كذلك فإنَّ لكل من اسمه نصيب، فتخيروا أسماء أولادكم!

أَمسِكْ بنصالها!

مرَّ رجلٌ بالمسجدِ ومعه سِهَام، فقال له النبيُّ ﷺ: أَمْسِكْ بنصالها!

وقال مرةً لأصحابه: إذا مرَّ أحدكم في مسجدنا أو في سوقنا، ومعه نَبلٌ، فليمسِكْ على نصالها، وليقبضْ عليها بكفِّه، أن يُصيب/ كي لا يُصيب أحداً من المسلمين منها شيءٌ.

كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم حريصاً أن لا يصيبَ المسلمُ أخاه المسلم بأي أذى ولو من غير قصد، لهذا أمر الرَّجل الذي مرَّ بالمسجد أن يمسكَ بنصل سهامه كي لا يجرحَ أحداً بها!

فكل أداة جارحة لها نصل، كالسهم، والرمح، والنبل، والسكين، علينا أن ننتبه جيداً في استخدامها، ونقلها، كي لا نؤذي أحداً بها!

على أنَّ النَّصل ليس حكراً على الأدوات كالسهام والرماح، فاللسان له نصل جارح أيضاً، وقد يكون الجرح الذي يُحدثه أشد أذى من جروح السهام والرماح، فهذه الجروح تبرأ في الغالب، أما الجروح التي يحدثها اللسان ففي الغالب تبقى تنزُّ ألماً في القلب الذي قيلت له، فأمسكوا نِصال ألسنتكم!

إنَّ من أشد ما ابتلينا به هذه الأيام هم الحشريين من الناس، الذين يتدخلون فيما لا يعنيهم، فيفسدون حياة الناس!

تكون المرأة في بيتها صابرة راضية، تعيش على القليل، وتطلب الستر، حتى تأتي شيطانة إنسيَّة تهمسُ لها وقد ارتدتْ ثياب النصح، كما فعل

إبليس من قبل إذا جاء مرتدياً ثياب الناصح يريد أن يدل آدم عليه السلام على شجرة الخلد التي هي شجرة المعصية، فتقول لها: كيف تتحملين هذا الوضع، أثاث بيتك قديم، إنك لا تشترين الثياب للمناسبات، انظري إلى فلانة وفلانة، ثم تمضي في سبيلها، وتبقى كلماتها ترن في أذن صاحبتها، فتفسد عليها حياتها!

ويكون الشاب باراً بوالديه مطيعاً لهما، محترماً قانون الأسرة وضوابطها، حتى يأتيه من يقول له: لماذا لا تتأخر في السهر، لماذا تطلب إذن والديك في كل مشوار؟ هل أنتَ طفل صغير؟!

يخلط هذا التافه بين البِر والنضج، ويحسبهما على النقيض من بعضها!

يقول ابن الجزري: استأذنتُ والديَّ في العودة إلى مصر فلم يسمحا بفراقي، فبقيتُ عندهما!

ويقول الإمام الذهبي: ازددتُ تلهفاً وتحسراً على لقيا شيخي الفاضلي، ولكن الوالد لم يكن يمكنني من السَّفر!

أئمة كبار كانوا يتركون السَّفر لأن الأبوين لم يأذنا. وأحدهم يقول لصاحبه هذه الأيام أن طاعة الأبوين ضعف في الشخصية!

أمسكوا نصال ألسنتكم يرحمكم الله.

أرجو أن تكون منهم!

كان الصَّحابة يحيطون بسيِّدهم إحاطة السِّوار بالمعصم، ينتظرون بلهفة كل كلمة يقولها ليأخذوها عنه، وقال لهم مرةً: من أنفقَ زوجين في سبيل الله/ اثنين من أي شيء كان في سبيل الله نُوديَ من أبواب الجنة يا عبد الله هذا خير. فمن كان من أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دُعيَ من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دُعيَ من باب الرَّيان، ومن كان من أهل الصَّدقة دُعيَ من باب الصَّدقة.

فقال أبو بكر الصِّديق: بأبي أنتَ وأمي يا رسول الله، ما على من دُعيَ من تلكَ الأبواب من ضرورة، فهل يُدعى أحدٌ من تلك الأبواب كلها؟

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: نعم، وأرجو أن تكون منهم!

أسهل شرحٍ للحديث يحضرني قصة حدثت بين الإمام مالك وبين عبد الله العمري العابد، الَّذي اعتزلَ الناس للصيام والقيام والصلاة والقرآن، فكتبَ إلى الإمام مالكٍ يحضُّه ويحثُّه على اعتزال الناس والإقبال على العبادة، والاشتغال بأمر نفسه عنهم.

فكتبَ له الإمام مالك يقول: إنَّ الله قسمَ الأعمال كما قسمَ الأرزاق فرُبَّ رجلٍ فُتحَ له في الصلاة ولم يُفتح له في الجهاد! ورُبَّ رجلٍ فُتحَ له في

الصَّدقة ولم يُفتح له في الصيام، وإنَّ نشر العلم من أفضل أعمال البر، وقد رضيتُ بما فتح الله لي فيه، وما أظنُّ ما أنا فيه أقل مما أنتَ فيه من الأجر، وأرجو أن يكون كلانا على خير!

لو تأملَّ كل واحدٍ منا في نفسه لوجدَ أنه قد أوتيَ قدرةً على عبادة محددة لم يُؤتَ قدرةً مثلها في غيرها، فليكثر منها فهي بابه إلى الجنة، على أن الأبواب الأخرى لا تُترك مطلقاً. تجدُ أحدنا أنه أُعطيَ قدرة على الصيام وليس له طاقة في الصدقة، وآخر حُبب إليه القرآن ولم يُفتح له كثيراً في باب الحديث، وكل النعمة فيمن كان له سباق في أكثر من مضمار!

يكفيك أن تُكثر من فعل ما فتحَ الله عليكَ فيه، دون أن تترك ما لم يفتح لكَ فيه مطلقاً، ولو قام كل واحدٍ منا على عبادةٍ يجدها يسيرة عليه لكانت هذه الأمة بخير!

حسان بن ثابت لم يحمل سيفاً لا في الجاهلية ولا في الإسلام، فلم يشترك في جهاد قط، ولكنه أوتيَ حظاً من الشِّعر فدافع عن الإسلام بقصائده التي لم تقل ضراوةً عن سيف خالد بن الوليد، وكل منهما نصرَ الإسلام بما فتحَ الله عليه!

انظر إلى الموهبة التي أعطاكَ اللهُ إياها، تجد أن ثغراً من ثغور الإسلام ينتظر منكَ أن تحرسه، فَكُنْ هناك، فمقامكَ حيثُ اللهُ أقامكَ!

لتَشتعِلُ عليه ناراً!

غزا النبيُّ صلى الله عليه وسلم خيبر فافتتحها، وأصاب منها غنائم كثيرة قسمها بين أصحابه، ثم عاد أدراجه إلى المدينة، وفي طريق عودته عسكرَ بالجيش في وادي القُرى، وكان عنده مولى له اسمه مِدْعَم، فبينما هو يُنزلُ متاع النبيِّ صلى الله عليه وسلم إذ أصابه سهم عاثر/ طائش لا يُعلم من أطلقه فمات.

فقال النَّاسُ: هنيئاً له الشهادة!

فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: بلى والذي نفسي بيده إنَّ الشِّملة/ العباءة التي أصابها يوم خيبر من الغنائم لم تُصبها المقاسم لتشتعلُ عليه ناراً!

هذا رجلٌ خرجَ مجاهداً، فلما كان النصرُ، وبدأ المسلمون يجمعون الغنائم بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ليقسمها، سرقَ عباءة، فعُذّبَ بها لما مات، وذلك لأنها مالٌ عام للمجاهدين استأثر هو بها وحده.

والمال العام الذي للناس جميعاً ليس لأحدٍ أن يسطو عليه، وينتفع به بصورة شخصية، وإلا فإن مصيره بما انتفع به وسرقه أن يصير له ناراً يتعذب بها كما صارت العباءة ناراً على مِدْعَمَ.

الطريق مالٌ عام للناس جميعاً، والذي يأخذ منها متراً ليوسِّعَ داره أو حديقته على حسابهم فإنما أخذ متراً من نارٍ يُعذب به!

والكراسي والمقاعد في الحدائق العامة مال عام من سرق منها شيئاً وأعادها إلى بيته لينتفع بها وحده فإنما أخذ كرسياً من نار يجلس عليه، إذا هو مات!

الكتب في المكتبات العامة، الأثاث في الوزارات والدوائر الحكومية، الحواسيب والأوراق والأقلام ليس لأحد أن يجعلها ملكاً خاصاً له، فيحضرها إلى بيته فإنه إن فعلَ فقد أحضرَ ما يُعذب به إن مات!

هذا في صغائر الأمور فكيف في أكبرها؟!

كيف في الأموال التي تُسرق من شقِّ الطرقات، وإقامة الجسور، وتشييد المباني الحكومية بخلاف المواصفات المطلوبة، فهؤلاء لم يسرقوا جهة اعتبارية هي الدولة وإنما سرقوا كل مواطن سار على هذه الطريق، وكل مواطن عبر ذلك الجسر، وكل مواطن دخل ذلك المبنى!

إنَّ الله رحيم وعفوٌ وغفور إذا ما تعلَّقَ الأمر بما بينه وبين عبده،

ولكن عندما يتعلق الأمر بحقوق العباد،
وبالمال العام فإنَّ الله عادل،
ومن عدله أن يأخذ الحقوق لأصحابها،
فانتبهوا جيداً لحقوق الناس الخاصة والعامة،
ولا يعتقدنَّ أحدٌ أن سرقة كرسي من شخص حرام،
وسرقة كرسي من الحديقة العامة حلال لأنَّ لا صاحب له،
على العكس تماماً هذا كل الناس أصحابه، وسرقته هي سرقة الناس جميعاً!

وتوقَّ كرائم أموالهم!

بعثَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم معاذَ بن جبلٍ إلى اليمن وقال له: إنك تقدمُ على قوم أهل كتاب، فليكُنْ أول ما تدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا اللهَ فأخبرهم أنَّ اللهَ قد فرضَ عليهم خمسَ صلواتٍ في يومهم وليلتهم، فإذا فعلوا فأخبرهم أنَّ اللهَ قد فرضَ عليهم زكاةً من أموالهم وتُردُّ على فقرائهم، فإذا أطاعوا فخُذْ منهم، وتوقَّ كرائم أموال الناس.

وتوقَّ كرائم أموال الناس، بمعنى أنكَ إذا جئتَ تجمعُ الزكاة، وكان أحدهم صاحب خيل، ونصاب الزكاة يقضي أن تأخذُ منه فرساً، فلا

تعمد إلى فرسه التي يحبها، وقد اتخذها راحلةً له من بين خيله، وتصر على أن تأخذها للزكاة، وإنما اخترْ غيرها كي لا يكون هذا حزناً عليه، فهدف الزكاة ليس سلب ما يحب الناس، وإنما تطهير أموالهم، بأخذ نصاب الزكاة منها، ودفعها إلى الفقراء، في عبادة هي واحدة من أرقى صور التكافل الاجتماعي على مرِّ التاريخ.

هذا الحديث يطرح أمامنا مسألة اجتماعية أخرى، ألا وهي أن لكل مجتمع عادات وتقاليد، وأشياء محببة إلى قلوبهم، اكتسبوها بالعادة، والوراثة. وهي نتاج حياة اجتماعية عمرها مئات السنوات، فلا تستخف بعادة مجتمع لأنكَ لم تنشأ على هذه العادة، ولا يعرف مجتمعك ما يعرفون!

هناك مجتمعات تُحبُّ سباق الإبل، لستَ مطالباً أن تُحبَّ ما يحبون، ولستَ مجبراً لا أن تشاهد هذا السباق، ولا أن تشترك فيه، ولكن يجب عليكَ أن لا تسخر من هذه العادة فقط لأنك نشأت في ظروف اجتماعية وبيئة جغرافية أخرى، وما أدراك لو أنك ولدت بينهم لكنتَ تشترك في هذه السباقات وتتعصب لها، فالإنسان ابن بيئته نهاية المطاف!

هناك أُناس يقطعون الفيافي والقفار بحثاً عن ضَبٍّ يصطادونه، قد يبدو لكَ الأمر مستهجناً، والضبُّ وجبة مقززة، وهذا حقك، فقد وُضع الضبُّ

على مائدة النبي ﷺ فأبى أن يأكل منه وقال: إنه لم يكن بأرض قومي وأرى نفسي تعافه. فأكل خالد بن الوليد منه وهو جالس معه على المائدة فلم يُنكر عليه. احترام عادات الآخرين في المأكل ما دام حلالاً واجب عليكَ وليس منةً تسديها للناس.

إذا لم تُعجبك كرة القدم فهذا لا يعني أن الذين يهتمون بها تافهون.

وإذا لم يُعجبك صيد السمك فهذا لا يعني أنها مضيعة للوقت وليست مسلية. الناس طباع وأهواء ومشارب مختلفة. والحياة قائمة على التنوع، وكما يقول ابن خلدون: لولا اختلاف الأذواق لفسدت السّلع.

علينا احترام هذا التنوع، وأن لا نجعل من أنفسنا معياراً نقيس به الناس،

وما أحببناه وألفناه هو الصواب وغيره الخطأ،

كثير من الأشياء لا يُحكم عليها بالصواب والخطأ،

وإنما هي من المباح من شاء فعلها، ومن شاء تركها،

واشتغال الإنسان بنفسه خير له من الاشتغال بالناس!

جاءَ أُبيٌّ بن كعب إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم وقال له: يا رسول الله إني أُكثرُ الصلاةَ عليكَ فكم أجعلُ لكَ من صلاتي؟

فقال له: ما شئتَ.

فقال أُبيٌّ: الرُّبع؟

فقال له النبيُّ صلى الله عليه وسلم: ما شئتَ، وإن زدتَ فهو خيرٌ لكَ!

فقال: النِّصفُ؟

فقال له: ما شئتَ، فإن زدتَ فهو خيرٌ لكَ!

فقال: فالثلثين؟

فقال له: ما شئتَ، وإن زدتَ فهو خيرٌ لكَ!

فقال أُبيٌّ: أجعل صلاتي كلها لك

فقال له النبيُّ صلى الله عليه وسلم: إذاً تُكفى همُّكَ ويغفرُ ذنْبكَ!

غايتان عظيمتان يسعى إليهما المسلم في حياته، واحدة للدنيا وواحدة للآخرة:

فأما التي للدنيا فهي أن يعيش سعيداً بلا همٍّ ولا غم.

وأما التي للآخرة فهي أن يغفر الله تعالى له ذنوبه.

وهاتان الغايتان العظيمتان مكفولتان بكثرة الصلاة على النبيِّ ﷺ.

وما أجمل ابن عطاء السكندري حين قال:

من فاته كثرة الصيام والقيام فليشغل نفسه بالصلاة على النبيِّ ﷺ، فإنكَ لو فعلتَ في عمركَ كل الطاعات، ثم صلى الله عليكَ صلاةً واحدة، رجحتْ تلكَ الصلاة الواحدة على كل ما عملته في عمركَ من جميع الطاعات، لأنك تُصلي على قدر وسعك، وهو سبحانه يُصلي عليكَ على قدر ربوبيته!

ومن فوائد الصلاة على النبيِّ ﷺ جلاء الهموم، وغفران الذنوب، ورقَّة في القلب، وراحة في الصدر، وإجابة للدعاء، وشفاء للأمراض، واستحقاق للشفاعة بإذن الله، وطردٌ للفقر، وطهارة للروح، وتثبيت عند نزع الروح، ونور في القبر، وجواز على الصراط، وبعد كل هذا جنة عرضها السماوات والأرض بإذن الله!

ومن طريف ما قرأتُ في هذا الباب، يقول العلامة ولد الددو إن الصلاة على النبي ﷺ من بر الوالدين، وأي بر أعظم من أن يُقال للنبي ﷺ لقد صلَّى عليكَ فلان بن فلان، فيذكرون في حضرته ﷺ اسم والديك!مكتبة

إنه لا بُدَّ لي أن أقول!

أسلمَ الحَجَّاجُ بن عِلاطٍ السَّهمي قبل خيبر بأيام، وقاتل مع النبيِّ ﷺ في تلك الغزوة، فلما انتهتْ بنصرٍ ساحقٍ للمسلمين، وقسم النبيُّ ﷺ الغنائم، وتزوَّج أُمنا صفية بنت حُيي بعد أن أسلمتْ، قال الحجاج للنبي ﷺ: يا رسول الله إنَّ لي بمكة مالاً عند التجار، وإني أخاف إن علموا بإسلامي أن يمنعوني مالي، فأذنْ لي باللحوق به لعلّي أتحصله.

فقال له النبيُّ ﷺ: قد فعلتُ!

فقال الحجَّاج: يا رسول الله، إني لا بُدَّ أن أقول/ أي سأنال منك من باب الحِيلة على قريش!

فقال له النبيُّ ﷺ: قُلْ وأنتَ في حِلٍّ!

فخرج الحجاج حتى أتى قريشاً وقد علموا بمسير النبيِّ ﷺ إلى خيبر وهم ينتظرون، فلما رأوه قالوا: ما فعل محمدٌ بخيبر؟!

فقال: هُزم شر هزيمة، وقُتل أصحابه، وأُخذ هو أسيراً، فقالتْ اليهود: لا نقتله وإنما ندفعُ به إلى قريش تقتله بما قتل منها! وقد جئتكم أطلبُ مالي الذي عندكم كي ألحقَ بخيبر فأشتري من غنائم أهلها قبل أن يبيعوها!

ففرحتْ قريشُ بهذا فرحاً شديداً، وجمعتْ للحجاج كل ماله في يوم واحد!

وجاء العباس بن عبد المطلب ولم يكن قد أسلمَ بعد وكان مهموماً حزيناً لما سمع ما حلَّ بالنبي صلى الله عليه وسلم، وقال له: يا حجاج ما خبرٌ جئتَ به عن ابن أخي؟!

فقال له الحجاج: واللهِ يا عبَّاس عندي لكَ ما يَسُرُّكَ، فتحَ الله لابن أخيك خيبرَ، وغنم أموالها، وتزوّج ابنة ملكهم حُيي بن أخطب، وقد أسلمتُ وكتمتُ إسلامي حتى آخذ مالي الذي عند قريش، فاكتم عني ثلاثة أيام حتى لا يلحقوا بي، فإذا كان بعد اليوم الثالث فأخبرهم!

وبعد ثلاثة أيام خرج العبَّاسُ فرحاً وأخبر قريشاً، فعلمتْ أن الحجاج قد خدعها!

ما لا يُدركُ بالطريق السَّوي يُدركَ بالحيلة، والمؤمن كيِّسٌ فطن، والحربُ خدعة، والكذب على العدو جائز سواءٌ كان لمصلحة المسلمين عموماً، أو لمصلحة الفرد منهم، وهذا خاص بالأعداء، ولتحصيل الحق، وليس لمن

دخل بلداً كافراً بأمان الدولة فيها أن يعمد إلى السرقة واللصوصية، فسرقة الكافر كسرقة المسلم في هذه الحالة!

وانظُرْ لرحمة النبيِّ صلى الله عليه وسلم كيف أذِنَ للحجاج أن يقول عنه ما لا يُقال في جناب النبوة كي يستردَّ ماله،

وفيه درس بليغ أن المسلمين عليهم أن يتعاونوا فيما بينهم لتحصيل حقوقهم سواءً فيما بينهم، أو مع أعدائهم!

وإن السيرة النبوية العطرة ليست تاريخاً ميتاً،

ولا حوادث جامدة تُروى للتسلية،

وإنما هي دروس في الحياة والعقيدة،

يستشفُّ منها المسلمون منهاج حياتهم في كل العصور!

نفي لهم بعهدهم!

يقول حُذيفة بن اليمان: ما منعني أن أشهدَ بدراً إلا أني خرجتُ وصاحبي أبي حسيل، فأخذنا كفَّارُ قريش، فقالوا: إنكم تريدون محمداً.

فقلنا: ما نريده، وإنما نريدُ المدينة.

فأخذوا منا عهدَ اللهِ وميثاقه لننصرفنَّ إلى المدينة ولا نقاتل معه.

فأتينا النبيَّ صلى الله عليه وسلم فأخبرناه الخبر.

فقال: انصرفا، نفي لهم بعهدهم، ونستعين الله عليهم!

درس عظيم في الوفاء من رجلٍ عظيم أوتيَ مكارمَ الأخلاق كلها، رغم أن الكذبَ يجوز على الأعداء، وما كان بإمكان حذيفة وأبي حسيل أن يخبرا قريشاً أنهما ذاهبان إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن لأن المشركين أخذوا عليهما عهداً أن لا يُقاتلا معه ضدَّهم، أبى الشهم الكريم الوفي أن يسمح لهما بالقتال، وقال لهما: انصرفا، نفي لهم بعهدهم!

وبعد الانتهاء من كتابة وثيقة صلح الحديبية، والتي كان من بنودها أنه من جاء من قريش مسلماً ردوه إليهم، جاء أبو جندل مسلماً، فقال أبوه سهيل بن عمرو وهو ما زال في معسكر المسلمين لم يُغادر: يا محمد هذا أول من أقاضيكَ عليه أن ترده إليَّ!

فأعاده النبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى أبيه.

فجعل أبو جندل يقول: يا معشر المسلمين أتردوني إلى المشركين يفتنوني في ديني؟!

فقال له النبيُّ صلى الله عليه وسلم: إنَّا عقدنا بيننا وبين القوم عهداً، وإنا لا نغدر بهم! يا أبا جندل اصبِرْ واحتسِبْ، فإنَّ الله جاعل لكَ ولمن معكَ فرجاً ومخرجاً!

هذا وفاؤه مع أعدائه، فكيف يا تُرى كان وفاؤه مع أصحابه؟!

ثم كيف هو وفاؤنا نحن؟

الحُرُّ تربطه كلمته، فإن قال وعداً صار دَيْناً في رقبته، ويستوي عنده ما قاله شفاهاً، أو ما وقَّع عليه مكتوباً!

ويكفي خُلف الوعد إثماً وسوءاً أنه ثلث النفاق!

فقد قال سيدنا: آية المنافق ثلاث: إذا حدَّثَ كذبَ، وإذا وعدَ أخلفَ، وإذا أؤتمن خان!

مثل أفئدة الطَّير!

قال لأصحابه مرةً لافتاً أنظارهم إلى أهمية رقة القلب: يدخل الجنّة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير!

وشُرَّاح الحديث على قولين في معناه:

الأول: أنهم يحسنون التوكُّل على الله، ويسلِّمون له أمر الرزق والكسب، ليس لهم من الأمر إلا السَّعي والأخذ بالسبب، كالطيور تماماً تغادر أعشاشها في الصباح جوعى وتعود إليها مساءً ممتلئة الحواصل، تعلمُ أنها لن تأخذ رزق أحدٍ، ولن يأخذ أحد رزقها!

والثاني: كناية عن رقة القلب ولينه، وشفقته على الناس، والإحساس بهم، والحزن لحزنهم، والفرح لفرحهم!

ولا يمنع أن يجتمع المعنيان، فيكون قلب الطير كناية عن حسن التوكل المصحوب بالرقَّة والعذوبة!

كان طلحة بن عبد الرحمن بن عوف من أجود الناس وأكرمهم، وكان يعطي دون عدٍّ ولا حساب، فقالتْ له زوجته يوماً: ما رأيتُ أشدَّ لؤماً من أصحابك وإخوانك!

فقال لها: ولِمَ ذلك؟

فقالتْ: أراهم إذا اغتنيتَ لزموكَ، وإذا افتقرتَ تركوكَ!

فقال: هذا واللهِ من كرمِ أخلاقهم، يأتوننا في حال قدرتنا على إكرامهم، ويتركوننا في حال عجزنا عن القيام بحقِّهم!

وعلَّقَ الإمام الماورديُّ على هذه القصة فقال: أُنظُرْ كيف تأوَّلَ بكرمه هذا التأويل، فجعلَ قبيح فعلهم حَسناً، وظاهر غدرهم وفاءً!

من أعطاه اللهُ قلباً رقيقاً فقد أجزلَ له العطاء!

فهنيئاً لمن انتقى كلامه خشية أن يجرح أحداً، وإن جرحَ أحداً بكلمة غير مقصودة، اهتزَّ النقاء في داخله واضطربَ، فلا يهدأ حتى يصلح ما أفسد، ويرمم ما كسر!

هنيئاً لمن كان قريباً من الناس يألفُ ويُؤلف، كالمطر إذا حضر يحضرُ معه الخير، وكالعطر إذا ما غادر بقي شيء من أثره!

هنيئاً لمن تحسس أوجاع الناس، وتفقَّد حاجاتهم، فأعطى اليد قبل أن تمتدَّ بالسؤال، وأطعم البطن قبل أن يطلب اللقمة!

هنيئاً لمن سار بين الناس جابراً للخواطر، فسامح في حقِّه، وتغاضى عن الإساءة، وبادر للصلح، وما دمعتْ عينٌ فاستطاع أن يخفف دمعها إلا فعل، ولا نزل هَمّ بصديق أو قريب إلا انبرى يزيل هذا الهمَّ، إن للهِ طُرقاً تقطعُ بالقلوب لا بالأقدام!

ما يُخلفُ الله وعده!

واعدَ جبريلُ النبيَّ ﷺ أن يأتيه في ساعةٍ من النهار، فجاءت تلكَ السَّاعة ولم يأتِ جبريل، وكان في يد النبي ﷺ عصاً، فألقاها من يده وقال: ما يُخلفُ اللهُ وعده ولا رسله.

ثم التفتَ فإذا جرو كلبٍ صغير تحت سريره، فقال: يا عائشة متى دخل هذا الكلب ها هنا؟

فقالتْ: واللهِ ما دريتُ!

فأمرَ به فأُخرجَ.

ولما جاء جبريلُ قال له النبيُّ ﷺ: واعدتني فجلستُ لكَ، فلم تأتِ.

فقال جبريل: منعني الكلبُ الذي في بيتك، إنَّا لا ندخلُ بيتاً فيه كلبٌ ولا صورة.

الكلب معروف، والصُّورة أي التماثيل وكل منحوتٍ لشيءٍ له روح، وليس الصور الفوتوغرافية على أرجح أقوال الفقهاء المعاصرين. ولكن ليس هنا مربط الفرس، وإنما سننيخ المطايا عند قول النبي ﷺ: ما يخلفُ اللهُ وعده ولا رسله.

فعندما تأخر جبريل عن المجيء نظر النبيُّ ﷺ في بيته أولاً، فوجد الجرو الصغير وأمر بإخراجه.

نحتاج أن نتعامل مع الله بهذا اليقين: أنه لا يخلفُ وعده!

فعندما يقول الله تعالى ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾، فثِقْ أنَّ هذا وعد مشروط، بدايته عندكَ ونهايته عند الله الذي لا يُخلفُ الميعاد، كلما شكرتَ على النعمة كلما زادكَ الله منها، وعدٌ لا يُردُّ، وقدر لا يُصدُّ، والشكر باللسان والجوارح، باللسان حمداً له سبحانه، وبالجوارح عملاً بهذه النعمة، صاحب المال شكره بالصدقة والإنفاق، وصاحب العلم شكره بتعليم الناس، وشكر المنصب بالعدل، وشكر القوة بالسير في مصالح الضعفاء!

وعندما يقول الله تعالى ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾، تحسسها بيقين وتذوقها، وثِقْ أنها تقع لا محالة، إذا ذكرته في نفسكَ ذكركَ في نفسه، وإذا ذكرته بين الناس ذكركَ بين الملائكة، على أن الذِّكر وإن كان أكثره باللسان، إلا أن الذِّكر أيضاً مواقف فعندما تلوح لكَ معصية تذكر أنه سبحانه مطلع عليكَ ولا تفعلها فهذا من الذّكر أيضاً!

وعندما يقول الله تعالى ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، فادعُ وأنتَ موقن بالإجابة وإياك أن تدعوه كالمجرِّب له، كأنكَ تقول ها أنا دعوتك فأرني كيف ستستجيب لي، فالأدب مع الله جزء من الدعاء، وثِقْ أن الله عندما يحرمكَ فإنه يحرمكَ مما تريدُ ليعطيكَ ما تحتاج!

وعندما يقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، فثِقْ أن الاستغفار كهف الله من دخله أَمِنَ من عذابه، على أن المرض والفقر والخوف ليسوا عذاباً، فقد مرضَ الأنبياء وما أيوب عليه السلام منك ببعيد، وافتقر الرُّسل وكانت تمر الأيام وليس في بيت النبي ﷺ حبة تمر!

وخاف الأنبياء كما حدث مع موسى عليه السلام عندما ألقى السحرة حبالهم وعصيهم ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ﴾

أَتُقَبِّلونَ صِبيانكم؟!

دخلَ جماعة من الأعراب على النبيِّ ﷺ وعنده سبطه الحسنُ بن علي، فقبَّله النبيُّ ﷺ، فسألَه الأعرابُ مستغربين: أَتُقَبِّلونَ صِبيانكم؟

فقال النبي ﷺ: نعم.

قالوا: كلنَّا واللهِ ما نُقبِّل!

فقال لهم: أَوَ أَمْلِكُ إن كان الله نزعَ من قلوبكم الرَّحمة؟!

بعض الآباء فيهم من الجفاء ما يُشعرك أن قلوبهم من صخرٍ وليست من لحمٍ ودمٍ تنبضُ كما قلوب الناس! وبعضهم على النقيض من هذا، حنون مُحِبٌّ، ولكنه يعتقدُ أن إظهار هذا الحنان وهذا الحُب إنما هو منافٍ للرجولة، وصور من صور ضعف الشخصية!

ولستُ أدري من أين أتى هؤلاء بهذا المفهوم، ولا من أين استقوه!

كان النبيُّ ﷺ أكثر الناس رجولةً ولم يمنعه هذا من إظهار حنانه، يقول أنس بن مالك: ما رأيتُ أحداً أرحمَ بالعيال من رسول الله ﷺ، كان ابنه إبراهيم رضيعاً عند مرضعةٍ في أحياء المدينة، فكان ينطلقُ ونحنُ معه، فيدخل فيقبله ثم يرجع!

مشاعرك هي التي سيتذكرها أبناؤكَ منكَ ولا شيء غير هذا!

إنهم لن يتذكروا الأثاث الفاخر الذي زيَّنتَ به منزلكَ، ولا السيارة الفارهة التي جعلتهم يستقلونها، ولا الطعام الشهي الذي ملأتَ به أمعاءهم، ولا الأَسِرَّة الفارهة التي جعلتهم ينامون فيها!

سأخبركَ ما سيتذكره أبناؤك إلى الأبد:

سيتذكرون الكتف الذي استندوا عليه حين كسرتهم الحياة، والحضن الذي وجده الابن حين فشل في امتحان!

والحضن الذي وجدته البنت عندما فشلت في خطوبتها!

سيتذكرون كلماتك الدافئة وابتساماتك! سيتذكرون لحظاتك الحانية وأنتَ تربتُ على قلوبهم!

سيتذكرون حكايا ما قبل النوم، ووجبة الطعام المتأخرة التي كسرتَ لأجلها ولأجلهم قواعد البيت!

سيتذكرون كلامك عنهم أمام الناس، مديحاً أو تهكماً، هذه الأشياء لا تُنسى!

سيتذكرون هدايا النجاح، ومفاجآت المناسبات السَّعيدة، والرَّحلات العائلية، والابتسامات التي رسمتها على وجوههم!

هذه الأشياء وحدها تبقى فإن ضيّعتها فلن يشفع لكَ عندهم ما فعلتَ بعدها!

أنا لا أحسن الوضوء!

دخل الحسنُ والحسين رضي الله عنهما المسجد، فشاهدا رجلاً كبيراً في السِّن لا يُحسن الوضوء، ولأنهما تربيا في بيت النُّبوة، كانا يفيضان أدباً وحكمة، فخجلا لفارق السِّن بينهما وبين الرجل أن يخبراه أنه لا يعرف كيف يتوضأ! فعمدا إلى الذكاء والحيلة فقالا له: يا عم قد اختصمنا أينا أحسنُ وضوءاً، فأردنا أن نحتكم إليكَ لترى من منا أحسنُ وضوءاً من صاحبه!

فتقدَّم الحسنُ فتوضأ وضوءاً نبوياً كاملاً، أسبغه ولم يترك شيئاً من سُننه إلا فعله. ثم تقدَّم الحُسين فتوضأ كما علّمه جده عليه الصلاة والسّلام، ثم التفتا إلى الرَّجل ينتظران منه الحكم.

فقال: واللهِ كلاكما يتوضأ أحسنُ مني!

درسٌ عظيم في الخُلق الرَّفيع من غلامين كانا بضعة من نبي! مفاده أنَّ الأدب مُقدَّم على العلم، وأن الأسلوب أولاً وأخيراً، فمهما كان الإنسان على صواب فإن هذا لا يغنيه عن جمال الأسلوب.

ومن أدب النبوة أخذ عمر بن الخطاب كثيراً، فقد خرج ذات ليلة رفقة خادمه أَسْلَم يتفقدُ الناس، فرأى ناراً من بعيد، فقال: يا أسلم إني أرى ها هنا ركباً قصُر بهم الليل والبرد، فانطلِقْ بنا، فإذا هناك امرأة معها صبيةٌ صغار، وقِدر منصوبة على نار وحولها أولاد جوعى.

فقال عمر: السلام عليكم يا أهل الضوء، وكره أن يقول يا أهل النار!

فقالت المرأة: وعليك السلام.

فقال: أدنو؟

فقالتْ: أُدنُ بخير.

فقال لها: ما بال أولادك؟

قالت: الجوع، وهذا ماء في القدر أسكتهم به حتى يناموا، والله بيننا وبين عمر!

فقال: وما يدري عمر بكم؟

فقالتْ: يتولى أمرنا ويغفل عنّا؟!

فعاد مسرعاً إلى بيت المال، وأخذ دقيقاً وسمناً، وأراد أن يحمل الكيس على ظهره، فقال له أسلمُ: أنا أحمله عنك يا أمير المؤمنين!

فقال له: أحمله عليَّ، أأنتَ تحمل عني وزري يوم القيامة!

فحمله، وذهب إلى المرأة، وطبخ لها، وأطعم صغارها، ثم ابتعد، وبقيَ يراقبهم، والبرد يأخذ منه، وخادمه أسلم يقول: هيا يا أمير المؤمنين فيقول له: أبداً، حتى أراهم يضحكون كما رأيتهم يبكون!

وكان مما قالت المرأة له بعد أن أطعم أولادها: واللهِ أنتَ أحق بالخلافة من عمر بن الخطاب!

فطلبَ منها أن تأتي دار الإمارة في الغد فسيكلم لها عمر!

فلما جاءت وعرفت أنه عمر، خشيت على نفسها، فهدَّأ من روعها وأخبرها أنه يريدُ أن يشتري منها مظلمتها، ودفع لها ثلاثة آلاف درهم!

يعنينا من هذا كله لفظة واحدة هي: يا أهل الضوء!

لقد كره أن يقول يا أهل النار، لقد اختار أجمل مفردة، فاختاروا مفرداتكم يرحمكم الله، فكل إناء بما فيه ينضح!

ولنا الآخرة!

يقول أنس بن مالك: دخلتُ على النبيِّ صلى الله عليه وسلم وهو على حصير، وتحت رأسه وسادة حشوها ليف. ثم دخل عليه ناس من أصحابه فيهم عمر بن الخطاب. فتقلبَّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم، فرأى عمر بن الخطاب أثر الحصير في جنب النبيّ صلى الله عليه وسلم، فبكى!

فقال له النبيُّ صلى الله عليه وسلم: ما يُبكيك؟

فقال: كسرى وقيصر يعيشان في نعيم وأنتَ على هذا الحصير؟

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟

فقال: بلى.

فقال له النبيُّ صلى الله عليه وسلم: فهو واللهِ كذلك!

هذه الدنيا دار عمل وليست دار جزاء، دار امتحان وليست دار نتيجة!

وقد قال أبو هريرة: كان يمرُّ بآل رسول الله صلى الله عليه وسلم الشَّهر ثم الشَّهر ولا يُوقد في بيوتهم شيء من النار لا لخبزٍ ولا لطبيخ!

فقالوا: بأي شيءٍ كانوا يعيشون يا أبا هُريرة؟

فقال: الأسودان التمر والماء، وكان لهم جيران من الأنصار جزاهم الله خيراً لهم غنم يرسلون إليهم شيئاً من لبن!

فإن ضاقتْ بكَ الدُّنيا فهذا هو سيّدك، بل سيد الناس أجمعين، مجلسه حصير خشن يترك أثره في جلده حتى يبكي عمر لهذا المشهد! ويمرُّ الشهر وراء الشهر وليس في بيته ما يُطبخ، طعامهم تمر وماء، ولبن يهديه الأنصار إليهم!

فإن ضاقت بك الدنيا فتذكرْ أن يوسف عليه السّلام قد أوداه حُبُّ امرأة إلى غياهب السِّجن بضع سنين، ومن قبل حسد إخوته قد أوداه إلى قعر الجُب، يا صاحبي إنها دار أذى وبلاء!

فإنْ ضاقتْ بك الدنيا فتذكَّرْ أن الكريم ابن الكريم يحيي بن زكريا عليهما السّلام قُدِّم رأسه مهراً لامرأة فاجرة أرادت أن تتزوج أخاها الملك فأفتى يحيي عليه السلام أن ذلك حرام، فاثبُتْ على مبادئك فما رأسك بأشرف من رؤوس الأنبياء!

فإن ضاقتْ فتذكَّرْ أن أبا هريرة أحفظ الأمة لحديث النبي ﷺ لم يكُنْ يخرجه من بيته إلاّ الجوع، ويسأل الصحابة عن مسألة يعرفها، وليس بُغية إلا أن يدعوه أحدهم إلى طعام ويجيبه.

وإن ضاقتْ فتذكَّرْ أن حُذيفة بن اليمان أمين سر رسول الله ﷺ كان من أهل الصُّفة. ولعلكَ تسأل: وما أهل الصُّفة؟

فأجيبك يا صاحبي أنها بقعة في آخر المسجد، يأوي إليها من أصحاب النبيِّ ﷺ من ليس يجد مالاً يشتري به طعاماً!

ثم بعد ذلك أجِبني: أما يرضيكَ أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟!

إلا ما كان له خالصاً!

جاء رجلٌ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم فقال: أرأيتَ رجلاً غزا يلتمسُ الأجرَ والذِّكر، ما له؟

فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: لا شيء له!

فأعادها الرجل ثلاث مراتٍ، وفي كل مرّةٍ يقول له النبيُّ صلى الله عليه وسلم: لا شيء له!

ثم قال: إنَّ اللهَ لا يقبلُ من العملِ إلا ما كان له خالصاً، وابتغيَ به وجهه!

ومخيفة مقولة ابن القيِّم: إذا لم تُخلص فلا تتعبْ!

إنَّ الله تعالى لا يقبلُ من العمل إلا ما كان خالصاً له، وقد حدثنا النبيُّ صلى الله عليه وسلم أنَ أول من تُسعَّرُ بهم النار شهيد، وقارئ للقرآن، ومنفقٌ!

يقول الله تعالى للشهيد: ما عملتَ فيها؟

فيقول: قاتلتُ فيكَ حتى استشهدتُ.

فيقول له ربنا: كذبتَ، ولكنكَ قاتلتَ ليُقال جريء، فقد قيل!

ثم يأمر به إلى النار!

ويقول لقارئ القرآن: ما عملتَ فيها؟

فيقول: تعلمتُ العلمَ وعلّمته، وقرأتُ فيك القرآن.

فيقول له ربنا: كذبتَ، ولكنكَ تعلمتَ ليُقال عالم، وقرأت القرآن ليُقال قارئ، فقد قيل!

ثم يأمر به إلى النار!

ويقول للمنفق: ما عملتَ فيها؟

فيقول: ما تركتُ من سبيل تُحِبُّ أن يُنفق فيها إلا أنفقتُ فيها لكَ.

فيقول له ربنا: كذبتَ، ولكنكَ فعلتَ ليُقال هو جواد فقد قيل!

ثم يأمر به إلى النار!

إنَّ الذي يعملُ الخير وهدفه أن يرى الناسُ صنيعه فهو كمن بنى قصراً رائعاً من الرمال، فلما انتهى منه، جاءت موجة عظيمة فهدمته، فلم ينله منه إلا شقاء بنائه!

وكمن جمع كومة رماد بجهد وتعب، فلما بلغتْ مبلغاً عظيماً جاءت الريح فبعثرتها، فلم ينله من عمله هذا إلا شقاء جمعه!

على أنه يجب أن يُعلم أن من وسائل إبليس أنه يدخل إلى الإنسان من باب الرياء، فيقول له: أنتَ تُنفقُ ويراك الناس فأي عمل هذا؟ وأنتَ تذهبُ إلى المسجد ويراك الناس أتريدُ أن يُقال فلان مشَّاءٌ إلى المساجد؟

الخبيثُ يريدُ بهذا أن يُقعِدَ المؤمن عن فعل الخير!

إنَ من كرم الله أنه يُظهر إحسان عبده للناس، ويحببهم به، فإياكَ أن تتركَ العمل الصالح لخبث الشيطان ووسوسته، ولكن جاهد نفسك دوماً أن تُصلح نيتك، فلو تركنا العمل خشية أن يعرفنا الناس ما قام للناس دين ولا دنيا، ولا تخفْ على حظك من الذكر، كان الإمام أحمد يدعو الله أن يموت دون أن يعرفه من الناس أحد، فماتَ ولا يجهله من الناس أحد!

لا يا عائشة!

قال النبيُّ ﷺ مرَّةً: من أحبَّ لقاء الله أحبَّ اللهُ لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه.

فقالت له أمنا عائشة: يا رسول الله أهوَ الموت؟ فكلنا يكره الموت!

فقال لها: لا يا عائشة، ولكن المؤمن إذا حضر أجلُه بشّرته الملائكة برحمة الله ورضوانه، فيحبُّ لقاء الله ويحبُّ الله لقاءه. والكافر متى حضر أجله بُشِّر بغضب الله وعقابه، فيكره لقاء الله، فيكره اللهُ لقاءه!

لحظة الموت هي لحظة إخبار بنتيجة الامتحان في الدنيا!

فأما المؤمن فيرى ما له من النعيم فيحب أن يمضي إلى ربه، ويحبُّ الله تعالى هذا المجيء، والكافر يرى ما له من العذاب، فيكره أن يمضي إليه، فيكره الله هذا المضيّ. ومن أجمل ما قيل عن هذه اللحظة الحاسمة:

إن المؤمن إذا عاد إلى ربِّه كان كالمسافر عاد إلى أهله، والكافر إذا عاد إلى ربِّه كان كالعبد الآبق عاد إلى سيده!

هذه اللحظة الحاسمة، لحظة نزع الروح هي التي كان يخافها الصالحون، يخافون أن تخذلهم أعمالهم، وأن لا تلهج ألسنتهم بالشهادتين، وقد رُوي العجب على آخر لحظات الصالحين في هذه الدنيا!

فهذا عبد الصَّمد الزاهد كان يقول عند موته:

سيدي لهذه الساعة خبأتُكَ، ولهذا اليوم اقتنيتك، حقِّقْ حُسن ظني بك!

وقد ختم آدم بن أبي إياس القرآن وهو مسجَّى للموت، ثم قال: بحبِّي لكَ إلا رفقتَ بي في هذا المصرع، كنتُ أؤملك لهذا، كنتُ أرجوك، لا إله إلا الله، ثم فاضتْ روحه!

علينا أن نكون تجاه هذه اللحظة الحاسمة، التي يترتب عليها النعيم الأبدي، أو العذاب الأبدي، بين الخوف والرجاء، الخوف أن تخذلنا قلة أعمالنا، فنجتهد الآن أكثر، فما زال الوقت متاحاً. وبين الرَّجاء بأن هذا الرَّب الرحيم الذي توضأنا له في برد الشتاء، وصمنا له في حر الصيف،

وتصدَّقنا ابتغاء رضاه في العسر واليسر أرحم من أن يخرجنا من هذه الدنيا على غير ما سعينا له ابتغاء جنته وخوفاً من ناره!

وقد وقف الحسن على قبر، فقال لمن حوله، تُرى ما كان هذا يتمنى الآن؟

وقالوا: أن يرجع إلى الدنيا فيعمل صالحاً.

فقال لهم: أنتم الآن في الأمنية، فاعملوا صالحاً!

فاللهم حُسن الخاتمة!

كفى بالمرء إثماً!

بينما عمر بن الخطاب رضي الله عنه يمشي ذات يومٍ في جماعةٍ من أصحابه، إذ رأى بنتاً صغيرة في السوق يطرحها الريح من ضعفها!

فقال: يا بُؤس هذا، من يعرفُ هذه؟

فقال له ابنه عبد الله: أما تعرفها؟ هذه إحدى بناتك!

فقال عمر: وأيُّ بناتي؟

فقال له: بنتُ عبد الله بن عمر. أي هي ابنته!

فقال عمر: فما بلغَ بها الذي أرى؟

فقال عبد الله: إمساكُكَ ما عندك!

فقال عمر: وهل إمساكي ما عندي يمنعكَ أن تطلب لبناتكَ ما يطلبُ النَّاس؟ أما واللهِ ما لكَ عندي إلا سهمكَ من المسلمين، وسِعَكَ أو عجزَ عنكَ، وبيني وبينكَ كتاب الله!

تأسَّف عمر بن الخطاب لحال البنت الصغيرة لما رأى فيها من ضعف البِنية حتى إذا هبَّت الريح أوقعتها، فسأل عنها، فإذا هي حفيدته، ابنة ابنه عبد الله، فسأله عن السبب، فأخبره أنه لا مال لديه لأنه لا يعطيه، فوبَّخه وأخبره وأنه وإن لم يعطِه فهذا ليس عذراً له أن يقعد عن العمل ولا يسعى في تحصيل رزق أولاده كما يفعل الناس، ثم أخبره أنه كغيره من المسلمين، ليس له إلا سهم واحد، ولن يعطيه أكثر!

يا لهذا الدِّين، ويا لعمر بن الخطاب، حفيدة الخليفة لا تَكاد تسند طولها من الجوع، ثم يقول لابنه: لا أعطيك أكثر مما أعطي المسلمين!

وعن توبيخ عمر بن الخطاب لابنه لقعوده عن تحصيل رزق عياله استقاه من الهدي النبويّ الشريف، فقد قال النبيُّ ﷺ يوماً لأصحابه: كفى بالمرءِ إثماً أن يُضيِّعَ من يقوت/ يُطعِم!

وتضييع من يقوت قد كثُر هذه الأيام وله في البيوت عدة وجوه:

فترى من الرجال من يتذرَّع بأنه لا يوجد عمل، ويجلس في بيته عاطلاً، وتبلغ به الحاجة أن يشتهي أهله النفقة! صحيح أن الدنيا تضيقُ أحياناً، وان الأعمال قليلة، ولكن الصحيح أيضاً أن من أراد أن يُحصِّل الرزق فتحَ الله له أبوابه، ولكن الناس يريدون مهنًا على مزاجهم وإلا قعدوا في البيوت يشكون أنه لا يوجد عمل!

وترى الرجل معه المال، ولكنه لا يُنفِقُ على أهله لبخله، فلا يغادر الدرهم جيبه إلا بمشقة كما تُغادر الروح الجسد، وهو أسوأ الناس، لأنه يعيش عيش الفقراء، ويُحاسب حساب الأغنياء!

وترى الرجل إذا عملتْ زوجته في وظيفة، أراد أن يأخذ منها كلَّ راتبها، فإن هي امتنعتْ أن تُعطيه إياه، توقَّف هو عن الإنفاق على بيته نكايةً بها!

صحيح أنّ البيوت إنما تُدار بالمعروف لا بالقانون، وأن الزوجة مأجورة في مشاركة زوجها في النفقة، وأن خروجها من البيت إنما هو على حساب أولادها وزوجها ولا بأس أن تعوِّض هذا الغياب بشيءٍ من النفقة. ولكن هذا لا يُلغي حقيقة أن الإنفاق على الأسرة هو واجب الزوج، وأن راتب الزوجة لها ولا يحقُّ له أن يأخذ منه بغير رضاها!

أَنْظِرْ جابراً!

استشهدَ عبد الله بن حرام في غزوة أُحد، وتركَ عليه ديناً ثلاثين وسقاً من تمرٍ لرجل من اليهود اسمه أبو الشّحم، وأراد جابر بن عبد الله بن حرام أن يَفيَ بدينِ أبيه، ولكنه نظر في ثمر بستانه فعلمَ يقيناً أن الثمر قليل ولا يكفي لسداد الدَّين! فجاء جابر إلى اليهوديَّ أبي الشَّحم وطلب منه أن يعطيه مدةً أطول لسداد دين أبيه، فرفضَ أبو الشحم!

فذهبَ جابرٌ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم يطلبُ منه أن يشفع له عند أبي الشّحم ويمدد له المدة لقضاء الدَّين، فجاء النبيُّ صلى الله عليه وسلم وقال لأبي الشّحم: أَنْظِرْ جابراً!

فرفضَ أبو الشحم هذه الوساطة!

فقام النبيُّ صلى الله عليه وسلم ودخلَ بستان جابر، وسار بين أشجار نخله، ثم نادى على جابرٍ وقال له: جُدَّ له، فأوفِ له الذي له! أي اقطعْ له من ثمر شجرك وادفعْ له دينه!

فقام جابر إلى نخله، وبدأ يقطع من ثمره، وكم كانت دهشته عظيمة عندما رأى البركة قد حلَّتْ في محصوله، فدفعَ لأبي الشحم ثلاثين وسقاً، وبقيَ عنده أكثر من نصف هذه الكمية!

وجاء جابرٌ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم ليبشّره، فوجده يُصلي، فوقف ينتظره، فلما أتمَّ صلاته، أخبره جابرٌ بالذي كان.

فقال له النبيُّ صلى الله عليه وسلم: أَخْبِرْ ذلكَ ابن الخطاب!

فذهبَ جابرٌ وأخبر عمر بن الخطاب الذي كان، فقال له عمر: لقد علمتُ حين مشى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، لتحُلَّنَ البركة على النخل!

لو كان حقُّ العِباد يسقطُ في شيء لسقط في حقِّ دين الشهيد الذي يموت في سبيل الله، ولكن الله تعالى يغفر للشهيد كل شيء إلا الدَّين، فعلى أهل الميت أن يسعوا في سداد دينه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، فما سقط دينُ عبد الله بن حرام وقد استشهد في غزوة أُحد تحت راية النبي صلى الله عليه وسلم، ومن باب أولى فلن يسقط دَين أحد غيره مهما كان صالحاً، وبغض النظر عن صاحب الدَّين فأبو الشحم كان يهودياً!

الشفاعة الحسنة هي عمل النبلاء، وما أنبل النبيِّ ﷺ حين لا يجد حرجاً وهو بالمفهوم السياسي رئيس الدولة، وبالمفهوم الديني نبي هذ الأمة أن يسعى في طلب جابر، وأن يشفع له عند اليهودي!

فَتَشَبّهوا إِن لَم تَكُونوا مِثلَهُم

إِنَّ التَّشَبّه بِالكِرامِ فَلاحُ

فلا تزهد في شفاعة حسنة، امشِ في حاجات الناس، حُلَّ مشاكل البسطاء، توسَّط للضعفاء، ولكن إياك والواسطة التي تقلب الحق باطلاً، والباطل حقاً، فتأخذ حقَّ إنسان وتعطيه لإنسان آخر.

ثم إذا رُفضَتْ شفاعتك فلا تعتبر الأمر شخصياً، ولا تحلف أن لا تمشي بشفاعة بعد ذلك، فها هو النبي ﷺ شفعَ ولم تُقبل شفاعته، ومع هذا بقيَ يسير في الشفاعة حتى آخر عمره، فلا تدع الشيطان يدخل إليك من باب عزَّة النَّفس!

اتقِ دعوة المظلوم!

بعثَ النّبيُّ صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل إلى اليمن، وأوصاه، وكان مما أوصاه به: اتقِ دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب!

كان يحي البرمكي وزيراً لهارون الرشيد، وكان الرشيد قد أطلقَ يده في الحكم، وأعطاه صلاحيات واسعة، فكان يُدبِّر كل صغيرة وكبيرة في الدولة العباسية، ثم إن البرامكة تجاوزوا حدودهم، والملكُ عقيم كما تقول العرب، وغضبُ السلاطين قيامة قبل يوم القيامة، نكَّل بهم الرشيد، فقتلَ منهم من قتلَ، وسجن منهم من سجنَ.

وكان يحيي البرمكي وابنه الفضل ممن سُجنا أول الأمر، ثم بعد ذلكَ قتلَ الرشيدُ الفضلَ بن يحيي البرمكي.

وفي السجن قال الفضل لأبيه: بعد الأمر والنهي والنعمة صرنا إلى هذا؟!

فقال له أبوه: يا بُني هذه دعوة مظلوم سَرَتْ بليل، غفلنا عنها، ولم يغفل الله عنها!

وروى ابن أبي الدنيا في كتابه «مجابو الدعوة» أن بُسر بن سعيد الذي نشأ في بيت أُمنا ميمونة بنت الحارث، وكان عابداً زاهداً، تقياً ورعاً، قد وشى رجلٌ به عند الوليد بن عبد الملك، وأخبره أن بُسر بن سعيد يحرِّض الناس للخروج على حكمه وسلطانه!

فأرسل الوليد إلى بُسر بن سعيد أن يأتيه والرجل الواشي عنده، فجاء بُسر ترتعِدُ فرائصه مما يعرفُ من حزم الوليد وشدته، فلما دخل عليه، أخبره بما قال عنه الرجل.

فأقسم بسر بن سعيد أنه ما قال هذا.

فالتفتَ الوليد إلى الرجل وطلب منه أن يتكلم، فقام وأقسم باللهِ أنه قد سمعَ منه ما أخبر الوليد به!

فنكسَ بُسر بن سعيد رأسه، وجعل ينكتُ في الأرض، ثم رفع رأسه ونظر إليه، ثم رفع يديه وقال: اللهم إن هذا قد شهدَ بما علمتَ أني لم أقله، فاللهمَّ إن كنتُ صادقاً فأرني به على ما افترى عليَّ!

فوقع الرجل أرضاً، وما زال يتخبط حتى مات!

اتقوا دعوات المظلومين فإنها سهام لا تُخطئ، ولا تنظروا إلى ضعف من ظلمتم، ولكن انظروا إلى قوة من يلجأ إليه المظلوم!

ومن أجمل ما قال ابن عيثمين في هذا المجال:

إنَّ الله يستجيبُ دعاء الكافر المظلوم على المسلم الظالم،

لا حُباً بالكافر ولا بُغضاً بالمسلم، ولكن حُباً للعدل، وبُغضاً للظلم!

حتى يكون الشيطان هو المدحور!

جاء عبد الله بن حريب إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم وقال له: يا رسول الله إني رجلٌ مِقرافٌ للذنوب!

فقال له: تُبْ إلى الله واستغفره.

فقال: فإني أعودُ!

فقال له: تُبْ إلى الله واستغفره.

قال: فإني أعودُ!

فقال له: تُبْ إلى الله واستغفره.

قال: إلى متى يا رسول الله؟

فقال له: حتى يكون الشيطان هو المدحور!

إنَّ من طُرق إبليس في إضلال الناس أن يُكبِّر ذنوبهم في أعينهم، ويصغِّر رحمة الله في عقولهم، فما إن يُذنب العبد حتى يأتيه إبليس ليخبره أن لا مكان له بين الصالحين، وأنَّ هذا الدين للأتقياء، وأنه قد هتكَ ستر الله، وعليه أن يخجل من العودة، يريدُ الخبيثُ أن يساوينا به، فإنه حين أذنبَ استكبرَ، وعاندَ وتجبَّر، وما لنا وله، إنما نحن أبناء آدم عليه السَّلام، هذا هو أبونا الذي عندما أذنبَ استغفر، وبكى على خطيئته، حتى قبلَ الله توبته، بل وجعله من أنبيائه!

إياكَ أن يقفَ الشيطان بينكَ وبين الله!

سِرْ إلى الله على أيِّ حالٍ كنتَ، إذا أذنبتَ استغفرْ، وإذا ابتعدتَ سارع بالعودة، ولا تُغلِقْ باباً فتحه الله لكَ بينكَ وبينه ليتوب عليكَ به!

لا تترك صلاة جماعةٍ اعتدتها لذنبٍ تعاوده بين الفينة والأخرى، على العكس، احرصْ عليها أكثر، فمنها بإذن الله النجاة!

لا تقطعْ صدقةً اعتدتَ أن تُعطيها فقيراً لأن لكَ ذنباً لم تستطِعْ التخلص منه!

بربك أخبرني إن تركتَ الصلاة في المسجد لذنبٍ، وتركتَ الصدقةَ لآخر، فمن أي بابٍ تدخلُ، المعادلة سهلة: إذا لم تستطِعْ أن تتخلص من معصية فزاحمها بالطاعات!

كان الصحابي الجليل أبو محجن الثقفي مُبتلى بشرب الخمر، ولكنه لم يقعُدْ عن الجهاد في سبيل الله، علمَ أن الله فتح له هذا الباب فحافظَ عليه!

جيءَ لسعد بن أبي وقاص بأبي محجن يوم القادسية وقد شرب الخمر، فوضع رجليه في القيد، وكانت المعركة تدور على مدار أيام، فتوسل أبو محجن زوجة سعد أن تفكه ليذهب ليقاتل ثم يرجع لتضع رجليه في القيد! لقد عزَّ عليه أن يرى المعركة دائرة ولا يكون بين جنود الله!

وافقت زوجة سعدٍ وأطلقته، فشارك في القتال وأبلى حسناً، وهو ملثم، وكان سعد يقول: الفرس فرس أبي محجن، والطعن طعن أبي محجن، ولكن أبا محجنٍ في القيد!

وعندما انتهى القتال عاد مسرعاً ووضع رجليه في القيد.

فلما انهزم الفُرس، وعاد سعد، أخبرته زوجته بما كان من أبي محجن، فقال: لا واللهِ لا أضربُ بعد اليوم رجلاً أبلى الله على يديه ما أبلاه، وخلى سبيله!

فقال أبو محجن: قد كنتُ أشربها إذ يُقام عليَّ الحد وأطهر منها فأما الآن فواللهِ لا أشربها أبداً!

لا تُغلقْ باباً فتحه الله لكَ مهما بلغتَ من المعصية فربما كانت العودة إلى الله منه!مكتبة

أعطِهِ من هو أفقر مني!

يقول عمر بن الخطاب: كان النبي صلى الله عليه وسلم يُعطيني العطاءَ فأقول: أعطِهِ من هو أفقر مني!

فقال لي: إذا جاءكَ من هذا المال شيءٌ وأنتَ غير مشرفٍ/ متطلعٍ له، ولا سائل/ طالب فخذه، وما لا فلا تتبعه نفسك!

يا لعزة نفس عمر، يأتيه المال إلى بابه دون أن يطلبه، فيقول للنبي صلى الله عليه وسلم أعطِهِ من هو أفقر مني!

لا يكتفي أنه لا يزاحم الفقير والمسكين في الأعطيات، وإنما يفضلهم على نفسه ضارباً مثلاً رائعاً في التكافل الاجتماعي، والإحساس بالأخرين!

ولقد اُبتلينا هذه الأيام بأُناسٍ تريدُ أن تأكل الدنيا وما فيها رغم عدم حاجتها، وسبب هذا أن الجوع الحقيقي في النفس لا في المعدة!

تجد الفقير المعدم إذا ما وَزَعتْ جهة ما على الفقراء شيئاً ونسيته تمنعه عزة نفسه أن يراجع رغم حاجاته، وتجد من ليس بحاجةٍ يقيمُ الدنيا ولا يقعدها، بدل أن يكون هو من يعطي لقدرته على العطاء، يريدُ أن يأخذ رغم عدم حاجته إلى الأخذ! والويل والثبور لمن طرق بيتاً في حارته حاملاً عطاءً لمسكين ولم يطرق بابه، يقيم الدنيا ولا يقعدها، ويتهم المعطي باللصوصية والسرقة والتمييز لأجل عطاء يسير لا يسمن ولا يُغني من جوع!

ضاقتْ الأحوال بالناس هذه الأيام، ومنَّ الله على الميسورين أن اجتهدوا في التخفيف عن الفقراء، إما بمبادرةٍ شخصية، وإما بالمساهمة في حملات يقوم بها أهل الخير، فما الداعي لهذا الجشع، تلمز هذا وذاك تريدُ أن تُكرّه الناس بفعل الخير، وتقطع المعروف بين الناس؟!

كُن عزيز نفس، إذا أُعطيتَ من غير مسألةٍ فخذْ، فإن وجدتَ في نفسكَ حاجةً فبارك الله لكَ به، وإن لم تجد دُلَّ على من هو أفقر منك ممن تعرفهم، أو خذها أنتَ وأعطها له، أو أقسمها بينك وبينه، واعلم أن كل ما يصل الإنسان رزق، وإن الرزق لا يزيد بقلة الأدب، وإنما بالسعي المحمود، وكل ما أقَمتَ له الدنيا لتأخذه فأخذته كان سيصلك على طبق من لطف إلى باب بيتك، لأنه رزقك، وما لم يكتبه الله لك فلن تأخذه ولو كان الإنس والجن معكَ قبيلاً!

في مسألة الرزق علينا أن نتأدب مع الله أولاً قبل أن نتأدب مع الناس، وما أفقه عمر بن الخطاب حين قال: إني لا أسأل الله الرزق فقد فرغَ من قسمته ولكني أسأله البركة فيه!

وأدركَ رمضان!

جاء رجلان من اليمن إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم، وأسلما بين يديه معاً، وكان أحدهما أشدّ اجتهاداً من الآخر في العبادة، وغزا مع النبيِّ صلى الله عليه وسلم فاستشهد!

ثم مكثَ الآخر بعده سنةً ثم مات.

فرأى طلحة بن عبيد الله في منامه أنه عند باب الجنة، وإذا الرجلان هناك، فجاءِ مَلَكٌ وأمرَ الذي توفي حديثاً بأن يدخل الجنة.

ثم خرج مرةً أخرى وأمر الذي استشهدَ أولاً أن يدخل الجنة.

وثم خرج فقال لطلحة: أما أنتَ فارجعْ، فإنكَ قد بقيَ لك عُمر!

فأصبح طلحة يُحدث الناس بما رأى فتعَجبوا!

فبلغ ذلك النبيُّ صلى الله عليه وسلم، فقال لهم: من أي شيءٍ تعجبون؟

فقالوا: يا رسول الله، كان هذا أشدَّ الرجلين اجتهاداً، ثم استشهد، ودخلَ الآخرُ قبله الجنة!

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أليسَ قد مكثَ هذا بعده سنةً؟

قالوا: بلى.

فقال: وأدركَ رمضان، فصامَ وصلى؟

قالوا: بلى.

فقال: فما بينهما أبعدُ مما بين السماء والأرض!

ها هو رمضان بين أيديكم، وقد أدركتم ما أدركَ صاحبكم، فسبقَ بصيامه وقيامه صاحبه الذي استشهد قبله، فسابقوا، فإن عمر المؤمن لا يزيده إلا خيراً!

يا مرحباً بالجوع والعطش في سبيل اللهِ فإنها سويعات تمضي، تمتلئ بعدها الأمعاء، وترتوي الحناجر، ويثبتُ الأجر إن شاءِ الله!

يا مرحباً بقراءة القرآن، ضمَّاد القلوب المجروحة، وسلوى النفوس المحزونة، وجبال من الحسنات، ولا أقول ألم حرف، وإنما ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف!

يا مرحباً بالقيام والتراويح، وأقدام تنتصبُ لله، وقلوب تُنيخ مطاياها ببابه، لحظات من التعب اللذيذ تمضي، وأجر عظيم يبقى!

يا مرحباً بالصدقات،

وإطعام الفقراء والمساكين،

فهذا الذي يبقى، فليس للأكفان جيوب،

والصدقة هي الطريقة الوحيدة لإرسال أموالنا إلى الآخرة!

الأدبُ أدبُ الله!

كان للإمام مالك ابنة اسمها فاطمة، كانتْ تحفظُ أحاديث الموطأ عن ظهر قلب، وكان إذا جلس الإمام ليستمع إلى تلاميذه وهم يقرأون عليه

الموطأ، تجلسُ ابنته فاطمة وراء الباب، فإذا طرقتْ على الباب بيدها، انتبه الإمام مالك أن التلميذ أخطأ!

وكان له ابن اسمه محمد مولع باقتناء الحمام، رغم أن الإمام لم يترك طريقاً ليُحبب إليه العلم، إلا أنه عجز عنه، ومرةً رآه يحمل طير حمام ويركضُ فيه، فقال مشيراً إلى ابنته: الأدبُ أدبُ اللهِ، هذا ابني وهذه ابنتي!

وكانت فاطمة بنت الإمام مالك إذا افتقرَ تساعده في السوق في بيع الخضار، وكانوا يبيعون الخضار بالخبز، وكانت مرةً في السوق وقد تركها الإمام لبعض شأنه، فجاءها رجل فقال: آخذ منكِ الخضار، فإذا كان الغدُ وجاءنا الخبز جئتكِ بالثمن.

فقالت له: لا يجوز ذلك!

فقال لها: ولِمَ؟

فقالتْ: لأنه بيع طعام بطعام فلا بُدَّ أن يكون يداً بيد!

فسأل عنها من تكون، فقيل له: ابنة الإمام مالك!

يُبتلى الصالحون أحياناً في أهاليهم، ولنا في الأنبياء أُسوة حسنة!

فزوجة لوط عليه السّلام كانت كافرة، وزوجة نوح عليه السلام كانت كافرةً أيضاً، وآزر أبو إبراهيم عليه السلام كان كافراً، وقد جاء النبيُّ صلى الله عليه وسلم بقرآن فيه ذمُّ عمه أبي لهب!

الإنسان يسعى جاهداً لتربية أولاده تربية حسنة، والأصل والقاعدة أن التربية تُثمر وتُؤتي أُكلها، ولكن لكل قاعدة شواذ! ويستحيل أن يكون نوح عليه السّلام قد فرَّط في تربية ابنه، ودعوته إلى الله تعالى، ولكن سبحان من بيده الهداية، فقد قرر ذلك العاق أن يأوي إلى جبل يعصمه من الماء بدل أن يركب السفينة مع أبيه، رغم نداء الأب المشفق له وهو يقول: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾!

نحن مسؤولون عن السَّعي لا عن النتائج،

وإنَّ الله سبحانه سيسألنا عن الطريقة التي ربينا بها أولادنا وبناتنا،

ولكنه لن يسألنا عن نتيجة هذه التربية إن أثمرتْ أو لم تُثمر!

وإن في قصص الصالحين عزاءً،

فإن اتعبتكَ زوجتك فأين أنتَ من زوجتي نوح ولوط عليهما السّلام!

وإن لم يكن أبوك صالحاً كما تُحبُّ،

فلا شك هو أفضل من آزر أبي ابراهيم عليه السلام فليس بعد الكُفر ذنب!

وإن أتعبكَ ابنُكَ ،

فلعلَّ ذلكَ أقل تعباً عليكَ من أن يغرقَ ابنك كافراً أمام عينك!

إنه قد مكثَ عندي زماناً!

كان في بني إسرائيل رجل فقيه، عالم عابد مجتهد، وكانت له امرأة هو بها معجبٌ، ولها محبٌّ. فماتت هذه المرأة، فوجَد عليها وَجْداً شديداً، ولقي عليها أسفاً، حتى أغلق بيته على نفسه، واحتجبَ عن الناس، ومنع أحداً من الدخول عليه!

ثم إن امرأةً عاقلةً من نساء بني إسرائيل علمت به، فجاءته وقالت لمن هو على بابه: إن لي حاجة أستفتيه فيها، وليس يجزيني فيها أن أكتبها في رقعة وأدفعها إليه، فلا بد من رؤيته ومشافهته.

وبقيتْ واقفة على بابه، ولما علمَ من حاجبه أنها مقيمة بالباب، رافضة المغادرة حتى تراه وتستفتيه، قال: ائذنوا لها.

فدخلتْ عليه، وقالت: إني جئتك أستفتيك في أمر!

قال: وما هو؟

قالت: إني استعرتُ من جارةٍ لي حُلياً، فكنتُ ألبسه وأعيره زماناً، ثم إنها أرسلتْ إليَّ تريده، أفأعطيها إياه؟

قال: نعم.

قالت: إنه مكث عندي زماناً.

فقال: ذلك أدعى أن ترديه إليها!

فقالتْ: يرحمك الله، أفتأسفُ على ما أعاركَ الله إياه، ثم أخذه، وهو أحقُّ به منكَ؟!

فقام من فوره، وفكَّ عزلته، وعاد يستقبل الناس ليفتيهم ويعلمهم!

فقد الأحبة غربة كما قالت العرب، وإن الناس في غربة فقدهم يحتاجون إلى عزاء، فالموت موجعٌ، والفقد مؤلم، وإن الحليم فيه قد يصيرُ حيراناً، ويفقد شيئاً من اتزانه ورزانته التي عرفناه بها، ولا شيء يعيدهم سيرتهم الأولى إلا حُسن التعزية!

كان عمر بن الخطاب يُحِبُّ أخاه زيداً حُباً شديداً، وكلما تذكر استشهاده يوم اليمامة في حرب مسيلمة الكذاب بكى، ولما جاء متمم بن نويرة إلى أبي بكر يشكو خالد بن الوليد قتل أخيه مالك بن نويرة ردَّةً، وأنشدَ شعراً بليغاً في حُب الأخ، تذكَّر عمر بن الخطاب أخاه زيداً، وقال لمتمم: لو أني أحسنُ أن أقول شعراً لقلتُ في أخي زيد!

فقال له متمم: لو أن أخي استشهد كأخيك ما قلتُ فيه، ولكنه قُتل ردَّةً!

فقال له عمر: يرحمك الله ما عزَّاني أحد بمثل ما عزيتني به!

ومات لأحد الصالحين ولد، فبلغ منه الحزن مبلغاً حتى انقطع عن الناس، فدخل عليه صديق له وقال: أنتَ أرحمُ به أم الله؟

فقال: الله.

فقال له: علامَ تبكي صبياً ذهبَ إلى من هو أرحمُ به منك؟!

الناس يحتاجون إلى من يربتُ على قلوبهم،

ويُصبرهم فقد أحبتهم،

فأحسنوا اختيار مفردات العزاء،

فقد يُصبِّر اللهُ بها إنساناً مجذوعاً،

ويرمم بها قلباً مكلوماً!

حتى إذا بلغتِ الحلقوم!

جاء رجلٌ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله أيُّ الصَّدقة أعظم؟

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: أن تتصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تُمهِلْ حتى إذا بلغتِ الحلقوم قُلتَ لفلانٍ كذا، ولفلانٍ كذا، وقد كان لفلان!

ودخلَ جماعة من أصحاب الحسن البصري عليه وقالوا: يا أبا سعيد ألا تعرف ما كان من محمد بن الأهتم؟

فقال: ما به؟

فقالوا: دخلنا عليه وهو يجود بنفسه ساعة الموت فقال: أُنظروا إلى هذا الصندوق فيه ثمانون ألف دينار لم أُؤدِّ منها زكاةً، ولم أصِلْ رحماً، ولم يأكل منها محتاج!

فقلنا: يا أبا عبد الله فلمن كنتَ تجمعها؟

فقال: لروعة الزمان، ومكاثرة الإخوان، وجفوة السلطان!

فقال الحسن البصري: أُنظروا من أين أتاه شيطانه، فخوَّفه روعة زمانه، ومكاثرة إخوانه، وجفوة سلطانه!

فيا أيها الوارث لا تُخدعنَّ كما خُدع صاحبك بالأمس، جاءك هذا المال لم تتعبْ لكَ فيه يمين، ولم يعرق لكَ فيه جبين، جاءكَ ممن كان له جموعاً مَنوعاً، من باطلٍ جمعه ومن حقٍّ منعه!

إن من أكثر الأبواب التي يدخل فيها الشيطان هو باب التخويف من الفقر، يقول له: أمسِكْ مالكَ، ربما أنتَ لا تحتاجه اليوم، ولكنك قد تحتاجه غداً، فما لكَ وللصدقة، من يعطيكَ غداً إذا احتجتَ، ومن يدفعُ عنك في المستشفى إذا مرضتَ، الأيام تمضي مسرعة، غداً يكبر الأولاد

فمن أين تدفع أقساط الجامعات، ولربما طُردتَ من عملكَ فاجعلْ لكَ مالاً يواسيك في أيامك السوداء!

وإن شئت فاقرأ قول الله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ واللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

أن يدَّخِرَ الإنسان شيئاً من ماله للغد لا شيء فيه طبعاً، على العكس تماماً هذا فعل الفطناء الأذكياء الذي يعرفون أن الزمن دوَّار، وأن الأيام تتبدل، ولكن الادخار شيء، وأن يعيش الإنسان جامعاً للمال كأنه حصَّالة نقود شيء آخر!

أن يبقي من راتبه جزءاً مدخراً شيء، وأن يعتقد أن كل مالٍ يتصدق به هو مال قد خسره شيء آخر!

أيضاً أن يُفكر الأنسان بأولاده من بعده، ويسعى لتأمين مستقبلهم لا شيء فيه، على العكس تماماً هذا عين العقل، وقد قال النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص: إنك أن تترك ورثتك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس!

ولكن بشرط أن لا تنسى نفسك، أن لا تنسى أن هناك صحيفة لكَ عليكَ أن تملأها بالصدقة، وقبراً عليكَ أن تنيره بمد يد العون للناس! وثِقْ

تماماً أن الله أعدل وأرحم أن تمدَّ يدكَ بالصدقة للناس، ثم يجعلك تمدها مرةً أخرى لتطلب الصدقة!

مَنْ كفَّ يد فقير عن السؤال أغنى الله يده عن السؤال،

ومن سدَّ حاجة مسكين عصمه الله أن يكون يوماً مسكيناً،

بهذا اليقين تعامل مع الأشياء،

لا تحسبْ كل شيءٍ بالورقة والقلم،

وقد أقسم سيدنا أنه ما نقص مالٌ من صدقة!

نُهينا عن التَّكلف!

خرجَ النَّبيُ ﷺ في بعض أسفاره ومعه جماعة من أصحابه، فساروا ليلاً فمرُّوا على رجلٍ جالسٍ عند حوض ماء له، فقال له عمر بن الخطاب: يا صاحب الحوض، أَولغَتِ السِّباع الليلة في حوضك؟

فقال له النبي ﷺ: يا صاحب الحوض لا تخبره، هذا متكلف، لها ما حملتْ في بطونها، ولنا ما بقي شرابٌ وطهور!

حفظَ عمر بن الخطاب هذا الدَّرس جيداً، ففي موطَّأ الإمام مالك أنَّ عمر بن الخطاب خرج في ركبٍ فيهم عمرو بن العاص حتى وردوا حوضاً، فقال عمرو بن العاص: يا صاحب الحوض، هل ترد حوضك السباع؟

فقال عمر: يا صاحب الحوض، لا تُخبرنا، فإنا نردُ على السِّباع، وترِدُ علينا!

وفي البخاري حديث عمر بن الخطاب: نُهينا عن التكلف.

وعند الطبراني، والحاكم، والبيهقي عن سلمان الفارسي قال: نهانا رسول الله ﷺ أن نتكلَّف للضيف!

هذا الدين العظيم يريدُ منا أن نعيش حياتنا ببساطة، ولا نُرهق أنفسنا بالبحث عن الكماليات فهذا من التكلف، ولا أن نراكم على أنفسنا الديون لنقوم بواجب أحد، أو لنبدو بصورة اجتماعية زاهية فهذا أيضاً من التكلف، ولا نبحث في الشريعة عن علم لا ينفع وجهل لا يضر فهذا أيضاً من التكلف، كالذي جاء إلى الشَّعبي وسأله: ما اسم زوجة إبليس؟

فقال له الشَّعبي: ذلك زواج ما شهدناه!

وكالذي يريدُ أن يعرف أنواع الطيور التي ذبحها إبراهيم عليه السَّلام وفرقها على قمم الجبال!

كل هذا من التكلف الذي نُهينا عنه.

غيِّرْ عقليتك ودَعْ عنكَ التكلف تجد الحياة يسيرة سهلة!

ما يبكيكِ؟!

دخلَ النبيُّ ﷺ على صَفيّة بنت حُيي فوجدها تبكي فقال لها: ما يُبكيكِ؟

فقالت: قالتْ لي حفصة إني ابنة يهودي!

فقال لها: إنكِ لابنةُ نبيٍّ، وإنَّ عمكِ لنبي، وإنكِ لتحت نبي، فبمَ تفخرُ عليكِ؟

ثم قال: اتقي اللهَ يا حفصة!

المرأة رقيقة بطبعها، كيف لا وهي مخلوقة من ضلعٍ قرب القلب! عاطفية حتى أبعد حد، هذا لأن المهمة العظيمة التي أرادها لها الخالق العظيم تتطلبُ هذه العاطفة، لهذا تجدها تبكي لأصغر المواقف، وهذا لا علاقة له بالتفاهة، وضعف الشخصية كما يحسبُ الجهلاء بنفسيات النساء، على العكس تماماً، لا يتعارض أبداً أن تجد تلك الرقيقة التي كانت تبكي ذات ضيقٍ أن تكون لبؤة شرسة وتواجه الأيام باقتدار كما يفعل الرجال، كل ما في الأمر أنهنَّ الجزء العذب والرقيق من البشرية، والبكاء إحدى طرقهن

للتعبير عن هذه الرقة، واستجلاب الاهتمام، فلا تفرطوا في مواقف بكائهن، هي فرصة سانحة لامتلاكهن من الداخل، فالمرأة لا تُمتلك إلا من قلبها! وإياكم والإعراض عن لحظات بكائهن، واعتبار الأمر تافهاً ولا يستحقّ، وانظروا إلى فعل النبيِّ صلى الله عليه وسلم كيف يهتم: ما يُبكيكِ؟!

فلما أخبرته، طيّبَ خاطرها، وأسمعها ما يرضيها، ثم لم يرضَ بالخطأ!

في الحادثة نشهدُ ما يكون بين الضرائر من مناكفات، وهذا لا علاقة له بمستوى الإيمان، وإنما مردّه إلى الطبع، والفطرة البشرية. طبيعة المرأة أن تغار من ضرتها مهما بلغتْ من الإيمان عتياً، وقبل هذا بقرون طويلة غارتْ سارة من هاجر غيرةً شديدة أصابت إبراهيم عليه السلام بضيق الصدر، هذا وسارة المرأة الطاعنة في الإيمان والتوحيد!

ويا لجبر الخواطر في لحظات الحزن ما أعذبه على الناس!

انظروا لمشاكل الحياة من هذا الباب، أنها فرصة للتكاتف وجبر الخواطر، وإظهار الاهتمام والحُب!

موقف حياتي رتيب، غيرة تخرجها عن طورها،

عمل منزلٍ ينهكها،

مشاكل أولاد تتعبها،

هي فرصتك السانحة لتكون القلب الكبير الذي يواسي،

والصدر الحنون الذي يسع، والكتف الدافئ الذي يسند،
مارس رجولتك وقوامتك،
اطبعْ على جبينها قُبلة،
وأخبرها أنك تهتم،
عانقها وأخبرها أنها عزيزة عندكَ وأنها لا تهون،
قُلْ لها أنا معكِ، وقوي بكِ، ولا أستغني عنك،
وستجدها أشرقتْ، وابتسمتْ،
ونسيتْ كل ما مرَّ بها،
في كل امرأة طفلة صغيرة بجديلتين تحتاج إلى الحنان مهما بلغتْ من العمر! مكتبة

رجلان تحابا في الله!

جاء في حديث السَّبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه، وافترقا عليه!
وقد ضرب الأوائل صوراً رائعة من صور الصداقة، هذه بعضها:
يقول يونس بن عبد الأعلى: قال لي الشافعي ذات يوم:

يا يونس، إذا بلغكَ عن صديقكَ ما تكرهه، فإياك أن تبادر بالعداوة، وقطع الولاية، فتكون ممن أزال يقينه بشكٍ، ولكن إلقَهْ، وقُلْ له: بلغني عنكَ كذا وكذا، واحذرْ أن تُسمي له المبلِّغ، فإن أنكر ذلك فقل له: أنتَ أصدقُ وأبرُّ، ولا تزيدنَّ على ذلك شيئاً.

وإن اعترفَ بذلك، فرأيتَ له في ذلكَ وجهاً لعذرٍ فاقبل منه. وإن لم ترَ وجهاً لعذرٍ، وضاقَ عليكَ المسلك، فحينئذٍ أثبتها عليه سيئة أتاها، ثم أنتَ في الخيار، فإن شئتَ فارقتَ، وإن شئتَ عفوتَ، والعفو أقرب للتقوى!

وإن نازعتك نفسك برد الإساءة، فاذكُرْ ما سبقَ لديكَ من إحسانه، ولا تبخس باقي إحسانه السالف بهذه السيئة، فإن ذلك الظلم بعينه!

يا يونس: إذا كان لكَ صديق فشُدَّ بيديكَ عليه، فإنَّ اتخاذ الصديق صعب ومفارقته سهل!

يقولُ الزَّهريُّ: كان لثعلبٍ أبو العباس بن يحيى إمام نُحاة الكوفة في عصره عزاءٌ في بعض أهله، فتأخرتُ عنه، لأنه خفيَ عليَّ ما وقع به، فجئته معتذراً.

فقال لي: يا أبا محمد، ما بكَ حاجة أن تتكلفَ عُذراً، فإنَّ الصَّديقَ لا يُحاسبُ، والعدو لا يُحتسبُ له!

ويقول محمد بن مناذر، ما رأيتُ كالخليل بن أحمد الفراهيدي، كنتُ أسيرُ معه فانقطع نعلي، فمشيتُ حافياً، فخلعَ الخليل نعله ومشى حافياً!

فقلتُ له: ما تفعل يرحمكُ اللهُ؟

فقال: أواسيكَ في الحفاء!

وأُصيبَ يونس بن عُبيدٍ بمصيبةٍ، فقيل له: إنَّ ابن عوفٍ لم يأتِكَ!

فقال: إنَّا إذا وثقنا بمودة أخينا لم يضره عندنا أن لا يأتينا!

صحيح أن الأصدقاء يظهرون في هذه المواقف،

وأن الإنسان بحاجةٍ إلى صديق يربّتُ على كتفه،

ولكن من المروءة إيجاد المعاذير للأصدقاءِ والتمسك بهم،

فإنَ الصديق لا يُحاسب، والعدو لا يُحتسبُ له!

خشية أن يكبه الله في النار!

يقول سعد بن أبي وقاص: أعطى النبيُّ صلى الله عليه وسلم رجالاً مالاً وأنا جالسٌ عنده، ولم يُعطِ رجلاً هو أفضلهم في نظري.

فقلتُ: يا رسول الله، ما لكَ عن فُلانٍ، فواللهِ إني لأراه مؤمناً.

فسكتَ ولم يُجبني! ثم غلبَ عليَّ ما أعلمه من صلاح الرجل، فعدتُ لمقالتي، فقلتُ: يا رسول الله، ما لكَ عن فُلانٍ، فواللهِ إني لأراه مؤمناً.

فسكتَ ولم يُجبني!

فسكتُّ قليلاً، ثم عدتُ لمقالتي!

فقال لي: يا سعد، إني لأعطي الرجل، وغيره أحبُّ إليَّ منه، خشية أن يكبَّه الله في النار!

حديث عظيم لو فهمناه لهانَ علينا فهمُ حكمة الله تعالى في الأرزاق!

كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يُعطي بعض الناس مالاً لما يعرفُ من ضعف إيمانهم، وأنه إذا لم يُعطهم لربما لم يصبروا على إسلامهم، فكان عطاؤه لهم رحمةً منه عليهم، ويمنعُ بعض أصحابه وهم أحبُّ إليه ممن أعطاهم لأنه يعرف أن الإيمان في قلوبهم كالجبال الرواسي، لا يزيد بعطاء، ولا ينقص بمنع!

وهكذا قدر الله في الأرزاق!

إنَّ الله سبحانه يُعطي أُناساً من خلقه مالاً رحمةً بهم، لأنه سبقَ بعلمه أن هؤلاء لا يصلحهم إلا الغِنى، وكذلكَ فإنه يمنعُ عباداً له يُحبهم من كثير المال لأنه يعلمُ أن هؤلاء لا يصلحهم إلا الفقر!

أرسلَ الله تعالى الخضر وموسى عليهما السَّلام لثقب سفينة المساكين التي لو لم تُثقب لأخذها منهم الملكُ عنوة، تخيلوا كم كانوا أعزاء على الله

حتى يرسل إليهم الخضر العبد الصالح، وكليمه موسى ليحفظ عليهم مصدر رزقهم الذي يبقيهم فقراء ومساكين، فلا هو أغناهم وكان قادراً، ولا قطع رزقهم وكان قادراً، ولكنه علم على حبه لهم أنَّ هذا هو أفضل لهم!

فإنْ ضاقَ رزقكَ فتعزَّ بهم! فربما هذا أصلح لكَ، وفي قلة ذات يدك، رقة لقلبك، وليناً في طبعك، وهو خير لكَ في آخرتك من مالٍ يُطغيك ويصرفكَ عن ربكَ!

خيرة اللهِ لعبده خير من خيرة العبد لنفسه، وفي هذا يقول عمر بن الخطاب: لو فُتحت حُجب الغيب ما اختار الإنسان لنفسه إلا ما اختاره له ربه!

واضربوا لي معكم سهماً!

بعثَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم أبا سعيدٍ الخدري على رأس سرية، وهم في طريق عودتهم نزلوا على حيٍّ من أحياء العرب، فاستضافوهم، فأبوا أن يُضيفوهم!

فلُدِغَ سيد ذلك الحي، فسعوا له بكل دواءٍ ولكن دون جدوى، فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرَّهط الذي نزلوا، لعله أن يكون عندهم شيء ينفعه.

فأتوهم فقالوا: إنَّ سيدنا قد لُدغ، وسعينا له بكل شيءٍ فلم ينفع، فهل عند أحدٍ منكم شيءٍ؟

فقال أحد المسلمين: نعم واللهِ، إني لأرقي، ولكننا استضفناكم فلم تُضيِّفونا، فما أنا براقٍ لكم حتى تجعلوا لنا أجراً.

فاتفقوا إن هو شفي من الرقية أن يعطوهم قطيعاً من الغنم!

فقام الرجلُ فقرأ عليه الفاتحة سبعاً، فقام سيد القوم الملدوغ سليماً وكأنما لم يكن به شيء!

فأعطوهم قطيعاً من الغنم، فقال بعضهم: اقسموا بيننا هذا القطيع.

فقال الرجل الذي رقى: لا تفعلوا، حتى نأتيَ النبيَّ ﷺ فنذكر له الذي كان، وننظر ما يأمرنا.

فلما قدموا على النبيِّ ﷺ، وحدثوه بما حصل معهم، قال للراقي قوله المثني عليه: وما أدراكَ أنها رقيا؟ ثم أردفَ قائلاً: اِقسموا واضربوا لي معكم سهماً!

عُرفَ العربُ بالكرمِ، لهذا لم يُسوِّدوا لا جباناً ولا بخيلاً! ولكن لكل قاعدة شواذ، وهؤلاء القوم كانوا شواذاً في العرب، ومن قبل كان البخل

في الناس، وقد جاء الخضر وموسى عليهما السلام إلى قرية فأبى أهلها أن يضيفوهما ولو شربة ماء!

هذا القرآن دواء للقلوب والأبدان! فيه صحة القلوب من الشبهات والشهوات، وصحة الأجسام من العلل والأسقام، بفاتحة الكتاب، السورة المباركة التي لم يُؤتَها نبي من قبل، برئَ سيد القوم بإذن الله، فاجعلوا آيات القرآن علاجاً، وهذا لا يعني أن نترك الدواء المادي، ولا أن نزهد بالأطباء، على العكس تماماً، نذهب للأطباء، ونأخذ الدواء الذي يصفونه لنا، معتقدين يقيناً أن الدواء والطبيب ليست إلا أسباباً لا تضرُّ ولا تنفع إلا من بعد أن يأذن ربنا سبحانه، ثم إن الجمع بين القرآن وعلاج الأطباء، هو من فقه الأوائل، وفهم سُنة الله في الكون!

في الحديث جواز أخذ الأجر على الرُّقيا، وإلا ما أذِنَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم للصحابة أن يقسموا بينهم القطيع، بل وطلبَ أن يقسموا له سهماً معهم، وهو غنيٌّ عن الدنيا كلها وإنما لأنَّ فعله هذا من أفعال التشريع بأبي هو وأمي، على أن التعفف عن أخذ الأجور لمن ليس له حاجة أولى وإن كان الأجر جائزاً بلا خلاف!

ومن فقه الصحابة في القصة امتناعهم عن قسمة القطيع حتى يأمر النبيَّ صلى الله عليه وسلم أو ينهى،

فحبذا لو كانت حياتنا وفق معيار الشرع وورع الصحابة!

هنا وضعه رسول الله!

كان للعباس بن عبد المطلب ميزاب على طريق عمر بن الخطاب، فلبس عُمر ثيابه يوم الجمعة، ومضى إلى المسجد ليخطب بالناس، وكان أهل العباس قد ذبحوا فرخين على سطح الدار، وصبوا الماء لتنظيف الدم لحظة مرور عمر دون أن ينتبهوا، فأصاب عمر شيءٌ من الماء والدم، فأمرَ بقلعِ الميزاب من مكانه!

رجع عمرُ إلى بيته مسرعاً، فبدَّل ثيابه، ولبس غيرها، وعاد إلى المسجد، فخطبَ بالناس وصلى بهم، فلما انتهى جاءه العباس وقال له: واللهِ إنَّ هذا الميزاب وضعه النبيُّ ﷺ بيده في هذا الموضع!

فقال له عمر: أقسمتُ عليكَ إلا صعدتَ على ظهري حتى تضعه في الموضع الذي وضعه فيه النبي ﷺ.

ففعلَ العبَّاس ذلك!

نزعَ عمر بن الخطاب ميزاب العبَّاس لأنه رأى فيه ضرراً، فكما تسببَ بتلويث ثيابه، قد يتسبب بتلويث ثياب غيره، وهو الخليفة وواجبه دفع الضرر عن الرعية، فلما أخبره العباس أن الميزاب قد وضعه النبي ﷺ بيده الشريفة في هذا الموضع، أبى إلا أن يحملَ العباس على ظهره ليقومَ بوضعه من جديد، أي حُبٍّ هذا، وأي رجوع إلى الحق، وأي تواضع، وأي امتثال؟!

لقد وضعَ النبيُّ ﷺ ما هو أثمن وأغلى من ميزابٍ فهل حافظنا على ما وضعه؟!

لقد وضع بِرَّ الآباء والأمهات وأرساه، فهل بررنا آباءنا وأمهاتنا، أم عققناهم فنزعنا بأيدينا ما وضعَ بيده؟!

لقد وضع الإحسان إلى الزوجة وأرساه، فهل أحسنا إلى زوجاتنا، أم أسأنا إليهنَّ، وأسمعناهُنَّ من الكلام ما يجرح، ومن التصرفات ما يهين، ومن العنف ما يفطر القلب، فنزعنا بأيدينا ما وضع بيده؟!

لقد وضع الإحسان إلى الجار وأرساه، فهل أحسنَّا إلى جيراننا، أم آذيناهم بما يؤذي به الإنسان جاره، تارةً بالصوت المرتفع، وتارةً بغيبتهم، ومرةً بتتبع عوراتهم، وأخرى بإتلاف ممتلكاتهم، فنزعنا بأيدينا ما وضعَ بيده؟!

لقد وضع صلة الرَّحم وأرساها، فهل وصلنا أرحامنا، أم خاصمناهم لأجل تافهٍ من توافه الدنيا، فلا الأخ يطرق باب أخته، ولا الأختُ تعرفُ بيت أخيها، العم مهجور، والخال لا يُسأل عنه إلا من العيد إلى العيد هذا إن سُئل عنه، فنزعنا بأيدينا ما وضع بيده؟!

ما أحنى عمر بن الخطاب ظهره ليصعد عليه العباس ليركِّب الميزاب مكانه إلا حُباً للنبي صلى الله عليه وسلم، الحُبُّ امتثال واقتداء والتزام، فإن أحببتَ نبيّكَ فلا تنزع ما وضعه، وإن نزعتَ فاحنِ ظهركَ إحناء عمر ظهره، وأعِد الأشياء بسرعةٍ إلى مكانها!

إنما بُعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق!

قال النبيُّ ﷺ لأصحابه: إنما بُعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق!

وهذا الحديث من أروع ما قيل في الإنصاف، فبرغم أن النبيَّ ﷺ جاء لهدم الجاهلية بمعول الإسلام، إلا أنه يُشيد بما كان للعرب من أخلاق حسنة وإن كانوا قوم جاهلية!

قالت العربُ قديماً: الإنصاف عزيز!

هذا لأنها تعرفُ أنه على المرءِ أن يتجرَّد من هواه، ويضع الحق نصب عينيه ليكون مُنصفاً!

سأل الإمام أحمد بعض تلاميذه: من أين أقبلتم؟

فقالوا: من مجلس أبي كُريب.

فقال: اكتبوا عنه فإنه شيخ صالح.

فقالوا: إنه يطعن فيك!

قال: فأي شيءٍ حيلتي، شيخ صالح قد بُلي بي!

وذكرَ أبو نعيمٍ الحافظ ابن مندة، فقال: كان جبلاً من الجبال.

وقد كان بينهما وحشة شديدة وخلاف!

وسُئل عليٌّ بن المديني عن رجالٍ من أهل الحديث فأجاب، ثم سُئلَ عن أبيه، فقال: اسألوا غيري!

فقالوا: قد سألناكَ أنتَ!

فأطرقَ رأسه ثم رفعه وقال: هذا هو الدين أبي ضعيف الحديث!

وقال أبو داود، جاء رجل إلى الإمام أحمد فقال: أتكتب عن محمد بن منصور الطوسي؟

فقال: إذا لم نكتب عن محمد بن منصور فعمنَّ نكتب؟

فقالوا: إنه يتكلم فيك!

فقال: رجل صالح ابتليَ بنا!

إنَّ من شيم النبلاء الإنصاف، مهما كان بينهم وبين خصومهم جفاء، قد يكون عدوَّك كريماً، وقد يكون باراً بأمه، وقد يكون صادقاً لا يكذب، وإن من اللؤم أن تتغاضى عن صفاته هذه لأجل الخصومة.

لا يقدح في الإيمان أن نعترف أن الغرب سبقونا في هذا العصر بالعلوم والتكنلوجيا على العكس تماماً نعترف لهم بهذا، ونأخذ منهم ما ينفعنا ونترك ما عداه.

ولله درُّ أبي العتاهية حين قال:

إذا اتَّضَحَ الصَّوابُ فلا تَدْعُهُ

فـإنّكَ قلّما ذُقـتَ الصّـوابَـا

وَجَدْتَ لَهُ على اللّهَواتِ بَرْداً،

كَبَرْدِ الماءِ حِينَ صَفَا وطَابَا

قُلْ إن شاء الله!

كان من عادة النبيِّ ﷺ أن يُحدِّثَ أصحابه عن أخبار إخوته الذين سبقوه من الأنبياء، فحدَّثهم يوماً أن سُليمان عليه السَّلام قال: لأطوفنَّ الليلة بمئة امرأة، تلدُ كلُّ امرأةٍ غلاماً يُقاتل في سبيل الله!

فقال له المَلَكُ: قُلْ إن شاءَ الله!

فلم يقُلْ، ونسيَ، فطافَ على مئة امرأة، ولم تلد منهنَّ إلا امرأة واحدة نصف إنسان!

فقال النبيُّ ﷺ معقباً على القصة: لو قال إن شاء الله لم يحنثْ، وكان أرجى لحاجته!

وعن قول إن شاء الله، حدَّثَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم أصحابه يوماً عن يأجوج ومأجوج فقال: إن يأجوج ومأجوج يحفرون كل يوم، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم: ارجعوا فسنحفره غداً!

فيعيده الله أشدّ ما كان، حتى إذا بلغت مدَّتهم، وأراد الله أن يبعثهم على الناس، حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غداً إن شاء الله!

فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه، فيحفرونه ويخرجون على الناس!

علِّقْ أموركَ بمشيئة الله فهذا أدعى أن يتممها اللهُ لكَ!

هذا سُليمان عليه السَّلام لم يقُلْ إن شاء الله حين أراد أن يطوف على مئة امرأةٍ له، لتنجب كل واحدة فارساً يقاتل في سبيل الله، إلا امرأة ولدتْ نصف إنسان، ولو قال إن شاء الله لكان له ما أراد، ولكن نسيَ أن يقول ليمضيَ قدر الله تعالى، ونتعلم نحن الدرس!

وهؤلاء يأجوج ومأجوج سجناء خلف السَّد الذي أقامه ذو القرنين، وهم يحفرون كل يوم، حتى إذا كادوا أن يخرجوا تعبوا، وقالوا: غداً نكمل، فيرجعون في الغد فإذا السد أقوى مما كان، فإذا شاء الله أن يخرجهم، هداهم أن يقولوا إن شاء الله، فإذا قالوها خرجوا على الناس!

اجعَلْ إن شاء الله سيفكَ الذي تستعين به على قطع حوائجك،

وعكازك الذي تتكئ عليه لبلوغ مآربك،

فمن سلَّم لله بالمشيئة أعطاه الله ما شاء بإذنه،

ومن أغنى نفسه بنفسه استغنى الله عنه،

ولم يُصِبْ من أمره إلا ما قدَّر الله له أن يُصيب!

إنَّ بالمدينة لرجالاً!

كانتْ غزوة تبوكٍ علامة فارقة بين غزوات النبيِّ ﷺ، فهي الغزوة الأبعد مسافة، والأحرُّ طقساً، والأكثر فاقة، فقد وافقت المسلمين شِدةٌ، ولم يكن عند النبيِّ ﷺ ما يُجهِّزُ به الجيش، لهذا عُرف هذا الجيش في كُتب السيرة بجيش العُسرة!

وكان فقراء الصحابة إذا أخبرهم النبي ﷺ أنه لا يجد ما يجهزهم به للخروج ذرفوا الدَّمع حزناً! وفي هذا يقول ربنا في محكم التنزيل ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾

ثم إن أغنياء الصحابة جهزوا ما استطاعوا من فقراء المسلمين للخروج، وبقيَ البعضُ في المدينة إما لفقرٍ أو مرض، ولما كان النبيّ صلى الله عليه وسلم في طريق عودته إلى المدينة من تبوك قال للصحابة: «إنَّ بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيراً، ولا قطعتم وادياً إلا شركوكم في الأجر حبسهم العُذر!»

إِنْوِ الخير على أيةِ حالٍ كنتَ، وإذا علمَ اللهُ صدقَ نيتك فسيعطيك مثل ما أعطى العاملين من أجرٍ!

إذا جُمع مالٌ لمريضٍ ولم تجد ما تُنفق تضرَّعْ إلى الله، وأرِهِ في قلبك انكساراً أنك لو استطعت أن تُساهم لفعلتَ، وإذا علمَ اللهُ صدقَ قلبك، فأبشِرْ بأجرِ المنفقين وإن لم تُنفِقْ!

إذا حبسكَ المرضُ عن صلاة الجماعة التي كنتَ تأتيها حال صحتك، فاعرِضْ ضعفكَ على ربِّكَ، وقُلْ له: يا ربِّ إني ما تركتُ «حيَّ على الصلاة» إلا عجزاً وضعفاً، أنتَ أعلم بي مني، ولو كنتُ صحيحاً لأجبتُ، وأبشِرْ بأجر المشائين إلى المساجد!

ولكن إياك إذا تغيَّر الحال، وتحسنت الظروف، وعادت الصحة، وأقبل الغِنى، أن لا تُترجم قولكَ القديم فعلاً، وانكسارك الماضي عملاً!

خُذْ بأسباب الخير ما استطعتَ، فإن لم تبلغ الأجر بالعمل فقد بلغته بالنيَّة!

روى الإمام تاج الدين السُّبكي في رائعته طبقات الشافعية الكبرى فقال:
كان البويطي وهو في السجن في كل جمعة يغسِلُ ثيابه، ويغتسل، ويتطيب، ثم إذا سمعَ الأذان مشى إلى باب السجن!

فيقول له السَّجان: إلى أين؟

فيقول: أجيبُ داعيَ الله!

فيقول السَّجان: اِرجعْ يرحمكَ الله!

فيرفع يديه ويقول: اللهمَّ إني أجبتُ داعيكَ فمنعوني!

وما أجمل قول الشافعي: إذا كنتَ في الطريق إلى الله فاركضْ،

فإن صعُبَ عليكَ فهروِلْ،

وإن تعبتَ فامشِ،

وإن لم تستطع كل هذا فسِرْ ولو حبواً، ولكن إياك والرجوع!

لأقولَنَّ شيئاً أُضحك النبي صلى الله عليه وسلم

جاء أبو بكر يستأذِنُ على النبي صلى الله عليه وسلم، فوجدَ النَّاس جلوساً ببابه لم يُؤذن لأحدٍ منهم، ولكن لما طلبَ أبو بكرٍ الدخول أذِنَ له النبي صلى الله عليه وسلم

فدخلَ، ثم جاءَ عمر بن الخطاب فاستأذن بالدخول فأذِنَ له النبيُّ ﷺ، فوجدَ عُمر النبيَّ ﷺ جالساً حوله نساؤه، واجماً ساكتاً!

فقال: لأقولنَّ شيئاً أُضحك النبي ﷺ.

فقال: يا رسول الله، لو رأيتَ بنتَ خارجة يعني زوجته، سألتني النفقة، فقمتُ إليها فوجأتُ عنقها!

فضحك النبيُّ ﷺ، وقال: هُنَّ حولي كما ترى يسألنني النفقة!

فقام أبو بكر إلى عائشة يدفعها ويؤنبها، وقام عمر إلى حفصة يدفعها ويؤنبها.

وكلاهما يقول: تسألنَ رسول الله ﷺ ما ليسَ عنده؟

فقُلنَ واللهِ لا نسأله بعد اليوم شيئاً عنده.

قصة عظيمة من قصص الحياة، وصفحة مشرقة من صفحات السيرة، ودروس بليغة من دروس الدهر!

لم يأذن النبي ﷺ بدخول الناس عليه لأنه ليس في مزاجٍ يسمحُ له برؤية الناس، فهل قدَّرنا نحن أن المرءُ يحتاجُ أحياناً وقتاً مع نفسه يستريحُ به من وعثاءِ الحياة! ولكنه أذِنَ لأبي بكر وعمر لأن المشكلة كانت مشكلة عائلية، وكلاهما حميً له، فأبو بكر والد عائشة، وعمر والد حفصة، وهذا

درس بليغ أن لا يجعل أحدنا مشاكل بيته مشاعاً للناس، لا بأس بأن يطلع أهل الزوجة والزوج فقط، وحبذا لو بقيتْ بين الزوجين فهذا أفضل، ولكن من سُنن الحياة في الزواج أن الأمور تخرجُ أحياناً عن السيطرة!

لم يهُنْ على عمر بن الخطاب هذا الحزن الذي رآه على وجه النبيِّ صلى الله عليه وسلم فأراد أن يضحكه، فأخبره طرفةً هي من نوع المشكلة الراهنة، أي طلب أمهات المؤمنين النفقة من النبي صلى الله عليه وسلم ولم يكن وقتها يملكُ مالاً، ومن فقه التسلية عن الناس في المشاكل أن تخبرهم أن كل البيوت تقع فيها الخلافات، ويُقال للزوج كل الزوجات كذلك، وللزوجة كل الأزواج كذلك، وما أنتم إلا جزء من الناس، فالتسلية عن المكدَّر والحزين من جبر الخواطر، وجبر الخواطر عبادة!

لم يرضَ أبو بكر وعمر أن تطلب ابنتاهما نفقةً ليست عند النبي صلى الله عليه وسلم وهذا نُبل الآباء، فإذا عرفَ الأهل وضع الزوج وقلة ذات يده يجب عليهم أن يأخذوا على يد ابنتهم، وأن تعيش بما قسم الله لها، لأن كثرة الطلبات من زوج لا يجد مالاً كثيراً يُثقل كاهله، ويشعره بالعجز، وهو مدعاة للنفور بين الزوجين، وخراب الأسرة، فترفقوا!

اسِقِ حديقة فلان!

حدَّثَ النبيّ ﷺ أصحابه يوماً فقال:

بينما رجلٌ بفلاةٍ من الأرض إذ سمعَ صوتاً في سحابة يقول: اسقِ حديقة فلان!

فغيَّر السَّحابُ سيره، وأفرغ ماءه في قطعة أرضٍ استوعبتْ ذلك الماء كله!

فتتبعَ ذلك الرجل الماء، فإذا هو في قطعة أرضٍ فيها رجل يحول الماء بمسحاته/ أداة زراعية كالمجرفة.

فقال له: يا عبد الله ما اسمك؟

فقال: فلان، الاسم الذي سمعه في السحابة، ثم سأله: يا عبد الله لِمَ تسألني عن اسمي؟

فقال: إني سمعتُ صوتاً في السَّحاب هذا ماؤه يقول: اسقِ حديقة فلان- لاسمكَ- فما تصنعُ فيها؟

فقال: إني أنظرُ إلى ما يخرجُ منها فأتصدَّق بثلثه، وآكل أنا وعيالي ثلثاً، وأردُّ فيها ثلثه/ أي أشتري البذور والسماد وما تحتاجه الأرض.

هذه هي الشهرة الحقيقية: أن يكون المرءُ معروفاً في السماء! فكم من مجهولٍ في الأرض لا يُلتفتُ إليه، ولا يُأبه به، وهو في السماء معروف!

الشهرة الحقيقية أن يحبك الله فينادي: يا جبريل إني أحبُّ فلاناً فأحبه، فينادي جبريل في الملائكة: إنَّ الله يُحِبُّ فلاناً فأحبوه!

الشهرة الحقيقية أن ترفع يديكَ لتدعو فتقول الملائكة: يا رب صوت معروف من عبد معروف!

الشهرة الحقيقية أن ينزل بكَ البلاء فتضجَّ الملائكة لهذا وتدعوا لكَ، وتستنفر عن آخرها لأنك صالح كما ضجَّتْ يوم أرادوا أن يلقوا إبراهيم عليه السلام في النار!

الشهرة الحقيقية أن ينظر الله تعالى إلى قلبك فيرى أنك لا تريد سواه فيكتبك عنده من عباده المقربين!

الشهرة الحقيقية أن يرضى الله عنكَ، ويسخركَ لعبادته، ويفتح لكَ أبواب الطاعة باباً بعد باب، فإنه إذا أحبَّ عبده دلَّه عليه!

الشهرة الحقيقية أن يعرفكَ المساكين بأنك الذي تُطعم، وأن يعرفكَ المكسورون بأنكَ الذي تجبر الخواطر، ويعرفك المعسورون بأنكَ الذي تساعد!

الشهرة الحقيقية أن تعرفكَ الطريق إلى المسجد، ويحفظ المصحف يديكَ وأثر أصابعكَ عليه، وأن يحنَّ إليكَ موضع سجودك إذا غبتَ عنه!

كل ما عدا ذلك شهرة فارغة، ومتاع غرور زائف، الأمر ليس بكثرة المتابعين، ولا عدد الإعجابات، والمشاركات، والمشاهدات، هذه ليست إلا زخارف!

إنَّ الحياء من الإيمان!

مرَّ النبيُّ ﷺ على رجلٍ من الأنصار وهو يعظُ أخاه في الحياء، أي أنه كان يطلبُ منه أن لا يكون كثير الحياء.

فقال له النبيُّ ﷺ: دعه فإن الحياء لا يأتي إلا بخير!

يخلطُ كثير من الناس بين الحياء والخجل ويعتبرونهما بمعنىً واحد، والحقيقة أن بينهما كما بين السماء والأرض من مسافة!

فالحياء خُلق محمود، والخجل خُلق مذموم في أبسط وجوهه، ومرض نفسي، وضعف شخصية في أسوأ وجوهه!

الحياءُ خلقٌ رفيع ناتجٌ عن صلابة في الدين حيث يستحي المرءُ من نظر الله إليه، وأجمل ما قيل فيه: ليس الحياء في خفض الرأس ولا احمرار الوجه، وإنما الحياء أن لا يجدكَ الله حيثُ نهاكَ، ولا يفقدكَ حيثُ أمركَ!

وكذلك ينتج الحياء عن رقة في القلب، وعذوبة في الطبع بحيث يمنع صاحبه من الإساءة إلى الناس ولو بكلمة، فتراه يتذوق كلماته أولاً، ويختارها بدقة خشيةَ أن تجرح أحداً، وكذلك يمنعه الحياء من التقصير بواجباته تجاه الآخرين.

والحياء من خُلق الأنبياء، وفي حديث أبي سعيد الخدري: كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم أشدَّ حياءً من العذراء في خدرها، وكان إذا كره شيئاً عُرِفَ ذلكَ في وجهه!

وهو من صفات الله سبحانه، ففي الحديث: إن ربكم حييٌّ كريم، يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه بدعوة أن يردهما صفراً ليس فيهما شيء!

والحياء من أخلاق الملائكة، فقد قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم عن عثمان بن عفان: ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة!

وهو من شُعب الإيمان، ففي الحديث: الحياء بضعٌ وسبعون شُعبة، والحياء شُعبة من الإيمان!

أما الخجل فهو خُلق مذموم، إذ يشعُر معه الإنسان بالدونية وعقدة النقص تجاه الآخرين، كذلك يشعرُ بالانطوائية لقلة ثقته بنفسه، ومن أقبح وجوهه السكوت عن طلب الإنسان حقه، أو الدفاع عنه، معتقداً بذلك أن هذا الحياء، ولكنه في الحقيقة هو الخجل والجُبن!

علينا أن نُفرِّق جيداً بين الحياء والخجل،

فنثني على الحياء ونشجعه،

ونعالجْ الخجل ونقضي عليه،

وكم من طفل صغير عانى من الخجل ففرح به أبواه،

واعتقدوا أنَّ الولد مؤدب فوق اللزوم بينما هو يعاني من مرض خطير سيدمر حياته حين يكبر!

لما عشنا متنا

كان القاضي عبد الوهاب إمام أهل بغداد في زمانه، ولكنه كان فقيراً جداً لا يجدُ قوت يومه، فعزمَ على الخروج من بغداد إلى مصر علَّ الله

يجعل له هناك مخرجاً من ضيق رزقه، فحزمَ متاعه وخرجَ، وعندما صار على مشارف بغداد مرَّ على مكان فيه شجر، وكان هناك حطابان يقطعان الشجر ليبيعاه حطباً للناس، فقال أحد الحطابين لصاحبه: كيف يقولُ عبد الله بن عبَّاس بالاستثناء المنقطع في اليمين ولو بعد مرور سنة، والله سبحانه يقول عن أيوب عليه السلام لما مرضَ، وضاقَ صدره، وأقسمَ أن يجلد زوجته مئة جلدة، فلما شفيَ وأراد أن يبرَّ بدينه، أوحى الله إليه أن يأخذ مائة عودٍ ويضربها ضربة واحدة وقال سبحانه: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾

فقال القاضي عبد الوهاب: مدينة يُناقش حطابوها ابن عبَّاسٍ في القرآن واللهِ لا يُخرجُ منها!

فعادَ إلى بيته، ولكن بقيت حاله على ما هيَ عليه فقرر الخروج مرةً أخرى، فتبعه الناس يحاولون أن يثنوه، فالتفتَ إليهم وقال: يا أهل بغداد لو وجدتُ منكم كل يوم رغيفاً ما تركتكم!

فلم يتكفل أحد منهم له برغيف!

فلما وصل إلى مصر، أكرمه سلطانها وأهلها، وعرفوا قيمته، وفُتحتْ له الدنيا، وصار المال في يده كثيراً، ومرضَ مرضاً شديداً ماتَ فيه، فقال وهو على فراش الموت: لما عشنا متنا!

تضيقُ الدنيا بالصالحين كما تضيقُ بالطالحين، وقد افتقرَ كثيرٌ من العلماء والفقهاء، ولا غرابة وقد كان يمرُّ الشهر والشهران ولا يوقدُ في بيت النبيِّ ﷺ نار لطعام، فلم يكن لهم ما يبقيهم على قيد الحياة إلا التمر والماء!

كان الخليل بن أحمد الفراهيدي لا يملكُ إلا ثوبه وحذاءه وطلابه يجنون من علمه الذي علمهم إياه الدنانير بالآلاف!

وكان أبو عمرو بن العلاء إمام النحو في زمانه لا يجد قوت عياله!

وكان البخاري إمام الدنيا كلها وهو في فقر شديد!

ومن قبل كان حذيفة بن اليمان وأبو هريرة من أهل الصُّفة ينتظرون ما يجود به الأكارم ليسدوا جوعهم!

وقد قرأتُ كثيراً في سير العلماء والفقهاء فما وجدتُ واحداً منهم فاحش الثراء إلا الليث بن سعد! أما البقية فكانوا بين فقر شديد وتوسط في الحال، اللهمَّ إلا أولئك الذين تولوا مناصب رسمية في الدولة فكانت رواتبهم عالية، كالكسائي وأبو يوسف القاضي، وإلا فهؤلاء أيضاً جاؤوا من بيئة فقيرة!

هذا لنعلم أن الدنيا ليست معياراً للتفاضل بين الناس، ولا أحد منا يعلم اسم أغنى رجلٍ في زمن البخاري ولكننا جميعاً نعلمُ من هو البخاري!

لم ينسَ ذلك لك!

قال النبيُّ ﷺ لكعب بن مالك: أنتَ الذي قُلتَ:

زعَمتْ سخينةُ أن ستغلِبُ ربَّها

ولَـيُغْلَـبَنَّ مُغـالِبُ الغَـلاَّبِ

فقال كعب: نعم يا رسول الله

فقال له: أما إنَّ اللهَ لم ينسَ ذلكَ لكَ!

وفي كواليس القصة أنَّ ابن الزِّبعرَى هجا المسلمين وامتدحَ الأحزابَ في غزوة الخندق، فردَّ عليه حسَّان بن ثابت وكعب بن مالك.

فقال النبيُّ ﷺ عن هذا البيت من أبيات كعب: أما إنَّ الله لم ينسَ ذلكَ لكَ!

وفي رواية أُخرى: شكرَ اللهُ قولكَ

ومعنى البيت: أنَّ سخينة وهو لقب لقريش، بارزتْ ربَّها بالكفر والعناد، وحاربت الله ورسوله والمؤمنين، وسيُغلبُ حتماً من يُغالب الله ويُحاربه!

إنَّ هذا الدين ثُغور شتىً، فلينظر كل واحدٍ منا على أي ثغرٍ جعله الله مُستخلفاً وليحفظه جيداً، وليسده بلحمه ودمه، فهذا هو سبيله إلى الجنة!

كان كعب بن مالك موهوباً في الشِّعر، فدافع عن هذا الدين بقوافيه، لأن المعركة كانت في الشعر، والسجال كان إعلامياً، شاعر قريش ابن الزبعرى يهجو المسلمين ودعوتهم، وكعبٌ يردُّ عليه، وقد قال بيتاً لقيَ عند جبار السماوات والأرض قبولاً!

بيت شعر واحدٍ حاز به كعب بن مالك رضى الملك الجبار!

فاعملْ ولا تستصغر، احمِ ثغركَ، ولا يُؤتينَّ الإسلام من قِبلكَ، ففي هذا بإذن الله منجاتك

لا تقولي أنا ربة منزل ماذا سأفعل للإسلام، يرحمكِ الله، وهل يخرجُ أبطال الإسلام إلا من حجور الأمهات المربيات المخلصات الواعيات؟!

لا تقُلْ أنا مُدرِّس ماذا سأفعل للإسلام والمعركة شرسة عليه، رحمكَ الله، وهل جنود الإسلام في الغد إلا هؤلاء الصبية الصغار الذين هم بين يديكَ اليوم؟!

إنكَ لا تعرفُ بأي نُصرةٍ للدين تدخل الجنة، ربما ببيت شعر. أو منشور في مواقع التواصل، أو نصيحة لحيران، أو صدقة لمحتاج، إنَّ الله تعالى قريب الرِّضى، يغفر بما لا يخطر للإنسان على بال!

روى أهل الأخبار أن سيبويه بعد أن ماتَ رآه أحد تلاميذه في المنام، فقال له: ما فعلَ اللهُ بكَ؟

فقال: غفر اللهُ لي بقولي: اللهُ عَلَمٌ لا يحتاجُ إلى تعريف!

ورُئِيَ الخليل بن أحمد الفراهيدي في المنام بعد موته، فقيل له: ما فعلَ اللهُ بكَ؟

فقال: غفرَ لي بعجوزٍ علمتها الفاتحة!

لقد شهدت مع عمومتي حلفًا!

يقول النبيُّ ﷺ عن فترة شبابه في مكة:

لقد شهدتُ مع عمومتي حلفاً في دار عبد الله بن جدعان، ما أحِبُّ أنَّ لي به حُمرُ النَّعم!

والحِلفُ الذي يقصده النبيُّ ﷺ هو حِلفُ الفضول، أما قصته فهي كما يلي:

جاءَ رجل من قبيلة زبيد من اليمن إلى مكة ببضاعةٍ يريدُ أن يبيعها، فاشتراها منه العاص بن وائل، ولم يدفع له ما اتفقا عليه من مال، فاشتكاه

الرجل إلى سادة قريش فلم يعينوه لمكانة العاص بن وائل وأنه من أشراف مكة وسادتها، فوقف الزبيديُّ على جبل أبي قبيس وأنشد قائلاً:

يَا آلَ فِهْرٍ لِمَظْلُومٍ بِضَاعَتُهُ

بِبَطْنِ مَكَّةَ نَائِي الدَّارِ وَالنَّفَرِ

وَمُحْرِمٍ أَشْعَثٍ لَمْ يَقْضِ عُمْرَتَهُ

يَا لَلرِّجَالِ وَبَيْنَ الْحِجْرِ وَالْحَجَرِ

إِنَّ الْحَرَامَ لِمَنْ مَاتَتْ كَرَامَتُهُ

وَلاَ حَرَامَ لِثَوْبِ الفَاجِرِ الغُدَرِ

فكان أول من سمع هذه الشكوى الزُّبير بن عبد المطلب أحد أعمام النبي صلى الله عليه وسلم الذين ماتوا قبل البعثة الشريفة، فقال: ما لهذا من متركٍ! أي من العيب أن يُترَكَ ولا يُنصر!

فجمعَ الناس في بيت عبد الله بن جدعان، وعقدوا حلفَ الفضول، وتعاهدوا ألا يتركوا مظلوماً في مكة حتى يعيدوا حقَّه إليه، وقاموا إلى العاص بن وائل وأجبروه على أن يدفع للرجل حقَّه!

لهذا قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم فيما بعد عن حلف الفضول: لو أني دعيتُ إلى مثله في الإسلام لأجبتُ! بمعنى لو أن جماعة من غير المسلمين طلبوا منه أن يعاونهم في إغاثة ملهوف، أو نصرة مظلوم، لما تردد في القبول!

القصة تُريكَ بجلاء أن للعرب في الجاهلية أخلاقا رفيعة، أثنى عليها الإسلام، فالإسلام العظيم لم يهدم من الجاهلية إلا عقيدة الشرك في العبادة، والربا في المعاملات، والسفاح والوأد وكل ما خالف الفطرة والأخلاق، أما ما كان عليه القوم من أخلاق رفيعة فأقرَّها، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: إنما بُعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق!

أي أن القوم كان فيهم أخلاق حميدة، وهذا من عدل النبوة، فلا يقدح في إيمان المؤمن أن يعترف بالخصال الحميدة لمن خالفوه في الدين، على العكس هذا من العدل الذي أمرنا به!

النخوة ومكارم الأخلاق أرستها الأديان السماوية،

وحرصَ عليها الأنبياء،

ولكن ليس من المستبعد أن تجد في غير المسلم نخوةً وأخلاقاً،

لأنَّ هذا من الفطرة السليمة التي فطرَ الله تعالى الناس عليها،

المستغرب حقاً أن تجد مسلماً بلا أخلاقٍ ونخوة!

طوبى لهاتين العينين!

يقول جُبير بن نُفير: جلسنا إلى المقداد بن الأسود يوماً، فمرَّ رجلٌ فقال له: طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا النبيَّ صلى الله عليه وسلم، واللهِ لودننا أنَّا رأينا ما رأيتَ، وشهدنا ما شهدتَ!

فغضبَ المقداد غضباً شديداً، ثم قال: ما يحملُ الرَّجل على أن يتمنى محضراً غيَّبه الله عنه، لا يدري لو شهده كيف يكون حاله، واللهِ لقد حضرَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أقوام أكبهم الله في النار، لم يجيبوه ولم يصدقوه، ألا تَحمدون الله إذ أخرجكم تعرفون ربكم، مصدقين لما جاء به نبيكم، قد كُفيتم البلاء بغيركم؟

واللهِ لقد بُعثَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم على أشدِّ حالٍ بُعثَ عليها نبيٌّ من الأنبياء، فترةَ جاهلية، ما يرون ديناً أفضل من عبادة الأوثان، فجاء بفُرقانٍ فرَّقَ بين الحق والباطل، وفرَّقَ بين الوالد وولده، حتى إنْ كان الرجل ليرى ولده أو والده أو أخاه كافراً وقد فتحَ الله قُفْلَ قلبه للإيمان، يعلمُ أنه إن هلكَ على هذه الحال دخلَ النار!

كُلنا نتمنى لو أننا رأينا النبيَّ ﷺ، لندافع عنه يوم آذته قريش في نفسه ودينه، ولنصد عنه الحجارة يوم رجموه في الطائف، ولنكون له حرساً ورفيقاً يوم هجرته، ولنزود عنه في أُحدٍ فلا يسيل دمه الشريف كما سال، ولنأكل عنه كتف الشاة المسمومة التي قدمتها إليه امرأة من يهود، وهذه أُمنية لا شيء فيها، نابعة من الإيمان، ومن محبته ﷺ، ولكن على الإنسان أن يعرفَ أن الله سبحانه وتعالى قد خلقه في زمنٍ هو أنفع له، وإنها لنعمة حقاً أننا وُلدنا مسلمين، فتحنا أعيننا على الدنيا يُعلمنا أهلنا التوحيد، ويحفظوننا الفاتحة، ويدربونا على الصلاة والصيام، حتى إذا كبرنا وجدنا الإسلام قد اختلطَ بلحمنا وعظمنا، وهو أغلى شيءٍ عندنا!

وما أدراكم لو أنَّ أحدنا قد وُلد في قريش، فرباه أبواه على عبادة الأصنام، وعلى تقديس هُبل واللات ومناة، فنشأ شارباً للخمر، آكلاً للربا، وائداً للبنات، حتى صارتْ هذه منظومة قيمه، وسيرة عمره، ثم سمع أن رجلاً قد بُعثَ يهجو الأصنام، ويدعو إلى عبادة رب واحدٍ لا يُرى، لربما كان وقتها أحد الصناديد الكافرة التي استماتت تُدافع عن الدين الذي تعتقد أنه الحق!

احمدوا الله أن الإسلام وصلنا على طبقٍ من السهولة،

بلا دفع ولا مجاهدة،

بلا مغالبة أبوين كما حصل مع سعد بن أبي وقاص،

وبلا مراودة عن مالٍ كما حصل مع صهيبٍ الرومي،

فتلك واللهِ امتحانات صعبة، واختبارات عسيرة قد سقط فيها كثيرٌ من الناس!

وما أفقه الأعرابي الذي قيل له أتحسنُ أن تدعو؟

فقال: نعم.

فقيل له: ادعُ لنا.

فقال: اللهم إنكَ أعطيتنا الإسلام دون أن نسألكَ، فلا تحرمنا الجنّة ونحن نسألك!

فحجَّ آدمُ موسى!

ما أمتعَ أحاديث الغيب حين يرويها النبيُّ صلى الله عليه وسلم، وعن الغيبِ الذي لم يكن لنا أن ندري به لولا أن كانتْ جلسةً من جلسات النُّبوة، والصحابة حوله يستضيئون به، فقال:

احتَجَّ آدمُ وموسى عند ربهما، فحجَّ آدمُ موسى!

قال موسى: أنتَ الذي خلقكَ اللهُ بيده، ونفخَ فيك من روحه، وأسجدَ لكَ ملائكته، وأسكنكَ جنَّته، ثم أهبطتَ الناس إلى الأرض بخطيئتك؟!

فقال آدمُ: أنتَ موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيءٍ، وقَرَّبكَ نجياً، فبكم وجدتَ اللهَ قد كتبَ التوراة قبل أن أُخلق؟

قال موسى: بأربعين عاماً.

قال آدمُ: فهل وجدتَ فيها: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فغوى﴾

قال: نعم.

فقال آدم: أفتلومني على أن عملتُ عملاً كتبَ اللهُ عليَّ أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟

فقال النبيُّ ﷺ: فحجَّ آدمُ موسى!

انظروا لحوار النبلاء كيف يكون، آدم وموسى عليهما السلام يختصمان في أهم قضية في الوجود «قضية الجنة»، وكلاهما يعرفُ فضل الآخر، فلا لومُ موسى لآدم أنساه فضل آدم، ولا دفاع آدم عن نفسه أنساه فضل موسى!

فاحفظوا للناس مكانتهم ولو اختلفتم معهم!

لا تمحوا تاريخاً مشرقاً لشخص بموقف واحد، الكريمُ إذا منعَ مرةً لا يُنسى كرمه السابق، والحليم إذا غضبَ مرةً لا يُنسى له حلمه السابق، وإنما كما قالت العرب: لكل جواد كبوة!

كتبَ اللهُ سبحانه كل شيءٍ في اللوح المحفوظ، وكل ما كتبه كائن لا محالة، وأما أفعال الناس التي كتبها الله بعلمه المطلق لا يُسقط كتابتها مسؤوليتهم عنها، فلا نُنزل هذه الحادثة على كل فعل، وإلا لانتفى مفهوم الثواب والعقاب، ولاتهمنا الله سبحانه بالظلم دون أن ندري، فكيف يحاسب الله الناس على أفعالٍ قد كتبها عليهم فعملوها؟!

والجواب على هذا أن علم الله سبحانه مطلق لا يساوره خطأ، ولتقريب الفكرة نأخذ هذا المثل: رزقكَ اللهُ ولداً وربيته تحت ناظريك لسنوات طويلة، فأنتَ تعرف طبعه وأخلاقه ونفسيته، ثم لما عرفتَ كل هذا تنبأتَ أنه سيسرق، وقد تصدق نبوءتك وقد تخيب، فإن صدقتْ فهل تكون قد أجبرته على السرقة، أم أنَّ كل ما في الأمر أنكَ قدَّرتَ الأمور بناءً على ما تعرف، فأصبتَ؟!

وهذا كذاك، مع فارقٍ مهم يجب أن لا يغيب عن بالنا وهو أن علمنا محدود قائم على الحدس والتقدير، وعلم الله مطلق، والناس ليس لهم أن يحتجوا بقدر الله على أفعالهم طالما أنهم أحرار في أن يفعلوا أو لا يفعلوا!

ثم إننا لا نعرفُ قدر الله إلا حين يقع، وكون الإنسان قد قتلَ أو سرقَ فقد فعلَ قدر الله وهو غير مجبر عليه، وإلا ما بقي دين ولا كانت هناك غاية من إرسال الرسل، يعلمُ اللهُ أهل الجنة وأهل النار قبل خلقهم، ولكنه يُرسل إليهم الرُّسل ليمشوا في دروب أقدارهم مختارين!

من سلكَ طريقاً!

قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم يوماً لأصحابه مُرَغِّباً إياهم في طلب العلم: من سلكَ طريقاً يبتغي به علماً سلكَ اللهُ به طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضعُ أجنحتها رضاءً لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض، حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإنَّ العلماءِ ورثة الأنبياء، وإن الانبياءِ لم يُورِّثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورَّثوا العلم فمن أخذَ به فقد أخذ بحظٍ وافر!

ومن قصص طلب العلم الخالدة قصة إمام الأندلس «بقيُّ بن مخلد» ارتحلَ من قرطبة إلى المغرب، ثم من المغرب إلى بغداد مشياً على الأقدام ليأخذ الحديث عن الإمام أحمد، ولما وصل إلى بغداد وجد أن الواثق بالله العباسي قد غضبَ على الإمام أحمد غضباً شديداً لأنه لم يجاريه في بدعة

المعتزلة الشهيرة خلق القرآن! وقد فرضَ عليه إقامةً جبرية في منزله، ومنعه من صلاة الجمعة والجماعة، ومن تعليم الناس الحديث!

عندما علمَ بقيٌّ بن مخلد بهذا لم ييأس، وإنما ذهب إلى بيت الإمام أحمد وطرق عليه الباب، ولما فتح له الإمام، قال له: جئتكَ من بلادٍ بعيدة لآخذ عنكَ الحديث!

فقال له الإمام: من أين؟ من المغرب؟

فقال له: بل من قُرطبة!

فقال أحمد: إنها لبلاد بعيدة، ولكنك تعلمُ أن الخليفة قد منعني من الحديث!

فقال له بقيٌّ بن مخلد: نعمدُ للحيلة إذاً، آتيكَ كل يومٍ بلباس المتسولين، فأطرقُ عليكَ الباب، فتدخلني وتحدثني، ثم أحفظُ عنك!

فوافق الإمام أحمد، ولكنه اشترط عليه أن لا يظهر في مجالس الحديث خشية أن يُحدِّثَ بما سمعه منه فيفتضح أمرهما.

فقبل بقي بن مخلد بشرط الإمام أحمد، وهكذا صار كل يومٍ يأتي إليه بثياب رثة كثياب المتسولين، ويقرع الباب ويقول مسكين يسأل الصدقة، فيفتح له الإمام أحمد، ويصحبه إلى دهليز في الدار، حتى أتمَّ عليه الكتاب

المبارك مسند الإمام أحمد، ونفعه الله به، وعاد إلى الأندلس وكان شيخ العلماء فيها!

إنَّ في قصص الأوائل عجباً في طلب العلم، فقد كان البخاري يسافرُ من بلدٍ إلى بلدٍ طلباً لحديث واحد عن رجل واحد! وخرجَ الرازي طلباً للعلم مشياً على الأقدام، وعن رحلته هذه يقول: أول سنة خرجتُ في طلب الحديث أحصيتُ ما مشيتُ على قدميَّ فزادتْ على ألف فرسخ! والفرسخ أربعة كيلومترات!

والملاحظ اليوم فتور الهمم في طلب العلم،

يُقام شرح لصحيح البخاري في مدينة مجاورة فنستبعد المسافة،

وإذا أُغلقتْ دار التحفيظ في الحي رأينا المسافة إلى الحي الآخر شاسعة فقعدنا،

زهدنا في ميراث الأنبياء زهداً مخجلاً!مكتبة

هل لكَ من رسالة؟!

لما كان يوم اليرموك خرج المسلمون بأربعةٍ وعشرين ألفاً، وجاءتْ لهم الروم بمئةٍ وعشرين ألفاً! وأقبلوا بخطىً ثقيلة كأنهم الجبال تمشي، وسار

أمامهم الأساقفة والبطارقة والقساوسة يحملون الصلبان، ويتلون صلواتهم، والجيش كله يردد خلفهم ولهم هزيم كهزيم الرَّعد!

فلما رآهم المسلمون على هذه الحال هالهم كثرتهم، وخالطَ قلوبهم شيء من الخوف، ومن قبلُ أوجسَ في نفسه خيفة موسى!

عندها قام أبو عبيدة بن الجراح يحرِّضُ المسلمين على القتال، فقال: عباد اللهِ انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم، عباد الله اصبروا فإن الصبر منجاة من الكفر، ومرضاة للرب، ومدحضة للعار، وأشرعوا الرماح، واستتروا بالتروس، والزموا الصمت إلا من ذكر عزَّ وجلَّ في أنفسكم.

عند ذلكَ خرجَ رجلٌ من صفوف المسلمين، وقال لأبي عبيدة: إني أزمعتُ أن أقضيَ أمري الساعة، فهل لكَ من رسالةٍ تبعثها إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم ؟!

فقال له أبو عبيدة: نعم، تقرئه مني السَّلام، ومن المسلمين السلام، وتقولُ له: يا رسول الله إنَّا وجدنا ما وَعدنا ربُّنا حقاً!

فلما سمعَ سعيد بن عمرو بن زيد بن نُفيل حديث الرجل مع أبي عبيدة حتى اقتحمَ جيشَ الروم، وطعنَ أول فارسٍ أقبل على المسلمين، فلما رأى المسلمون هذا، ذهبت هيبة الروم من قلوبهم، وقاتلوا قتال بائع الدنيا ومشتري الجنة، وما زالوا كذلك حتى منَّ الله تعالى عليهم بالنصر!

موقف شخصي من رجل واحدٍ غيَّر نفسية جيشٍ بأكمله، رجلٌ لم تذكر كُتب السيرة اسمه، وما ضرَّه، يكفي أنَّ اللهَ يعرفه، قام عازماً على الشهادة، سائلاً أبا عبيدة إن كان عنده رسالة يبعثها معه إلى النبيِّ ﷺ! تشجع بسببه سعيد بن عمرو ومن خلفه جيشٌ قوامه أربعة وعشرين ألفاً هم خيرة أهل الأرض يومذاك، اللهمَّ إلا من كانوا وراءهم: العبقريّ عمر بن الخطاب، ومعه مجلس شورته من كبار الصحابة!

لا تستهنْ بنفسك، ولا تقُلْ أنا فرد وماذا سأصنعُ وحدي؟!

موقف ثباتٍ منك في ساعة حقٍّ تبتغي به وجه الله الكريم قد يُثبّتُ الله تعالى بسببه خلقاً كثيراً لكَ أجرهم!

وكلمة حقٍ تقولها لا تخشى في اللهِ لومة لائم قد تدلّ آلافاً على طريق الحق، ويكونون جميعاً في ميزانك!

أمة الإسلام قاطبة حفظ اللهُ تعالى لها دينها بثبات رجل واحد يوم فتنة خلق القرآن، ويا لحظك يا أحمد بن حنبل!

سيِّدُ القوم خادمهم

يقول يحيى بن أكثم: بتُّ ليلةً عند المأمون أميرُ المؤمنين، فاستيقظتُ في جوف الليل وأنا عطشان، فتقلبتُ، فقال لي: يا يحيى ما بك؟

فقلتُ: عطشان يا أمير المؤمنين.

فوثبَ على مرقده فجاءني بكوزٍ من ماء!

فقلتُ: يا أمير المؤمنين، ألا دعوتَ بخادمٍ، ألا دعوتَ بغلامٍ، يفعلُ هذا عنك؟!

فقال: لا، حدَّثني أبي عن أبيه عن جده، عن عقبة بن عامر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: سيِّد القوم خادمهم!

الحقُّ يُقال لو أنَّ شخصاً أراد أن يجمع كتاباً في أخلاق المأمون العباسي، ويعلق على القصص التي أوردها أهل السير والأخبار لألَّفَ كتاباً عظيماً، فالرجل كان دمث الأخلاق، كريم النفس، محباً للعلم والخير، إلا أنه وكما تقول جدتي رحمها الله: الزين ما يكمل! فقد عابَ هذا الزين أنه كان معتزلاً، وهو صاحب فتنة خلق القرآن، وسجن الإمام أحمد وجلده، فغفرَ اللهُ له، ورحمَ الجبلَ الشامخ أحمد بن حنبل!

والحديث سيِّد القوم خادمهم وإن كان فيه إنقطاع في السند، وضعفه علماء الحديث، إلا أن الحياة صححته، فلا يسود إلا من كان خادماً للناس!

إن قيمة الإنسان الحقيقية هي فيما يُعطي لا فيما يأخذ، وانظُرْ من حولكَ تجد أن كل الأشياء التي اكتسبتْ قيمةً في الطبيعة إنما اكتسبتها بالعطاء، فسبحان المعطي!

قيمة الشمس أنها تمنحُ الضوء والدفء، وقيمة الغيم أنه يمنحَ المطر، وقيمة الشجر أنه يمنحُ الثمر، حتى هذا النحل الصغير قيمته العظيمة أنه يعمل لغيره فيلقّح الزهر ويمنحُ العسل، والإنسان أولى من هذه الجمادات أن يكتسب قيمته بعطائه!

ما كانت مهنة الطب عظيمة إلا لأن فيها تخفيف آلام الناس،

والمحاماة ليست «برستيجاً» اجتماعياً وإنما قيمتها في رد المظالم والدفاع عن الحقوق وإلا صار المرءُ فيها محامياً للشيطان!

المنصب المرموق يبقى بهرجةً فارغة حتى يكون في خدمة الضعفاء،

عندها فقط، يستحقُّ صاحبه أن يكون سيداً!

نحن حين ننزل للضعفاء والمساكين فإننا في الحقيقة نرتفعُ لا ننزل،

وحين لا ننزلُ فنحن في الحقيقة ننحطُّ لا نرتفع!

ثمة بذل وعطاء نحن دونه لا نساوي شيئاً!

كُنْ أبا خيثمة!

سار النبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى تبوك في ظروف أصعب ما يكون فيها المسير، الحرُّ شديد، والصحراء لظى، والسفر بعيد، والدواب قليل، حتى أن الأربعة كانوا يتناوبون على البعير الواحد!

وتخلَّف في المدينة المنافقون، وبعض مؤمنين مشهود لهم بالإيمان كان منهم كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، وأبو خيثمة!

وبعد مسير النبيِّ صلى الله عليه وسلم بأيام، رجعَ أبو خيثمة إلى بستانه، فوجد فيه زوجتيه، كل واحدةٍ منهنَّ قد هيّأتْ له عريشاً ليجلس فيه، وطيبته، ووضعتْ له الفاكهة والماء البارد ولذيذ الطعام. فنظرَ في هذا المشهد المليء بالراحة والبهجة ثم قال: النبيُّ صلى الله عليه وسلم في الريح والحرِّ والشمس، وأنا في ظل بارد، وطعام مهيأ، وزوجاتٍ حِسان، ما هذا بالعدل، واللهِ لا أدخل عريش أي منكما، هيئا لي زاداً فإني أريد أن ألحق برسول الله صلى الله عليه وسلم!

ورحل أبو خيثمة يريدُ أن يواسي حبيبه بنفسه، فما أدركه إلا وقد وصل إلى تبوك وعسكر بالجيش، وهو قادم إليهم من بعيد رآه المسلمون ولكنهم لم يعرفوا هويته، فأخبروا النبيَّ صلى الله عليه وسلم بهذا القادم عليهم، فجعل يقول: كُنْ أبا خيثمة، كُنْ أبا خيثمة!

فلما وصل، قالوا: يا رسول الله هو واللهِ أبو خيثمة!

فأخبره أبو خيثمة بسبب لحاقه به، وكيف لم تطب نفسه أن يجلس في بستانه بين زوجتيه والنبيُّ ﷺ يُقاسي الحر والشمس.

فدعا له النبيُّ ﷺ بخير!

إلى هذا الحد كانوا يحبونه، لا تطيب نفس أحدهم أن يأكل ثمراً ناضجاً، ويشرب ماءً بارداً، ويجالس زوجة وضيئة، وهو في وعثاء السفر، لهذا إن قيل لكم إنَّ الصُّحبة اصطفاء كالنبوة فصدَّقوا!

العاقل يعرفُ نفسيات الناس الذين يعاشرهم، من تعامله معهم يعرف ماذا يمكن أن يفعلوا، وماذا يمكن ألا يفعلوا! وما قول النبيِّ ﷺ لهذا القادم من بعيد: كُنْ أبا خيثمة، فكان أبو خيثمة، إلا من ذكائه ومعرفته بطبائع الرجال، فاحفظوا الإشارات جيداً، وتأملوا في التصرفات تقل خيباتكم في الناس!

هناك دوماً فرصة لتصحيح الخطأ، وأن تصل متأخراً خير من ألا تصل أبداً، وأن تكون ذنباً في الحق خير لكَ من أن تكون رأساً في الباطل! فلا تخجل من الالتحاق بصفوف الحق إن سبقكَ الناس إليه، فالحقُّ ليس له آخر، المهم أن تكون فيه، لحظة صدق مع النفس، لحظة إيمان حارٍ

وصادقٍ، نقلتْ أبو خيثمة من صفوف الخوالف عن غزوة تبوك، إلى صف شريف، ووسام نبوي شريف: كُنْ أبا خيثمة!

أفلا أُبشِّرُه؟!

كان حصار الأحزاب للمسلمين في المدينة قاسياً وشديداً، وما زاد الطين بلةً غدر اليهود، وصار المسلمون بين عدو الخارج في وجوهم، وعدو الداخل في ظهورهم، وبلغت القلوب الحناجر!

ومع الثبات يأتي النصر، وما النصر إلا صبر ساعة، فمنَّ الله على الثابتين صبر أيام وليالٍ وردَّ كيد الأحزاب!

وألقى المسلمون سلاحهم، فإذا بجبريل ينزلُ على النبيِّ صلى الله عليه وسلم ويقول له: قد وضعتَ السلاح، واللهِ ما وضعناه، فاخرُجْ إليهم!

فقال له النبيُّ صلى الله عليه وسلم: فإلى أين؟

فقال جبريل: ها هنا، وأشار إلى بني قريظة!

فخرجَ إليهم، وحاصرهم خمساً وعشرين ليلةً، فلما يئس اليهود من فك الحصار أرسلوا إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم أن ابعثْ إلينا صاحبكَ أبا لبابة نستشيره في أمرنا وكان حليفاً لهم في الجاهلية!

فأرسله النبيُّ صلى الله عليه وسلم إليهم، فلما رأوه قام إليه الرجال، وبكى بين يديه النساء والصبيان، فرقَّ لحالهم.

فقالوا: يا أبا لبابة أترى أن ننزل على حكم محمد؟

فقال: نعم، وأشار إلى حلقه يعني أن حكمه الذَّبح!

فقال أبو لبابة محدثاً عن القصة: فعلمتُ أني خنتُ الله ورسوله، وخجلتُ أن آتي إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم، وإنما ذهبتُ إلى المسجد وربطتُ نفسي بسارية من سواريه، وقلتُ: لا أبرحُ مكاني حتى يتوب الله عليَّ!

فلما بلغَ هذا النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: لو جاءني كنتُ استغفرتُ له، أما إنه قد فعلَ ما فعلَ فما أنا بالذي أُطلقه حتى يتوب الله عليه!

ومرَّتْ ليالٍ وأبو لبابة مربوط، تأتيه امرأته تفكه للصلاة، ثم تربطه! ثم كانتْ ليلةً كان فيها النبيُّ صلى الله عليه وسلم عند أم سلمة، فرأته يضحك.

فقالتْ له: ما يُضحكك يا رسول الله أضحك الله سِنَّكَ؟

فقال لها: تابَ اللهُ على أبي لبابة.

فقالتْ: أفلا أبشره يا رسول الله؟

فقال لها: بلى إن شئتِ.

فقامتْ إليه وقالت: أبا لبابة قد تاب الله عليكَ!

فقام الناس ليفكوه، فقال واللهِ لا يفكني إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم!

فمرَّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم وفكَّه!

الشاهد من كل هذا قول أم سلمة: أفلا أبشره يا رسول الله

الإنسان النبيل يفرحُ بالخير للآخرين تماماً كما يفرحُ بالخير لنفسه،

فتراه يسعدُ بنجاح إنسانٍ فيسارع ليبشره،

ويعرف خبر حمل امرأةٍ بعد عناء حرمان فيسارع في حمل البشرى،

فلا تكُنْ إلا رسول خير،

الأنباء السيئة لا تحتاج خادماً ولا رسولاً إنها تجري في الناس جري النار في الهشيم،

أما الأخبار السعيدة والبشرى فقلما تجد من يحملها ويزفها إلى صاحبها،

فكُنْ أنتَ الحامل لها،

فعندما تفرح لفرح غيرك، ولا يزعجك غنى غيرك،

ولا تكدرك سعادة غيرك فاعلم إنك إنسان طيب القلب!

أيُّ أهل مكة أنشأ للحديث؟!

لما أسلمَ عمر بن الخطاب لم تعلم قريشُ بإسلامه، وعمر لا يفعلُ شيئاً في الخفاءِ، فقال: أي أهل مكة أنشأ للحديث؟ / أي ينقل الأخبار.

فقالوا: جميل بن معمر الجمحي.

فذهبَ إليه عمر وقال له: يا جميل إني قد أسلمتُ!

فما ردَّ عليه جميل كلمةً، وإنما قام مسرعاً عند الكعبة ونادى: يا معشر قريش إن ابن الخطاب قد صبأ!

فقال عمر: كذبَ، ولكني أسلمتُ وآمنتُ بالله، وصدَّقتُ رسوله.

فأخذوا يضربونه ويضربهم، حتى تعبَ عمر وجلسَ، فقاموا عند رأسه فقال لهم: افعلوا ما بدا لكم، فواللهِ لو كنا ثلاثمئة رجل لقد تركتموها لنا أو تركناها لكم!

فبينما هم كذلك جاء العاص بن وائل فقال: ما بالكم؟

قالوا: إنَّ ابن الخطاب قد صبأ!

فقال: امرؤ اختار ديناً لنفسه، أفتظنون أنَّ بني عدي تُسلم إليكم صاحبهم؟

ففرَّج الله عن عُمر بقول العاص بن وائل وتركوه!

لا تخجل بالهداية بعد ضلال، وارفعْ رأسكَ عالياً بوصل اللهِ لكَ بعد انقطاعكَ عنه، لماذا على الفتاة إذا كانت على غير حجاب خرجتْ في كامل زينتها وإذا هداها الله ستخجل بلباسها المحتشم، من لم يكن يخجل وهو على معصية فالأولى أن يرفع رأسه عالياً وهو على طاعة!

ولماذا على الشاب إذا كان لاهياً عابثاً، عاشَ لهوه وعبثه على رؤوس الأشهاد، ثم إذا ردَّه الله إليه سيخجل بسيره إلى المسجد، ومسابقته في حلق العلم وتحفيظ القرآن!

إنَّ من الأبواب التي يأتي بها الشيطان إلى من هداه الله في أول هدايته هو أن يقول له: أما تخجل من ماضيك؟! ماذا سيقول الناس، شارب خمر البارحة في المسجد اليوم؟! متزينة متعطرة البارحة وفي الحجاب اليوم؟

التوبة تجبُّ ما قبلها، وإن من تمام التوبة أن يُقبل العبدُ على الطاعة بفخرٍ تماماً كما كان في المعصية بفخر!

ثم إذا جاءك الشيطان من باب ماذا سيقول الناس؟

فأجبه وكيف كان الصحابة رضوان الله عليهم قبل أن تسطع في قلوبهم شمسُ الهداية،

منهم من شربَ الخمر،

ومنهم من سجدَ لصنم،

ومنهم من أكل الربا،

ولم يكن أحدهم يخجل أن يتحوَّل كل هذا التحول،

كان يفاخر أمام قريش كلها،

ولا يخجل بدينه، ولا يحسبُ حساباً لتعيير الناس! مكتبة

تداعى له سائر الجسد!

قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم يوماً لأصحابه، حاثاً على التكافل والتراحم: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسَّهر والحمَّى»!

وروى الأبشيهي في رائعته المستطرف في كل فنٍّ مستظرفٍ، أنَّ رجلاً جاء إلى أحد التابعين وكان بينهما صداقة ومودة، فطرق عليه، فلما خرج قال له: ما جاء بك؟

فقال: عليَّ أربعمئة درهم وقد عجزتُ عن سدادها!

فدخلَ إلى بيته مسرعاً، وعدَّ الدراهم، وأعطاه إياها!

ثم عاد إلى الدار باكياً، فقالت له زوجته: هلاَّ اعتذرتَ منه إن كان إعطاؤه يشقُّ عليكَ؟

فقال لها: إنما أبكي لأني لم أتفقد حاله، فاحتاج أن يقول ذلكَ!

لقد اعتبرَ هذا الرجل الشَّهم الكريم سؤال صاحبه له عن دينٍ عجز عن سداده عيباً بحقه، فهو يعتقدُ أن من واجبه أن يتفقد حاله، وينظر في حاجته ولا يضطره إلى السؤال!

درس عظيم ليس في الكرم فقط، وإنما في حفظ ماء الوجوه، وكرامة الناس!

وفي ذات السياق قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم مرةً لأصحابه: المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً، وشبَّكَ بين أصابعه!

خرجَ جيشٌ من جيوش المسلمين إلى الجهاد، وكان بينهم وبين عدوهم نهر، فأمرهم القائد أن يخوضوا النهر ليصلوا إلى عدوهم، فلبوا الأمر على الفور، والعدو يشهدهم من بعيد، وفي وسط النهر سقط إناء أحدهم، فصاح إنائي، إنائي!

فقال الذي عن يمينه: الإناء، الإناء!

وقال الذي عن يساره: الإناء، الإناء!

كلهم يريدون أن يعيدوا إليه إناءه، فدبَّ اللهُ الرعب في قلب عدوهم، وقالوا: إذا كانوا يفعلون ذلك من أجل إناءِ أحدهم فماذا يفعلون لو قتلنا منهم نفساً!

بمثل هذا سادت الأمة،

وحكمت هذا الكوكب من مشرقه إلى مغربه،

بعقلية الجسد الواحد،

وبفلسفة التراحم والتكافل،

بالدمعة يبكيها الصديق إذا علم أنَّ لصاحبه حاجة لم يعرف بها،

وبإناء فرد واحد يصبح قضية الجيش كله!

نِعم المالُ الصّالح!

بعثَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى عمرو بن العاص فقال: خُذْ عليكَ ثيابكَ وسلاحكَ ثم ائتِني.

فجاء عمرو بن العاص لابساً لباس الحرب.

فقال له النبيُّ صلى الله عليه وسلم: إني أُريدُ أن أبعثكَ على جيشٍ فيُسلِّمكَ اللهُ، ويُغنِّمكَ، وأرغبُ لكَ من المال رغبةً صالحة.

فقال له عمرو: يا رسول الله، ما أسلمتُ لأجلِ المال، بل أسلمتُ رغبةً في الإسلام.

فقال له النبيُّ صلى الله عليه وسلم: يا عمرو، نِعمَ المالُ الصالحُ للمرءِ الصَّالحِ!

إنَّ اللهَ تعالى يُعطي المال لمن يُحبُّ من عباده ولمن يكره! وقد أعطى سليمان عليه السّلام الدنيا كلها، وكذلك أعطاها للنمرود، وقد كان قارون أفحش البشرِ ثراءً.

وكذلكَ فإنه يُفقر عبده المؤمن وعبده الكافر، وقد كان عيسى عليه السّلام فقيراً، وكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يربطُ حجراً على بطنه من الجوع! وكثير من خيار الصحابة كانوا فقراء لا يكاد يجد أحدهم قوت يومه! وكذلك فإنَّ الكفار فيهم الفقير الذي لا يجدُ قوت يومه!

فليسَ المالُ ثواباً لأن الدنيا ليست دار ثوابٍ أساساً، وليس الفقرُ عقاباً لأن الدنيا ليست دار عقاب أساساً.

الدنيا بكل بساطةٍ دار امتحان، والمرءُ لا يُثاب على الغنى، ولا يُعاقب على الفقر، وإنما ثوابه وعقابه كيف يتصرف في حال غناه وفقره، فإن

أُعطيَ المال فشكرَ فله الأجر، وإن طغى وتجبَّر فعليه الوزر! وإن حُرمَ المال فصبرَ فله الأجر، وإن كفرَ وسخطَ فعليه الوزر!

نحنُ لا نُثاب على البلاء وإنما على صبرنا عليه، فالمرضُ مثلاً ليس رفعةً للمؤمن إن لم يصبر، إنه مجرد امتحان، فإن صبرَ فقد نجحَ، وإن سخط فقد رسبَ!

نِعمَ المالُ الصالحُ للعبدِ الصالحِ

هذا لأنَّ المؤمن الغنيِّ قد فتح له باب من أبواب الجنةِ لم يُفتح لغيره!

نِعمَ المال الصالح للعبد الصالح لأنه يُطعِمُ بطوناً أنهكها الجوع، ويشتري دواءً لمساكين أتعبهم المرض، ويقضي ديوناً عن غارمين أثقلتهم ديونهم، ويصِلُ أرحاماً بالأعطيات فيملك قلوبهم!

ليس نِعمَ المال الصالح للعبد الصالح بمعنى أن الغنى خير وأن الفقر شر، وإنما بمعنى الخيرُ الذي يفعله هذا العبد الصالح بهذا المال الذي أعطاه الله إياه.

فإن أُعطيتَ مالاً فإنكَ لن تستحقَ نِعمَ المال إلا بكثرة الصدقات، وإغاثة الفقراء،

وإن لم تُعط مالاً فإن عبادة الصبر على الفقر لا تقل أجراً عن عبادة الإنفاق في الغنى!

تجاوزوا عن عبدي!

كان دأبُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم أن يُفهم الناس أن الدنيا مزرعة الآخرة، فحدَّث الصحابة يوماً فقال: أُتيَ اللهُ تعالى بعبدٍ من عباده آتاه الله مالاً، فقال له: ماذا عملتَ في الدُّنيا؟

قال: يا رب آتيتني مالكَ فكنتُ أُبايعُ الناس، وكان من خُلقي الجواز، فكنتُ أتيسَّرُ على الموسر، وأُنظرُ المعسر.

فقال الله تعالى: أنا أحقُّ بذلك منك، تجاوزوا عن عبدي!

المعادلة بسيطة: انظُرْ إلى الخُلقِ الذي تُحبُّ أن يعاملكَ اللهُ به، وعامِلْ أنتَ عباده به!

فهذا رجل ثري، كان يعملُ بالتجارة، وكان سمحاً ليناً، فإن كان المشتري منه ميسوراً تلطَّفَ به، وعامله بالحسنى، وربما أنقصَ له من السعر أيضاً، فقلل ربحه وعدَّ ذلك صدقةً خفيةً يحتسبها عند الله! وإن كان المشتري مُعسراً، أعطاه البضاعة إلى أجل، فإذا كان وقت السداد، ولم يجد الرجل مالاً ليدفع له، مدد الأجل له، أو ربما سامحه، فلما لقيَ الله تعالى، عامله سبحانه بالخلق الذي كان يُعامل به الناس!

إذا أحببتَ أن يسترَ اللهُ عليكَ ذنوبك في الدنيا والآخرة، فاسترْ أنتَ على الناس، فمن سَتر سُتر، ومن فضحَ فُضح!

إذا أحببتَ أن يعاملكَ اللهُ باللين فَلِنْ أنتَ لخلقه، اصفحْ عن خطأ زوجتك، وأَقِلْ عثرة ابنك، وذِلَّ لوالديكَ، كُن الجار السمح يكُن لكَ الربُّ السمح، وكُن لأقاربك الواصل تجد رباً لا يقطعك، لا أحد أوفى من الله!

إذا أحببتَ أن تجد يداً تنتشلك عندما تتعثر فمدَّ يدك للمتعثرين، فالزمن دوَّار وكل ساقٍ سيُسقى بما سقى!

إذا أردتَ أن يُصلح اللهُ ما بينك وبينه فأصلحْ أنتَ ما بين خلقه، خلاف أخوين قُلْ فيه كلمةً طيبة، وشجار زوجين قريبين لكَ بادرْ له مبادرةً حُلوة!

إذا أحببتَ أن تلقى غداً رباً شاكراً فكُن شاكراً لعباده، قدِّرْ كل معروفٍ يُسدى إليك، في شجارٍ زوجي تذكرْ لها معروفها السَّابق ووقوفها معكَ، وفي مرض أبوين عند الكبر تذكَّرْ تلك التي حملتكَ في بطنها وهناً على وهن، وحُرمتْ لأجلكَ النوم رضيعاً، وربتكَ شبراً شبراً حتى بلغتَ أشُدَّك. وذاك الأب الذي شقيَ لأجل لقمة تأكلها، وثوب تلبسه، ودواء ينتشلكَ من مرضٍ، ودفتر تكتبُ عليه صغيراً، وجامعة تطأ أعتابها كبيراً!

احفظ للصديق معروفه،

وللجار موقفه الجميل،

وللأخ ذكريات الطفولة الحلوة،

ولرب العمل إحسانه معك،

للزميل مساعدته لك،

لا تجعلْ ساعة خصومة تهدم عُمراً من المودة!

أيما رجل أعتق!

جاءَ الإسلامُ فوجدَ البشرية في حالةٍ يُرثى لها، ممالك قائمة على الظلم وسرقة خيرات الآخرين، وأد بنات، وامتهان نساء، وأكل رِبا، وشرب خمر، وعبودية.

وشيئاً فشيئاً أعملَ الإسلام العظيم معوله، وبدأ يهدم كل هذه الجاهلية المقيتة، تصدى للإمبراطوريات القائمة على الشرك والوثنية، وأعاد حق البنات في الحياة وحرَّم الوأد، وجعل النساء شقائق الرجال وأوصاهم بهنَّ خيراً، نظَّمَ التجارة فأحلَّ البيعَ وحرَّم الربا، منعَ الخمور، وسعى لتحرير الناس من رق العبودية، فجعل كثيراً من الذنوب كفارتها عتق الرقاب، ثم

زادَ فجعلَ ذلك قربى لله تعالى، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أيما رجلٍ أعتقَ امرأً مسلماً استنقذَ اللهُ بكل عضو منه عضواً من النار!

أما الآن فقد مضى زمن العبودية، ولكن زمن العتق لم ينقضِ! والإحسان إلى الناس ما زال سارياً، ولا أحد أوفى من الله!

فمن استنقذَ عيناً من البكاء، فإنَّ الله سبحانه لا محالة مستنقذٌ عينه من دمعةٍ كانت ستصيبه، وهذه بتلك!

ومن استنقذَ بطناً من الجوع، فإنَّ الله سبحانه لا محالة مستنقذٌ بطنه من الحاجة إلى لقمة كانت ستصيبه، وهذه بتلك!

ومن استنقذَ كرامةً من الخذلان، فإنَّ الله سبحانه لا محالة مستنقذٌ كرامته من خذلان كان سيصيبه، وهذه بتلك!

ومن استنقذَ قلباً من الكسر، فإنَّ الله سبحانه لا محالة مستنقذٌ قلبه من كسرٍ كان سيصيبه، وهذه بتلك!

من مشى في حاجة مسكين حتى يقضيها له، فإنَّ الله سيسخر له من يمشي في حاجته حتى تنقضي!

ومن مدَّ يداً لمريضٍ لا يملك ثمن عملية جراحية، فإنَّ الله أعدلَ من أن يجعلكَ تساعد في تلك العملية، ثم أن يحيجك لمثلها!

من أقامَ متعثراً حماه الله من التعثر، أو سخَّر له من يقيمه إذا تعثَّرَ،

من أصلحَ بين زوجين أجرى الله سبحانه الوفاق بينه وبين زوجته،
فالجزاءِ عند الله تعالى من جنس العمل!
نحن بصنائعِ المعروف نقي أنفسنا من الوقوع في السوء،
ثِقْ تماماً أن الصدقة ليست أجراً فقط إنما هي صون ليدكَ أن تمتدَّ لتطلب الصدقة أيضاً، لا أحد أوفى من الله، لا أحد!

فقد غفرتُ لكَ

حدَّثَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم يوماً أصحابه يحكي عن ربّه فقال: أذنبَ عبد ذنباً فقال: اللهم اغفرْ لي ذنبي.
فقال الله تبارك وتعالى: أذنبَ عبدي ذنباً، فعلمَ أنَّ له رباً يغفِرُ الذَّنبَ، ويأخذُ بالذَّنب!
ثم عاد فأذنبَ، فقال: أي رب، اغفِرْ لي ذنبي.
فقال الله تباركَ وتعالى: أذنبَ عبدي ذنباً، فعلمَ أنَّ له رباً يغفِرُ الذَّنبَ، ويأخذُ بالذَّنب، اِعملْ ما شئتَ فقد غفرتُ لكَ!
هذا الحديث يقفُ أمامه المرءُ مستغرباً من جُرأتنا نحن الضعفاء على الله، ومن حِلم الله القوي علينا، فيا له من دين، ويا له من ربّ، يعصيه عبده

فيمهله وهو القادر عليه، فإذا ما عاد إليه مستغفراً غفرَ له، فإذا جدد المعصية أمهله مرةً أخرى، فإن عاد مستغفراً غفرَ له مرةً أُخرى!

والحديث ليس للتشجيع على المعاصي، على العكس تماماً، فلعلَّ العبدَ يموت على معصية ولم يسعفه عمره أن يتوب! ولكنه تشجيع على التوبة، أن إذا عصيتَ اللهَ ألفَ مرَّةٍ، فإنه سبحانه ما سمَّى نفسه الغفَّار إلا لأنه يغفرُ الذنوب! ولكن الأصل أن يتأدب العبد أمام نظر الرَّب، ولكن ما منا من معصوم، فجاهدوا أنفسكم على الاستقامة، وإن غلبكم الشيطان على معصية، تذكروا أن لكم رباً ينتظر منكم عودةً ليغفر لكم!

وعن أدب العبد مع الرب، روى ابن قدامة في كتابه التوابين عن توبة بِشر الحافي أنه كان قبل توبته في داره وعنده أصحابه يشربون الخمر، ويطربون، وصوتهم ورائحة خمرهم تخرج إلى الطريق!

فمرَّ بهم رجل صالح، فطرق الباب، فخرجت الجارية، فقال: صاحب هذه الدار حُرٌّ أم عبد؟

فقالتْ: هو حُرٌّ.

فقال: صدقتِ، لو كان عبداً لاستعملَ أدب العبودية!

فسمع بِشر محاورتهما، فسارعَ إلى الباب حافياً، وقد مضى الرجل الصالح، فقال للجارية: ويحكِ، من كلمكِ عند الباب؟

فأخبرته، فقال: أي ناحيةٍ سلكَ هذا الرجل؟

فأخبرته، فلحقه حتى أدركه، وقال له: أنتَ الذي وقفتَ بالباب وخاطبتَ الجارية؟

قال: نعم!

قال بِشر: أَعِدْ عليَّ كلامكَ!

فقال له: أنتَ حُرٌّ، لو كنتَ عبداً لاستعملتَ أدبَ العبودية وتركتَ الخمر والطرب!

فخرَّ بِشرٌ ساجداً، وهو يقول: بل عبد، ثم عاد تائباً!

وصار من يومها بِشراً الحافي أحد أئمة التابعين!

واللهِ ما لكِ من مَتْرَكٍ!

عندما عزمَ أبو سلمة على الهجرة إلى المدينة، ركبَ على بعير، وأركبَ زوجته أم سلمة وابنه سلمة على بعير، فلما كانوا على مشارف مكة، جاء بنو مخزوم قوم أم سلمة وقالوا له: هذه نفسك غلبتنا عليها، أما زوجتك فلا نتركك تهاجر بها!

فأخذوها منه، ومضى أبو سلمة مهاجراً! وليزداد الطين بلة جاء قوم أبي سلمة إلى بني مخزوم وقالوا لهم: لا نترك ابننا عندكم، فأخذوه من أمه! وهكذا صارت أم سلمة بلا زوج ولا ابن!

وبقيت على هذه الحال سنةً كاملةً، تخرجُ كل يوم وحيدةً إلى مشارف مكة، وتبكي فراق زوجها وابنها، إلى أن مرَّ بها أحد أولاد عمومتها فرقَّ لحالها، وقال لقومه: ما لكم ولهذه المسكينة فرَّقتم بينها وبين زوجها وولدها!

فقالوا لها: الحقي بزوجكِ إن شئتِ.

وأعاد لها أهل أبي سلمة ابنها، فركبتْ بعيرها، وأخذت ابنها في حجرها، وانطلقتْ تريدُ المدينة، فلما كانت بالتنعيم على مشارف مكة لقيها عثمان بن طلحة وهو مشرك فقال لها: إلى أين يا أم سلمة؟

فقالتْ: إلى زوجي في المدينة.

فقال: أوَمَا معكِ أحد؟

فقالتْ: لا واللهِ، إلا اللهَ وابني هذا!

فقال: ما لكِ من متركِ أي لا أتركَكِ حتى أوصلكِ!

فأخذ بخطام بعيرها يقوده إلى المدينة، فكان إذا أراد أن يجعلها تنزل لتستريح أناخ البعير، ثم ابتعد عنها لتنزل، وإذا أراد أن يمضي أناخ البعير لها

مجدداً، ثم ابتعدَ عنها، فإذا ركبت جاء وأخذ بخطام البعير، ومشى بها، فلم يزل يصنع هذا حتى أوصلها إلى مشارف المدينة قال لها: إن زوجكِ في هذه القرية فادخلي على بركة الله، وعادَ أدراجه إلى مكة!

علينا أن لا نأخذ الناس جملةً واحدة، فكما أن المسلمين ليسوا سواءً وقد اجتمعوا على لا إله إلا الله، فمن باب أولوا أن غير المسلمين ليسوا سواءً وقد تفرقوا عنها!

الذين منعوا أم سلمة من الهجرة كانوا مشركين، والذي رقَّ لحالها وطلبَ من قومها أن لا يمنعوها من اللحاق بزوجها كان مشركاً أيضاً، كانوا في الشرك سواء لكنهم تمايزوا في الأخلاق!

والذين أخذوا منا ابنها كانوا مشركين، وعثمان بن طلحة الذي أوصلها إلى المدينة كان مشركاً أيضاً، ولكن شتَّان بين هذا وأولئك!

الكافر الذي يحتل أرضكَ، ويقتل قومكَ شيء،

والكافر الذي لم يمسَّك بسوء شيءٌ آخر،

علينا أن نُفرِّق بين الفريقين جيداً،

وأن نتعامل على هذا الأساس،

أما استعداء كل الناس فمن الحمقِ، وقلة التدبير، وخطأ قراءة الواقع!

الدول الاستعمارية الملطخة أيديها بدماء المسلمين شيء،

والدول الأخرى المسالمة التي لم تمسهم بسوءٍ شيء آخر،
وضع الجميع في كفة واحدة استقطاب لمزيد من الأعداء بالمجان!

أصابتني دعوةُ سَعْدٍ!

عيَّنَ عمر بن الخطاب سعدَ بن أبي وقاصٍ على الكوفة، فجاء بعضهم يشكونه، وذكروا أموراً كثيرة حتى قالوا: إنه لا يُحسن أن يصلي بنا!

فأرسل عمر إليه، فلما جاءه قال له: يا أبا إسحاق، إن هؤلاء يزعمون أنكَ لا تُحسن أن تصلي بهم!

فقال له سعد: أما والله إني كنتُ أصلي بهم صلاةَ النبيَّ ﷺ ما أخرمُ عنها.

فقال له عمر: ذاك ظني بكَ يا أبا إسحاق

فأعاده عمر إلى الكوفة وأرسل معه رجلاً يسأل عنه أهلها، فأثنى عليه الناس خيراً، حتى دخلَ مسجداً لبني عبسٍ، فقام رجل منهم يُقال له أسامة بن قتادة فقال: إنَّ سعداً كان لا يسير بالسريَّة/ يتخلف عن الجيش، ولا يقسمُ بالسوية/ يظلم في العطاء، ولا يعدل في القضية.

فقام سعد فقال: اللهمَّ إن كان عبدكَ هذا كاذباً، قامَ رياءً وسُمعة فأطِلْ عمره، وأطِلْ فقره، وعرِّضه للفتن.

واستجاب اللهُ تعالى دعوة سعد، فعاشَ الرجل كثيراً حتى سقط حاجباه على عينيه، وكان فقيراً يستعطي الناس، ويتعرض للفتيات في الطريق.

فلما سُئل عن هذا قال: أنا شيخ مفتون أصابتني دعوة سعد!

وفي كواليس القصة أن عمر بن الخطاب عزل سعداً عن إمارة الكوفة وعيَّن مكانه عمَّار بن ياسر ليس عن تهمة، ولكنه كان يكره عدم الوئام بين الراعي والرعية، وإلا فإن عمر سمى سعداً من بين الرجال الذين أوصى أن تكون فيهم الخلافة من بعده!

يقول ابن عثيمين رحمه الله: إنَّ الله يستجيب دعوة الكافر المظلوم على المسلم الظالم، ليس حُباً بالكافر ولا بُغضاً بالمسلم، ولكن حُباً بالعدل وبُغضاً بالظلم!

فاتقوا دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب!

ما أدراك أن ذاك الذي ظلمته، فافتريتَ عليه فأكلتَ ماله، أو تسببتَ بطرده من عمله، أو خضتَ في عرضه، أو آذيته في نفسه وأهله، قد نامَ الناسُ تلكَ الليلة ولم ينم هو من ظُلمِكَ، فقام في الثلث الأخير من الليل، فتوضأ وصلى ثم رفع يديه وقال: اللهم إني مغلوب فانتصر.

دعوة نوح عليه السَّلام التي أغرقَ اللهُ الأرض استجابةً لها!

إذا كان الله يستجيب دعوة الكافر المظلوم حُباً بالعدل،

فكيف بدعاءِ المسلم المظلوم،

فاتقوا دعوات المظلومين،

واجتنبوا أولئك الذين ليس لهم إلا الله!

حُسْنِ العهدِ من الإيمان

تقول أُمنا عائشة: جاءتْ عجوز إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم وهو عندي، فقال لها: من أنتِ؟

فقالتْ: أنا جثَّامة المزنيَّة.

فقال لها: بل أنتِ حسَّانة المزنيّة! كيف أنتم؟ وكيف حالكم؟ وكيف كنتم بعدنا؟

فقالتْ: نحن بخير، بأبي أنتَ وأمي يا رسول الله.

فلما خرجتْ من عنده قلتُ: يا رسول الله تُقبلُ على هذه العجوز هذا الإقبال؟

فقال: إنها كانت تأتينا زمن خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان!

نسيَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم هيئة جثامة المزنية، فلما سألها عن نفسها، وعرفها، أكرمها، وأقبلَ عليها، فقط لأنها كانت من صويحبات خديجة، وهو إكراماً لعهد خديجة يُكرم صاحبتها، وإن حسن العهد من الإيمان!

قال محمد بن واسع: لا يبلغُ العبد مقام الإحسان حتى يُحسن إلى كل من صحبه ولو ساعة!

وكان إذا باع شاةً يوصي بها المشتري ويقول: قد كان لها معنا صُحبة!

إن حُسن العهد من الإيمان!

عندما يقعُ بينك وبين صديق لكَ خصومة فتذكَّرْ لحظات الوفاق القديمة، تذكَّرْ الضحكات التي ضحكتماها معاً، والدمعات التي بكيتماها معاً، والخبز والملح الذي أكلتماه معاً، ولا تفجر في الخصومة، ولا تردَّ الإساءة بمثلها، فإنَّ حُسن العهد من الإيمان!

وعندما يقع بينك وبين جار لكَ سوء تفاهم فتذكَّرْ مرضكَ الذي زاركَ به، والعزاء الذي وقف معكَ فيه، وصحن الطعام الذي أهداك إياه في نهار رمضان، فإن العِشرة لا تهون عند النبلاء، وإن حسن العهد من الإيمان!

إن جُرحتَ فغادِرْ بهدوء،

وإن أُهِنتَ ابتعِدْ،

وكُنْ خير ولدي آدم عليه السلام ذاك الذي رفضَ أن يبسط يده إلى أخيه حتى بعد أن بسطها إليه، فإن حسن العهد من الإيمان!

أيُّ الإسلام أفضل؟!

سُئل النبي صلى الله عليه وسلم: أيُّ الإسلام أفضل؟

فقال: من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده!

يُعلمنا النبيُّ صلى الله عليه وسلم أن كفَّ الأذى عن الناس عبادة! وأن المسلم إذا لم ينفع فعلى الأقل يجب أن لا يضر!

إن دينك الحقيقي هو ما ينعكسُ على سلوكك مع الناس، هذه الحقيقة وعاها المسلمون الأوائل جيداً، فقد سأل عمر بن الخطاب عن رجلٍ إن كان أحد من الحاضرين يعرفه.

فقام رجل وقال: أنا أعرفه يا أمير المؤمنين.

فقال له عُمر: لعلكَ جاره، فالجار أعرفُ الناس بأخلاق جاره؟

فقال: لا يا أمير المؤمنين.

فقال له عُمر: لعلكَ رافقته في سفر، فالسفر يكشِفُ عن أخلاق الناس، ويميطُ اللثامَ عن طبائعهم؟

فقال: لا يا أمير المؤمنين.

فقال له عُمر: لعلكَ تاجرتَ معه، فعاملته بالدرهم والدينار فإنهما يكشفان معادن الناس؟

فقال: لا يا أمير المؤمنين.

فقال له عُمر: لعلكَ رأيته في المسجد يصلي قائماً وقاعداً؟

فقال له: نعم.

فقال له عمر: فإنكَ لا تعرفه!

الدين لخَّصه ابن القيم بقوله: الدين كله في الخُلق، فمن فاقكَ في الخُلق فقد فاقكَ في الدين!

دينك في أن تسلم منكَ أعراض المسلمين، وفي أن لا تأكل لحومهم بالغيبة، وفي أن لا تمشي بينهم بالنميمة فتصبَّ الزيت على نار الخلافات، فتكون مرسالاً عند إبليس!

دينك الحقيقي في متجركَ حين لا تغش، ولا تَحلف كذباً لتبيع، مع جاركَ في أن يأمن أذاك، ومع زملاء العمل في أن يأمنوا وشايتك، ومع أبويك حين يبلغان من العمر عتياً فتكون لهما خادماً مطيعاً، ومع إخوتك

وأخواتك وأرحامك في أن تصلهم وتحسن إليهم، وأن لا تُردد قانون إبليس أن الأقارب عقارب!

دينك في تعاملك مع البسطاء،

مع الخادمة في البيت، ومع البائع المتجول المسكين،

وعمال النظافة، وبواب العمارة، وكل الذين ليس لهم إلا الله!

حقُّ العِباد على الله!

كان معاذ بن جبل راكباً خلفَ النبيِّ ﷺ على حمارٍ يُقال له عُفير، فقال له النبي ﷺ: يا معاذ هل تدري ما حقُّ الله على عباده، وما حقُّ العباد على الله؟

فقال له معاذ: الله ورسوله أعلم.

فقال له النبي ﷺ: فإنَّ حقَّ اللهِ على العباد أن يعبدوه ولا يُشركوا به شيئاً، وحقُّ العباد على الله أن لا يُعذّب من لا يشرك به شيئاً.

فقال معاذ: يا رسول الله، أفلا أُبشِّرُ الناس؟

فقال له: لا تُبشِّرهم فيتكلوا!

فكتمَ معاذُ بن جبل هذا الحديث امتثالاً لأمر النبي صلى الله عليه وسلم، ثم أخبرَ به عند موته مخافة أن يكون ممن كتمَ علماً، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من سُئل عن علمٍ فكتمه أُلجمَ يوم القيامة بلجامٍ من نار.

إنَّ أعظم ذنبٍ يُعصى الله به هو الشّرك، فلا شيء أقبحُ من أن يتخذ العبد لمن رزقه وأنعم عليه ندًا؟

على أنَّ الشِّرك ليس فقط أن يتّخذَ العبدُ معبوداً له غير الله تعالى، وإن كان هذا أقبح وجوه الشرك وأعظمها إثماً، ولكن ثمة شركٌ آخر خفي يدبُّ دبيبَ النمل في قلوب الناس وربما لم يلتفتوا له، وقد أسماه الفقهاء بالشِّرك الأصغر!

فعندما يُحسِّنُ العبدُ عبادته ليراه الناس ويقولوا ما شاء الله فلان عابدٌ زاهد فهذا شِرك، وعندما نحلفُ بغير الله شِرك!

وعندما نعلِّقُ التمائم على أبواب البيوت، والخرزات الزرقاء على صدور الأطفال لجلب الحماية، ورد العين والحسد فهذا شرك!

وعندما نطلبُ الشفاء والعون والرزق من الصالحين والأولياء في قبورهم فهذا شرك!

وعندما نعتقد أن الشفاء بيد الطبيب وعلبة الدواء فهذا شرك، ثمة فرق كبير بين الأخذ بالأسباب وبين الاعتقاد أنها تضرُّ وتنفع دون أمر الله!

وعندما نعتقدُ أن الرزق بيد رب العمل فهذا شرك، ثمة فرق كبير بين السعي للرزق الذي أمرنا به، وبين أن نخلط بين باب الرزق وبين الرزاق سبحانه!

ثمة عقائد لا يترتبُ عليها عمل،

ولكن كل عملٍ دونها يذهبُ هباءً منثوراً،

فتعالوا نصحح عقائدنا!

إنَّ منكم مُنفّرين!

جاء رجلٌ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إني والله لأتأخر عن صلاة الغداة/ الفجر من أجلِ فلان مما يُطيلُ بنا فيها!

فما رُؤيَ الغضبُ على وجه النبيِّ صلى الله عليه وسلم كما رُؤي على وجهه في ذلك اليوم!

ثمَّ قال: يا أيها الناس، إنَّ منكم مُنفِّرين، فأيكم صلَّى بالناس فليوجِزْ، فإنَّ فيهم الكبير، والضعيف، وذا الحاجة!

إنَّ هذا الدِّين لا يُؤخذُ بالهوى، وإنما يُؤخذ بالاتباع، ولم يكن أحدٌ أخفّ صلاةً من النبي صلى الله عليه وسلم إذا صلى بالناس، وكان إذا صلى بالناس وسمعَ بكاء الصبيِّ في الصفوف خلفه، خفَّفَ في صلاته أكثر مخافة أن ينشغل قلب الأم على ولدها، ولكنه كان بأبي هو وأمي إذا صلى لنفسه قام الليلَ حتى تنفطرَ قدماه!

وهنا مقتل كثير من الأئمة والخطباء، أنهم يخلطون بين العبادات الفردية والعبادات الجماعية، قد يكون الإمام ممن يستعذب القرآن، ويجد لذة في أن يطيل صلاته وهذا شيء جميل، الليل أمامه طويل وليصلِّ كيفما شاء، أما حين يصلي بالناس فليس له أن يحملهم على ما لا يطيقون، ففي الناس رجل مُسنّ لا تكاد تحمله قدماه، ومنهم الرجل الذي لا يكاد يضبط وضوءه، ومنهم من تركَ وراءه دكاناً، أو ورشةً، أو وظيفةً، أو كان طالباً أراد أن يكسب أجر الجماعة بين المحاضرتين، وعندما يطيل الإمام في

صلاته فإنه يشقُّ عليهم، فيسيءُ وهو يحسبُ أنه يُحسنُ، ويُنفِّر الناس وهو يحسب أنه يُرغبهم!

إننا نُصلي ونجاهد أنفسنا على الخشوع جهاداً عظيماً، وكلما كانت صلاة الإمام بالناس قصيرة، أعان الناس على ضبط خشوعهم، وكلما أطال كثر حديث النفس، ووسوسة الشيطان حتى لا يدري أحدنا ما قرأ الإمام! والواجب على الإمام أن يُعين الناس على أداء صلاتهم بأكبر قدر من الخشوع، وما خفَّفَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم عندما سمع بكاء الصبيِّ في الصفوف خلفه إلا رحمة بالأم أن تنشغل بابنها عن خشوعها واستحضار قلبها، وقد كان لنا في نبينا أسوة حسنة!

أما عن خُطب الجمعة فحدِّث ولا حرج، يصعد أحدهم المنبر فلا يترك موضوعاً إلا دخلَ فيه، من السياسة إلى الاقتصاد إلى الفنون، فيمضي الوقت الطويل وأخونا بالله على صهوة المنبر مسترسلاً لا تطيب نفسه بمفارقته، وكأن مفارقة المنبر كمفارقة الروح للجسد، حتى صار الناس يبحثون عن المسجد الأبعد لأجل خطبة أقصر! وهذا من جرِّ المشقة على الناس وتنفيرهم من بيوت الله، ومن الجُمعِ والجماعات!

إن الفكرة التي لا يستطيع صاحبها أن يوصلها في عشر دقائق لن يستطيع أن يوصلها في ستين دقيقة! المشكلة في الغالب ليست في موضوع

الخطبة بل في الأسلوب والطريقة التي ينتهجها الخطيب، وكلما زاد الوقت زاد ملل الناس، ولا أعتقِدُ أني وحدي من رأى بعض الناس نياماً والخطيب على منبره!

فيا أيها الخطباء والأئمة والوعاظ:

أنتم تقومون بأشرف مهنة،

وهي تعبيد الطريق أمام الناس وإيصالهم إلى الله،

فلا تُفسدوا الهدف بقلة الفقه والتدبير!

ورجُلٌ تصدّق بصدقةٍ فأخفاها!

حدَّثَ النبيُّ ﷺ مرةً أصحابه عن سبعةٍ يُظلهم الله في ظله يوم لا ظِلَّ إلا ظله، وكان ممن ذكرهم رجلٌ تصدَّقَ بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلمُ شماله ما تُنفِقُ يمينه!

كان زين العابدين عليُّ بن الحُسين يحملُ الصَّدقات والطعام ليلاً على ظهره، ويوصلها إلى بيوت الأرامل والفقراء في المدينة، ولا يعلمون من وضعها، وكان يتولى هذا الأمر بنفسه فلا يستعينُ بخادمٍ ولا صديقٍ، حتى لا يدري بهذا الأمر أحد! وبقيَ كذلك سنواتٍ طويلةً، وما كان الفقراء

والأرامل يعلمون من يضع لهم هذا الطعام على أبواب بيوتهم، فلما ماتَ رضيَ الله عنه وجدوا على ظهره أثر حمل الأكياس، وبموته لم يعد الأرامل والمساكين يجدون الذي كانوا يجدونه عند أبوابهم، فعلموا أنه صاحب الصَّدقات!

الصَّدقة في السِّر أعلى أجراً لأسباب كثيرة منها:

- لأنَّ المرءَ يزهدُ في معرفة الناس بما يصنع، ويرضى أن يعرفه ربه فقط، وبهذا يتخلص من الرياء، ويا لعظمة صدقة أُريد بها وجه الله تعالى فقط!

- لأنَّ فيها ترميماً لكرامة الفقراء، فالحاجة تكسر النفس، والبعض يتأذى إذا ما أُعطيَ على الملأ، فكرامته عنده أهم من حاجته، ومن هنا كانت صدقة السر أجوراً كثيرة، الصدقة، وجبر الخاطر، وترميم الكرامة!

كان الأوائل يُخفون حسناتهم كما يُخفون سيئاتهم، فلا يُحِبُّ أحدهم أن يعرف الناس عبادته!

ترجم الإمام الذهبي لداود بن أبي هند، فذكرَ أنه صامَ أربعين سنةً لا يعلمُ به أهله، كان يخرجُ إلى دكانه في السوق معه زاده الذي تعده له زوجته وهي تحسبه مفطر، فيتصدَّقُ به في الطريق، فإذا كان المساء عاد وأفطرَ مع عائلته وهم يحسبون أنه يتعشّى!

وروى ابن الجوزيِّ عن الحسن البصري أنه قال: كنتُ مع عبد الله بن المبارك فأتينا على سِقاية والناس يشربون منها، قد دنا ليشرب ولم يعرفه الناس فزحموه ودفعوه، فلما عاد قال لي: ما العيشُ إلا هكذا أن لا نُعرف ولا نُوقَّر!

كل عبادة تستطيع أن تؤديها بالسِّر فإياك أن تؤديها في العلن،

وكل صدقةٍ تستطيع إخفاءها فإياك أن تُظهرها،

لا شيء يفسِدْ العمل كالرياء،

وكل عمل لم يطلع عليه الناس فقد سَلِم بإذن الله من الرياء،

وما سَلِمَ من الرياء فقد قُبلَ،

وما قُبلَ فقد بلغَ بكَ الآفاق!

حتى يُفكَّه العدل!

قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم يوماً لأصحابه: ما من أمير عَشَرةٍ، إلا وهو يُؤتى به يوم القيامة مغلولاً، حتى يفكّه العدل، أو يوبقه الجور!

والأميرُ هو كل من وليَ من أمور المسلمين شيئاً، بدءاً برئيس الدولة وانتهاءً بربّ الأسرة، فكل صاحب مسؤولية هو أمير في مجاله!

ويخبرنا النبيُّ صلى الله عليه وسلم أنْ كل من تولى منصباً جاء يوم القيامة مقيداً، فإن كان عادلاً فكَّه العدل وأطلقه، وإن كان ظالماً أهلكه ظلمُه!

فقدَ أميرُ المؤمنين علي بن أبي طالبٍ درعاً في زمن خلافته، وكانتْ هذه الدرع عزيزة عليه، فوجدها في يد ذميٍّ من أهل الكوفة يعرضها للبيع في السوق، فقال له: هذه درعي سقطتْ مني في ليلة كذا!

ولكن الرجل أبى أن يعترف ويعيد الدرع، وطلب الاحتكام الى القاضي!

ويذهبُ الخليفة برفقة خصمه إلى شُريح القاضي!

فقال شُريح لعليٍّ: ما تقول يا أمير المؤمنين؟

فقال: وجدتُ درعي مع هذا الرجل، وقد سقطتْ مني في ليلة كذا، فلم أبعها له ولم أهبها، فكيف صارتْ له؟

فالتفتَ القاضي إلى الذِّميِّ وسأله عن قوله، فأصرَّ أن الدرع له!

فقال شُريح لعليٍّ: يا أمير المؤمنين لا ريب عندي أنك صادق، ولكن البينة على من ادَّعى، واليمين على من أنكر، فهل عندك من بيِّنة؟!

فقال عليٌّ: يشهدُ ابناي الحسن والحسين بذلكَ!

فقال له شُريح: لا يشهدُ الرجلُ لأبيه يا أمير المؤمنين!

وطلب من الذِّميِّ أن يحلف أن الدرع له، فحلفِ، فقضى له بها، وأخذها ومضى!

وبعد أن سار قليلاً، عاد ليرجع الدرع، ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، لما رأى من عدل المسلمين في القضاء!

كان شُريح يعرف أن أمير المؤمنين صادق، وأن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة لن يكذبا، ولكن القانون واضح، فطبَّقه بالحرف ولو على الخليفة!

فيا أيها الذي تولَّى التقرير في شأن منح الوظائف، هل أعطيتها للأكفأ أم للذي جاءك من طرف فُلان؟!

ويا مدير مخفر الشرطة هل طبقتَ القانون على الجميع بالتساوي، أم أطلقتَ ابنَ المسؤولِ، وسجنتَ ابن المواطن؟!

ويا أيها المدير هل عدلتَ بين موظفيك، أم حابيتَ؟!

ويا أيها الأب هل عدلتَ في الأعطيات بين أولادك أم ميَّزت؟!

كل واحدٍ منا أمير في مجاله، والله ناظرٌ إليه فيما استرعاه من رعية، وما حمَّله من مسؤولية، فاعملوا ليوم نأتي فيه مقيدين، فيفكنا العدل أو يهلكنا الظلم!

إنما يرحمُ اللهُ من عباده الرحماء!

أرسلتْ زينب بنت النبي ﷺ في طلبه لأنَّ ابناً صغيراً لها يُحتضر.

فأرسل إليها يقول: إنَّ للهِ ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيءٍ عنده بأجلٍ مُسمَّى، فلتصبري ولتحتسبي.

فأرسلتْ إليه مجدداً تُقسِم عليه أن يأتيها، فجاءها في جماعة من أصحابه، منهم سعد بن عبادة، ومعاذ بن جبل، وأُبي بن كعب، وزيد بن ثابت، فَجِيءَ له بالصبيِّ وأنفاسه تتقطع في النَّزعِ الأخير، ففاضتْ عينا النبيِّ ﷺ بالبكاء!

فقال له سعد بن عبادة: ما هذا يا رسول الله؟

فقال له: هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحمُ اللهُ من عباده الرُّحماء!

البكاءُ على فقد الأحبة لا يتنافى مع الصبر، وقد بكى النبيُّ ﷺ فقدَ الكثير من أحبابه، على أنه يجب أن يُعلم أن الرحمة ليستْ مقتصرةً على البكاء، وأن الرحماء من عباد اللهِ ليسوا هم الذين يبكون عند الفقد فقط!

الرَّحمة على عباد الله سلوك عملي يمكنكَ أن تمارسه كل يوم!

عندما تجد زوجتك غارقة في شغل البيت وتقوم لتمدَّ إليها يد المساعدة فأنتَ من الرُّحماء! وعندما تُغضبكَ بتصرفٍ منها فتمسك زمام غضبكَ وتتغاضى فأنتَ من الرحماء أيضاً!

عندما تجد بائعاً مسكيناً على قارعة الطريق فتنزل لتشتري منه، ولا تُجادله في السعر، وتتغاضى في بضع دراهم تحتسبها عند اللهِ صدقةً خفية فأنتَ من الرحماء! إنَّ مما يندى له الجبين أننا نرى من يجلسُ يفاوض بائعاً مسكيناً في درهم أو درهمين، وريال وريالين كأنه يعقِدُ صفقةً لشراء كوكب الأرض، وإذا ذهبَ إلى مطعم مرموق ترك إكرامية من باب «البريستيج» الاجتماعي تكاد تكون ما يحصله البائع المسكين من ربح طوال يومه!

وعندما ينشبُ خلاف زوجي بين قريبين لكَ، فيفطر قلبكَ أن تضيع الأسرة، ويتفرق شملها، فتجري بالصلح بين المتخاصمين، وتقرب وجهات النظر، وتعيد المياه إلى مجاريها فأنتَ من الرحماء!

وعندما تسمع بمرض إنسان فقير إذا حضرَ لم ينتبه له أحد، وإذا غابَ لم يفتقده أحد، فتزوره في بيته، وتجبر خاطره، وترى إن كان يحتاج مساعدة فأنتَ من الرحماء!

وعندما تساعِدُ زملاءكَ في العمل، فتسدَّ عن أحدهم غيابه الاضطراري، فأنتَ من الرحماء!

كل نفعٍ، وجبر خاطر، وإحسان تسديه إلى الناس تبتغي بذلك وجه الله فهو رحمة في قلبك ستجدُ عند الرحمن رحمة أكبر منه!

قتلوه قتلهم الله!

يقولُ جابر بن عبد الله: خرجنا في سفر، فأصابَ رجُلاً منا حَجَرٌ فشجَّه في رأسه. ثم احتلمَ، فسأل أصحابه فقال: هل تجدون لي رُخصةً في التيمم؟

فقالوا: ما نجدُ لكَ رخصةً وأنتَ تقدرُ على الماء!

فاغتسلَ، فماتَ!

فلما قدمنا على النبيّ صلى الله عليه وسلم أُخبرَ بذلك، فقال: قتلوه قتلهم الله، ألا سألوا إذا لم يعلموا، فإنما شفاء العِيِّ السؤال، إنما كان يكفيه أن يتيمم، ويعصب على جرحه خِرقةً، ثم يمسحُ عليها، ويغسلُ سائر جسده!

فتوى بغير علم أدَّتْ إلى مقتل إنسان، وما أكثر الفتوى بغير علم في أيامنا، حتى صرتَ تجد أن الناس يعتقدون أنه من العيب أن يقولوا لا نعلم!

سُئل الإمام الشَّعبي عن مسألةٍ، فقال: لا أعلم!

فقيل له: أما تستحي أن تقول لا أعلمُ، وأنتَ فقيه العراق؟

فقال: إن الملائكة لم تستحِ حين قالتْ: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾

وصعد فقيه المنبر، فسُئل عن مسألة، فقال: لا أعلم!

فقال له رجل من الحضور: هذه المنابر يرتقيها من يعلم!

فقال له: إنما ارتقيتُ على قدر علمي، ولو ارتقيتُ على قدر جهلي لبلغتُ السَّماءِ!

وجاء رجل من العراق إلى المدينة يسأل الإمام مالك في المدينة عن قضايا فقهية، فأجابه الإمام عن بعضها، وسكتَ عن بعضها!

فقال له الرجل: ماذا أقول لأهل العراق يا مالك؟

فقال له: قل لهم إن مالكاً لا يعلم!

مالك أفقه المسلمين في زمانه لا يجد حرجاً أن يقول لا أعلم، والشعبي الذي يقول عنه محمد بن سيرين: قدمتُ الكوفة وللشعبي يومئذٍ حلقة عظيمة والصحابة يومئذ كثير! لم يجد حرجاً أن يقول لا أعلم!

أما نحن فكلنا مُفتون،

الطبيب يُفتي،

والميكانيكي يُفتي،
والنساء في الصباحيات يفتين في مسائل لو عُرضت لعمر بن الخطاب لجمع لها فقهاءَ الصحابة!

ربِّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين!

قالتْ عائشةُ يوماً للنبيِّ ﷺ: يا رسول الله، عبد الله بن جدعان كان في الجاهلية يصلُ الرَّحم، ويُطعم المسكين، فهل ذاك نافعة؟
فقال لها: لا ينفعه، إنه لم يقُلْ يوماً: ربِّ اغفِرْ لي خطيئتي يوم الدين!
مما ابتُلي به المسلمون هذه الأيام أنه إذا ماتَ الكافر وكان مخترعاً شهيراً، أو محسناً معروفاً، أو طيباً رحيماً، قالوا: الدين للهِ، واللهُ أعلمُ بما في قلبه، وإن لم يكن مثله من أهل الجنة فمن عساه يكون! وربما قالوا جملتهم المعهودة: له ما له، وعليه ما عليه!
وإذا مات العالم والفقيه من المسلمين، قالوا: أليسَ هذا الذي أفتى يوماً بكذا وكذا؟!
يبحثون للكافر عن أحسن عملٍ عمله في الدنيا، وللمسلم عن أقبح عملٍ عمله!

بدايةً علينا أن نتأدب مع الله، فلا نقطع لأحدٍ بجنةٍ أو بنارٍ، فأمرُ الناس جميعاً إلى الله، إن شاءَ أدخلهم الجنة رحمةً منه، وإن شاء أدخلهم النار عدلاً منه!

ولكن من الفهم السقيم أن نخلط بين الأعمال الحسنة التي يقوم بها الإنسان، وبين عقيدته ودينه الفاسدين!

صحيح أن غير المسلمين ليسوا سواءً، تماماً كما أن المسلمين ليسوا سواءً، ولكن أن نعتقد أن النجاة من النار تكون بدواء يخترعه طبيب، أو بدار أيتام يفتحها ثري، فنترك الدين جانباً على اعتبار أن الدين المعاملة فهذا تسخيف وتسطيح لقضية التوحيد التي لأجلها خلق الله الخلق، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب، وكانت الجنة والنار!

نعم نعترف بفضل الكافر إن كان له فضل، ونشيد بعمله الإنساني، فهذا من العدل الذي أُمرنا به، أما أن نجعل هذا ثمناً لدخوله الجنة، فهذا من فساد الاعتقاد، والجنة لا يُقطع بها للطائع من المسلمين حتى يُقطع بها للمحسن من الكافرين!

إن الخير الذي يقوم به غير المسلم هو من الفطرة التي فطر الله تعالى عليها الناس، وإنَّ الله أعدل من أن يعلم أن في قلب عبدٍ من عباده خيراً ويتركه يموت على غير الإسلام!

يقول الحسن البصري: دخلتُ على بعض المجوس وهو يجود بنفسه عند الموت، وكان منزله بإزاء منزلي، وكان حسن الجِوار، حسن السّيرة، حسن الخُلق، فرجوتُ الله تعالى أن يوفقه عند الموت، ويميته على الإسلام.

فقلتُ له: ما تجد، وكيف حالك؟

فقال: قلبٌ عليل ولا صحة لي، وبدن سقيم ولا قوة لي، وقبر موحش ولا أنيس لي، وسفر بعيد ولا زاد لي، وصراط دقيق ولا جواز لي، ونار حامية ولا بدن لي، وجنة عالية ولا نصيب لي، ورب عادل ولا حجة لي!

فقلتُ: ألا تُسلم لتسلمَ؟!

فقال: يا شيخ إن المفتاح بيد الفتَّاح، والقفل هنا! وأشار إلى صدره، وغُشي عليه!

فقلتُ: إلهي وسيدي ومولاي، إن كان سبقَ لهذا المجوسي عندك حسنة فعجِّل لها إليه قبل فراق روحه من الدنيا.

فأفاق من غشيته، وفتح عينيه، ثم قال: يا شيخ إن الفتَّاح أرسل المفتاح، أمددْ يُمناك، فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله! ثم خرجتْ روحه.

قال النبيُّ ﷺ مرَّةً لأصحابه: لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناسٌ مُحدَّثون، فإن يكُ في أمتي أحدٌ، فإنَّه عُمر!

جعلَ الله سبحانه وتعالى هذه الدنيا أرزاقاً، ووزَّع كل شيءٍ بحكمةٍ عَلِمَها وإن خفيتْ عن الناس، فاللهُ تعالى لم يخلق فقيراً عن قلة ذات يدٍ منه، ولم يخلق غنياً محاباةً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، ولكنها دار امتحان! وكما وزَّع الله سبحانه الأموال بتفاوتٍ لحكمته، كذلكَ وزَّع الصحة، والعقول، فإن ما بين عقول الخلق من تفاوت أكثر مما في أرزاقهم!

كان الباقلانيَّ داهيةً من دواهي المسلمين، أرسله الخليفة يوماً مبعوثاً منه إلى ملكِ الروم في القسطنطينية، فلما دخل عليه وجد عنده كبار الأساقفة والرهبان، فأراد أن يستغل الموقف للدعوة إلى الله، فتقدَّم بذكاءٍ نحو الراهب الأكبر وقال: كيف حالكَ، وكيف حال زوجتك وأولادك؟

فغضبَ ملكُ الروم وقال له: نزّه كبيرنا، ألا تعلم أن الرهبان لا يتزوجون ولا ينجبون!

فقال الباقلاني: سبحان الله، تُنزِّهون رهبانكم عن الزواج والإنجاب، ثم تتهمون ربكم أنه تزوَّج مريم، وأنجب منها عيسى عليه السلام!

عندها قال له ملك الروم بوقاحة: فما قولك في عائشة؟!

فقال الباقلاني: إن كانت عائشة قد اتُّهمتْ، فإن مريم قد اتُّهمتْ أيضاً، وكلتاهما طاهرة بريئة، ولكن عائشة تزوجتْ ولم تُنجب، ومريم أنجبتْ ولم تتزوج، فأيهما تكون أولى بالتهمة الباطلة وحاشاهما رضي الله عنهما!

فجُنَّ جنون الملك، وقال له: هل كان نبيكم يغزو؟

فقال الباقلاني: نعم.

فقال الملكُ: فهل كان يُقاتل في المقدمة؟

فقال الباقلاني: نعم.

فقال الملك: فهل كان ينتصر؟

قال الباقلاني: نعم

قال الملك: فهل كان يُهزم؟

قال الباقلاني: نعم.

فقال الملك: نبي ويُهزم؟!

فقال الباقلاني: إله ويُصلب؟!

فسكتَ الملكُ ولم يتكلم بعدها بكلمة!

الفكرة من كل هذا أن الناس عقول ومشارب، منهم فائق الذكاء، ومنهم المتوسط، ومنهم من يحتاج مساعدة، إذ يصعب عليه فهم أبسط الأمور، وهذه حقيقة يجب أن يتعامل معها التربويون بجدية تامة!

أما أن تقوم العملية التربوية برمتها على هذه الحقيقة، وانتظار النتائج نفسها، والاستيعاب ذاته من الطلاب جميعاً فهذا كبذر القمح في البحر وانتظاره أن يصير سنابل!

على أن من يحتاج مساعدة، ومتوسط الذكاء ليسا مادة للسخرية ولا للتنمر والتهكم، وإنما يُنظر إلى قدرات المرء العقلية، فيولّى من الأعمال ما يناسب هذه القدرات!

ومن رحمة الله بالناس أنه جعل لكل إنسان عملاً يقوم به ولا يستغني الناس عن عمله ذاك، فالمجتمع سلسلة بحاجة إلى كل حلقاتها لتكتمل.

ثم إن الأمر كله في الإيمان فإنك تجد البسيط من الناس يرتاد المساجد ويسجد لربه ملء قلبه، وتجد رائد فضاءٍ يعبدُ بقرة، وجرّاح أعصاب ينكر أن لهذا الكون خالقاً!

اللهم لا تجعلني مثله!

كان من عادة النبيِّ ﷺ أن يملأَ مجالس أصحابه إفادةَ ومتعة، فأخبرهم ذات مجلسٍ قصةً جميلة من قصص بني إسرائيل فقال: كانت

امرأةٌ تُرضِعُ ابناً لها من بني إسرائيل، فمرَّ بها رجلٌ راكب ذو شارة/ أي مشهور ومُهاب.

فقالتْ: اللهم اجعلْ ابني مثله!

فتركَ ثديها، وأقبلَ على الرَّاكب، وقال: اللهمَّ لا تجعلني مثله!

ثم عاد إلى صدرها.

ثم مُرَّ بأَمَةٍ وهي تُضربُ، فقالت: اللهم لا تجعلْ ابني مثلها!

فتركَ ثديها، وقال: اللهم اجعلني مثلها!

فقالتْ: ولِمَ ذاكَ؟

فقال: الرَّاكب جبَّار من الجبابرة، وهذه الأَمة يقولون سرقتِ وزنيتِ ولم تفعل!

القَصص القرآنيُّ والنّبويُّ ليس مادةً للتسلية وإن كان فيها شيء من المتعة، وإنما هي قصص للعظة والاعتبار، وقبل ذلك للإيمان والتصديق أنَّ هذا قد وقع حقاً مهما استغربه العقل، وخالفَ سُنن الكون، فإنَّ سُنن الكون تجري على الناس لا على الله!

فإبراهيم عليه السلام لم يحترق حقاً، وموسى عليه السلام شقَّ البحر بعصاه فعلاً، ويونس عليه السلام مكث في بطن الحوت صدقاً، وسليمان عليه السّلام كلَّم الحيوان والطير يقيناً!

وهذه قصة من قصص الصادق المصدوق، رواها البُخاريُّ، العِظة بها واجبة، والإيمان بوقوعها أوجب!

يُعلمنا النبيُّ صلى الله عليه وسلم أن لا تخدعنا المظاهر، ولا بهارج الدنيا وزينتها، فالفارس الذي تمنت المرأة أن يكون ابنها مثله كان ظالماً جباراً، والأمة التي تمنَّتْ أن لا يكون ابنها مثلها كانت مسكينة مظلومة!

لا تخدعنَّكَ المظاهر يا صاحبي فإنكَ لو التقيتَ أبا بكر في طرقات المدينة وهو رجل نحيل يتعاهد ثوبه بيده لربما لم تلتفِتْ إليه وهو أفضل الناس بعد الأنبياء!

ولو أنكَ التقيتَ بعمر بن الخطاب في طرقات المدينة ورأيته يمشي مسرعاً بثوبه المرقَّع لربما قلتَ رجل ملهوف يُسابق ليحصل على صدقة، وهو الذي لو سلكَ فجاً لسلكَ الشيطان فجاً غيره!

ولو أنكَ رأيتَ حُذيفة بن اليمان في أهل الصفة ينتظر أن يتصدَّق أحدٌ عليهم ليأكل معهم، لقلتَ يا له من مسكين، وهو حافظ سرّ النبي صلى الله عليه وسلم!

لا تخدعنَّكَ المظاهر يا صاحبي، فإنك إن رأيتَ قارون في ماله لتمنيتَ كما تمنى الذين من قبلك أن يكون لهم مثل ما له، ثم لم يمضِ وقت طويل حتى خُسفَ به وبداره الأرض!

ولو أنكَ رأيتَ فرعون في ملكه وصولجانه، يأمر وينهى، لتمنيتَ رزقاً كرزقه، ومكانة كمكانته، ثم دار الزمان فإذا هو طاغية غريقٌ، مُلقى على الشاطئ ليكون لمن خلفه آية!

وإنك يا عُمر مثل نوح!

انتهتْ غزوة بدر بنصر ساحقٍ أعزَّ اللهُ تعالى فيه الإسلام وأهله، وأذلَّ فيه الشركَ وأهله، وجيء بالأسرى إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ولما لم يكن لديه شيءٌ من الوحي بخصوصهم استشار فيهم أصحابه.

فقال أبو بكر: يا رسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذنا منهم قوة على الكفار، وعسى الله أن يهديهم فيكونوا لنا عضداً.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر: ما ترى يا ابن الخطاب؟

فقال عمر: واللهِ ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكنني من فلانٍ قريبي فأضربُ عنقه، وتُمكِّن علياً من عقيل فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أنه ليست في قلوبنا هوادة للمشركين.

فدخل النبيُّ صلى الله عليه وسلم خيمته ولم يكلم أحداً، فجعل بعض الناس يقول يأخذ برأي أبي بكر، وبعضهم يقول يأخذ برأي عمر. ثم خرج من خيمته فقال: إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألينَ من اللبن، وإن الله ليشدد قلوب رجالٍ فيه حتى تكون أشد من الحجارة. وإن مثلكَ يا أبا بكر كمثل إبراهيم حين قال: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. وكمثلِ عيسى قال: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. وإن مثلكَ يا عمر كمثلِ نوح حين قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾. وكمثلِ موسى حين قال: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾.

ثم أخذ النبي صلى الله عليه وسلم برأي أبي بكر.

فلما كان الغد، جاء عمر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فوجدوه وأبي بكر يبكيان، فقال: يا رسول الله أخبرني ماذا يُبكيكَ أنتَ وصاحبكَ، فإن وجدتُ بكاءً بكيتُ، وإن لم أجد تباكيتُ لبكائكما؟

فأخبره النبي صلى الله عليه وسلم أن الله لم يرضَ عن الفداء وأنزل قوله ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾.

الشاهد في القصة أنَّ الناس طباع مختلفة حتى الأنبياء! والطبع لا علاقة له بمستوى الإيمان، فإبراهيم وعيسى ونوح وموسى عليهم السلام من أولي العزم من الرسل، ولكن في إبراهيم وعيسى عليهما السلام لين طبع ليسا في نوحٍ وموسى عليهما السلام! تماماً كما في أبي بكر لين، وفي عمر شِدة وحزم، وهما خير الأمة بعد نبيِّها صلى الله عليه وسلم.

كثيرٌ من مواقف الناس في الحياة مردود للطبع لا الإيمان، فلسنا نفاضل بين إيمان الأنبياء، فكلهم في الذروة من الإيمان، أما في الطباع فهم مذاهب، فما بالك بسائر الناس؟!

من الناس العصبي والحليم،

الشديد واللين،

الكريم والبخيل،

وفهم طباع الناس الذين نتعامل معهم يوفِّر عناءً كثيراً،

ويشرح لنا مواقف أكثر!

فافهموا طباع الناس تجتازوا نصف الطريق في التعامل معهم!

أين المتآلي على الله؟!

سمعَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم شِجار خصمين بالباب قد ارتفعتْ أصواتهما، وإذا أحدهما يطلب من صاحبه أن يخفف عنه الدَّين الذي أقرضه إياه شيئاً، وأن يترفقَ به في السداد، ويطيل له المدة.

فقال له صاحبه: واللهِ لا أفعل!

فخرج عليهما النبيُّ صلى الله عليه وسلم فقال: أين المتآلي على الله لا يفعل المعروف؟

فقال: أنا يا رسول الله، وله أي ذلكَ أحبَّ/ أي فليخترْ لنفسه أن أُخفف عنه من الدَّين، أو أترفْقَ به في السَّداد وأطيل له المدة!

ليستْ العبرة في الحديث أن نقف ضد صاحب الحق، ولا أن نشجِّع الناس على عدم أداءِ ديونهم، ودفع ما عليهم من مستحقات، وإنما العبرة أن يتعامل الناس بأخلاق ورحمة قبل أن يتعاملوا بالحق والواجب!

هذه الدنيا لا تستقر على حال، يوم فقر ويوم غنى، ويوم صحة ويوم مرض، وما منا إلا وقد مرَّتْ به ظروف قد احتاجَ غيره فيها، أو مرَّتْ بغيره ظروف سخَّره الله ليقف إلى جانبه، فليستْ سُبَّةً أن تضيق الحال بالمرء،

وليست منقصة أن يقصد غيره ليفكَّ ضائقته، وقد توفي النبي صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند يهودي!

ولكن العيب أن تكون المعاملة بين الأرحام، والأصدقاء، والجيران من مبدأ: دبِّرْ نفسكَ أنا أريد حقي!

طبعاً أنت صاحب الحق، ولا يلغي حقك شيء غير أن تتنازل عنه بإرادتك، وإنما الفكرة أن الإنسان في عبادة طوال يومه، والإحسان إلى الناس من أرقى العبادات، وأحبها إلى الله سبحانه وتعالى، وفرق شاسع بين من ينكر أن لكَ مالاً عنده من الأساس، وبين من يأتيك منكسراً، يطلبُ منكَ شيئاً من الرفق، والتيسير، الأول عليكَ أن تسلك كل الطرق المشروعة والمتاحة معه لاستعادة حقك، ولو لجأتَ إلى القضاء. أما الثاني فمن العيب أن لا ترحم كرامته، وتجبر خاطره، وتحفظ له ماء وجهه!

وتذكر دوماً أنكَ تتعامل مع رب كريم وفيّ،

يُثِيب على الحسنة من نوعها،

فمن فرَّجَ عن مسلمٍ كربةَ من كُرب الدنيا، فرَّج الله عنه كربةً من كرب الآخرة،

ومن سترَ مسلماً في الدنيا ستره الله يوم القيامة،

وليس في الآخرة فقط وإنما في الدنيا كذلكَ،

الله أكرم من أن تعينَ إنساناً ثم إذا احتجتَ عوناً أن لا يسخِّر لكَ من يعينك،

والله أكرم من أن تجبر خاطر إنسان ثم يترك خاطركَ مكسوراً،

كل يد مساعدة تمدها للناس،

كل جبر خاطر، كل عفو وصفح، كل قضاء حاجة، كل ستر، يحفظه الله لكَ،

فإذا دارتْ بكَ الأيام وجدتها أمامكَ كفلق الصبح،

أو لعلَّ الأيام لن تدور بكَ من الأساس لأنكَ شكرتَ النعمة بحسن فعلك،

وبالشكر تدوم النِعم!

إنَّ من البيان لسحرًا

دخلَ عمرو بن الأهتم والزِّبرقان بن بدر على النبيِّ صلى الله عليه وسلم، فسأل عمرو بن الأهتم عن الزبرقان، فقال: يا رسول الله، مطاعٌ أدنيه، شديد العارضة، مانع لما وراء ظهره!

وهنا يهجو عمرو بن الأهتم الزبرقان بن بدر!

فقال الزبرقان يدافع عن نفسه: يا رسول الله، إنَّه ليعلمُ مني أكثر من هذا، ولكنه حسدني!

فقال عمرو: أما والله إنه لزَمر المروءة، ضيِّق العطن، أحمق الوالد، لئيم الخال، واللهِ يا رسول الله ما كذبتُ في الأولى، ولقد صدقتُ في الأخرى، ولكني رجلٌ رضيتُ فقلتُ أحسن ما علمتُ، وسخطتُ فقلتُ أقبح ما وجدتُ!

فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: إنَّ من البيان لسحراً!

فجرى قوله في العرب مجرى المثل، وهو على أحد معنيين عند أهل اللغة:

الأول: أن بعض الكلام يصل حداً من البلاغة يأسر القلوب، ويأخذ الألباب، لما فيه من حلاوة وطلاوة!

الثاني: أن بعض البيان يعمل عمل السِّحر في إظهار الباطل بصورة الحق!

على أنَّ الناس هم الناس في كل عصر، إذا رضوا أظهروا في المرء أحسن ما فيه، وإذا سخطوا أظهروا أسوأ ما فيه، وقد قالت العرب: الحبُ يُعمي ويصمُّ! أي أنه لا يجعلكَ ترى عيوب محبوبكَ، ولا تُصدِّق فيه كلاماً قيل فيه!

لهذا لا تأخذ حقيقة شخص من اثنين: من محبٍّ له بجنون، ومن كارهٍ له بجنون، فكلاهما لا يعدل!

ومن سحر البيان قال الربيع: قلتُ للشافعيِّ: من أقدر الناس على المناظرة؟

فقال: من عوَّدَ لسانه الركض في ميدان الألفاظ، ولم يتلعثم إذا رمقته العيون بالألحاظ!

وعن فصاحة الشافعي أنه ماتَ لعبد الرحمن بن مهدي ابن، فجزع عليه جزعاً شديداً، حتى امتنعَ عن الطعام والشراب، فبلغَ ذلكَ الشافعي، فكتبَ إليه يقول: أما بعد، فعزِّ نفسكَ بما تُعزي به غيركَ، واستقبحْ من فعلكَ ما تستقبحه من فعل غيرك! واعلمْ أن أضرَّ المصائب فقد سرور مع حرمان أجر، فكيف إذا اجتمعا على اكتساب وزر؟ وإني أُعزيك لا لأني على ثقة من الخلود ولكن سُنَّة الدين، فما المعِزِّي بباقٍ بعد صاحبه ولا المعزَّى ولو عاشا إلى حين!

فحفظ الناس هذا الكتاب، وكانوا يتهادونه في البصرة في المصائب!

إنه من أهل النار!

التقى النبيُّ صلى الله عليه وسلم بجيشه مع جيش المشركين ونشبَ بين الفريقين قتال، ثم عاد كل منهما إلى معسكره بانتظار الجولة الأخرى من المعركة، وكان في

جيش النبي صلى الله عليه وسلم رجلٌ أبلى بلاءً حسناً في القتال، وأثخنَ في المشركين، حتى قال الصحابة للنبيّ صلى الله عليه وسلم: ما أجرأ منا اليوم أحد كما أجرأ فلان، يثنون على شجاعته.

فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: أما إنه من أهل النار!

ثم نشبَ القتال مجدداً، ومنَّ اللهُ على المسلمين بالنصر، وجاء رجل من الصحابة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال له: أشهدُ أنكَ رسول الله!

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: وما ذاك؟

فقال: الرَّجلَ الذي ذكرتَ آنفاً أنه من أهل النار، فاستغربَ الناس ذلكَ، تبعته أرى ماذا يفعل، فقاتلَ المشركين قتالاً شديداً، ثم أُصيب وجُرِحَ جرحاً شديداً فاستعجلَ الموتَ، فوضع نصلَ سيفه في الأرض، وذبابه عند صدره، ثم تحاملَ عليه فقتلَ نفسه!

وحدَّثَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم أصحابه مرةً فقال لهم: كان فيمن كان قبلكم رجلٌ به جُرحٌ فجزعَ/ خافَ، فأخذ سكيناً فخرَّ بها يده/ قطع شراينه، فما رقأ/ توقف الدم حتى ماتَ. فقال الله تعالى: بادرني عبدي بنفسه حرَّمتُ عليه الجنَّة!

كثرتْ ظاهرة الانتحار مؤخراً بين الناس، فلا يمضي شهر إلا ونسمع عن شخصٍ قتلَ نفسه بعدما ضاقتْ في وجهه الحياة.

لنكن منصفين أن الحياة صعبة، وأن الإنسان يقع في مشكلات يراها أكبر من قدرته على التحمل، ولكن لنحسبَ الأمور بعقل وحكمة، فلو كانت الحياة الدنيا نهاية المطاف، لقلنا إذاً أن الانتحار انسحاب الجبناء من مواجهة ظروفهم، ولكنه حل وإن كان حلاً عاجزاً وجباناً، ولكن كما نؤمن جميعاً أن الحياة الدنيا ليست إلا دار امتحان، وأن الحياة الحقيقية في الآخرة حيث لا مكان للإنسان فيها إلا في الجنة أو في النار، وبهذا يصبح الانتحار خسارة للدارين معاً، دار الدنيا ودار الآخرة!

ظاهر النصوص النبوية الشريفة قاطعة أن المنتحر في النار، ولكن علينا أن نتأدب مع الله سبحانه، ونعرفُ أن أمر الناس جميعاً إلى الله، بغض النظر عن أي طريقة ماتوا بها، فإن عذبَّ فقد عدلَ، وإن عفا فقد رحمَ. والمنتحر على عظم جرمه وخطيئته لا يخرج من دائرة الإسلام، وإنما يُغسَّل ويُكفَّن، ويُصلى عليه، ويُدفن في مقابر المسلمين، هذا الكلام لنا بعد أن يقع الانتحار، أما كل من فكَّر فيه، فعليه أن يعلمَ أن رجلاً جاهدَ مع النبي صلى الله عليه وسلم فلم يشفع له ذلكَ لأنه قتلَ نفسه!

فواجهوا ظروفكم،

واصبروا، وما بعد العسر إلا اليسر،

ومن تصبَّر يصبره الله،

ودعكم من أفكار الجُبن والانسحاب وقتل النفس،

فالحياة مهما كانت صعبة تبقى أهون من غمسة واحدة في النار!

لا يتحدَّثُ النَّاس!

في الطريق إلى غزوة بني المصطلق، لطمَ رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاريُّ: يا للأنصار!

وقال المهاجري: يا للمهاجرين!

فقال النبي ﷺ: ما بال دعوى الجاهلية؟

قالوا: يا رسول الله لطمَ رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار!

فقال النبيُّ ﷺ: دعوها فإنها مُنتنة/ أي العصبية الجاهلية!

فقال عبد الله بن سلول رأس النفاق: واللهِ لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذل!

يريدُ أن يقول إن المهاجرين قلة، أذلاء، وأنه سيطردهم ضارباً عرض الحائط كلام النبي صلى الله عليه وسلم عن نتن العصبية الجاهلية.

فقال عمر بن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم: دعني أضربُ عنق هذا المنافق!

فقال له النبيُّ صلى الله عليه وسلم: دعه، لا يتحدَّثُ الناس أن محمداً يقتل أصحابه!

حادثة عظيمة لمن وعاها بقلبه وعقله.

ابن سلول يصف النبيُّ صلى الله عليه وسلم والمهاجرين الذين معه بالأذلاء، وتوَّج هذا النفاق بأن عاد بثلث الجيش إلى المدينة قبل المعركة، كان أكثرهم منافقين على شاكلته، والأمر لم يتعلق يوماً بالعدد وإنما بالنوعية، وصدق ربنا حين قال: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾

وهو يستحقُّ القتل، ورأي عمر بن الخطاب صواب، بدليل أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم لم يقُل له لا يا عمر إنه لا يستحق القتل، وإنما أقرَّ الحُكم، ولكنه تركه مع وقف التنفيذ لحكمة عظيمة: لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه!

الحياة تضعنا أحياناً في امتحانات شاقة، نعرفُ الصواب الذي يجب أن نقوله أو نفعله، ولكن الحكمة تقتضي أن لا نقول ولا نفعل، أن نصبر

ونتغاضى لأجل قاعدة عظيمة من قواعد هذا الدين العظيم: درءُ المفاسد مقدَّم على جلب المصالح!

لا شك أنه في قتل ابن سلول مصلحة، ولكن يقابلها مفسدة عظيمة أن يقول الناس أن النبي صلى الله عليه وسلم يقتل أصحابه، والناس بعيدون لم يروا ولم يسمعوا، ولم يقفوا على تفاصيل الحادثة، وكل ما يعنيهم هي النتيجة، وقد أراد النبيُّ صلى الله عليه وسلم أن يصبر لأجل سمعته، وسمعة دعوته!

في الحياة لو خاصمتَ وقاطعتَ بعد أذى نالكَ ما كنتَ مخطئاً، ولكن الحكمة تقتضي أن لا تفعل كي لا يُقال إنك العاق أو القاطع، الناس لا ترى إلا النتائج أما الأسباب التي أدت إلى ذلك فلا تراها وعلى المرء أن يشتري سمعته، فالإنسان نهاية المطاف سُمعة!

فطوبى للغرباء!

قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم يوماً لأصحابه: بدأ الإسلام غريباً، وسيعودُ غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء!

عندما نسمعُ لفظ الغرباء قد يتبادر إلى الذهن فوراً صور أشخاص يعيشون على هامش المجتمع، قد اعتزلوا الناس، ثيابهم بالية، وشعورهم منكوشة، لا وظائف لديهم ولا أعمال، لا دراسة ولا إنجازات!

أيها السادة هو وصف الانطوائيين المهزومين لا وصف الغرباء!

الغرباء لا يمكن تصنيفهم من مظاهرهم، إنهم أشخاص ينتمون إلى كل شرائح المجتمع، تجدونهم بين الأطباء والمهندسين، وبين الحدادين والنجارين، وبين سائقي سيارات الأجرة وكناسي الطرقات، بين طلاب الجامعات والذين لا يعرفون كتابة أسمائهم، بين ربات البيوت وبين المدرسات والممرضات!

إنهم أشخاص لديهم عائلات ووظائف، وأحلام وطموحات، أحزان ومواجع، ابتسامات وضحكات، يعيشون في المجتمع الذي نعيشه، أما غربتهم ففي قلوبهم التي تعتصرُ ألماً إلى ما صار إليه حال الإسلام والمسلمين، يتوجعون إذا رأوا المراقص وليس في أيديهم شيء، ويتألمون إذا رأوا الخمور تُباع في المحلات وهم لا حول لهم ولا قوة، ويحزنون إذا رأوا نساء مسلمات سافرات دون حجاب، وشبابهم قد عزفوا عن المساجد والصلوات! فإذا خلوا بربهم شكوا إليه غربتهم، وبثوه أنينهم، وأخبروه أن كل هذا لا يرضيهم!

الغرباء ليسوا بسطاء إنما مؤمنون تتوجع قلوبهم من حال مجتمعاتهم!

لقد بدأ الإسلام غريباً، فكيف كان الغرباء الأوائل، الاجابة عن هذا السؤال تشرحُ لنا حال الغرباء الآن!

كان أبو بكر تاجراً ناجحاً وثرياً، يبيعُ ويشتري، ويُعتِقُ العبيد من المسلمين، كان وجهاً اجتماعياً مرموقاً، ورجلاً يُشار إليه بالبنان، غربته كانت في قلبه، في توجعه وحزنه على ضلال قومه وكفرهم!

كان المقداد بن الأسود فارساً لا يُشقُّ له غبار، محارباً من الطراز الأول، قوياً وحازماً، يعيش كما الأبطال، ولكن غربته كانت في قلبه، وحزنه على حال مكة التي تعبدُ الأصنام يدميه!

وكان عمر بن الخطاب ممثل بني عديٍّ في دار الندوة، فصيحُ اللسان، قوي البنية، تعرفه قريش كلها وتهابه، ولكن غربته أيضاً كانت في قلبه!

وكان مصعب بن عمير وسيماً جداً، أنيق الثياب، طيب الرائحة، حتى أن الفتاة إذا رأته في الطريق افتخرتْ في ذلك اليوم على صديقاتها أنها رأت مصعب بن عمير، ولكن غربة مصعب كانت في قلبه!

وحمزة بن عبد المطلب كان غريباً أيضاً رغم أنه لم يكن ضعيفاً مسكيناً، كان صلباً قوياً، وكانت قريش تلقبه بصائد الأسود، هذه كانت هوايته،

وهو الذي صفع أبا جهلٍ، وقال له: ردها عليَّ إن استطعتَ! فلم يجرؤ أن يردها عليه!

الغربة في القلب،

وأي انعزال عن المجتمع،

وأي بطالة بحجة الغربة ما هي إلا خنوع وانهزام،

وليست من الغربة في شيء!

لا يتمنيَنَّ أحدكم الموت!

مرضَ الصحابي الجليل خبَّابُ بن الأرت، واكتوى في بطنه سبع كيَّاتٍ، فجاءه أصحابه يعودونه مما نزل به، فقال لهم من شدة وجعه: لولا أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم نهانا أن ندعو بالموتِ لدعوتُ به!

هذه الدنيا دار بلاء، لأنها بالأساس خُلقتْ دار امتحان لا دار جزاء، ومن امتحانات الخالق العظيم لخلقه أن يبتليهم بالمرض، تحبباً، وتكفيراً للذنوب، وتعظيماً للأجر، وقبل كل هذا هو اختبار حتى ينظرُ اللهُ سبحانه هل يجتازه عبده أم يرسب فيه! فإن كان الأنبياء قد كدَّرَ اللهُ لهم الدنيا، وابتلاهم بالفقد والمرض والفقر، فلا غرابة بمن دونهم، وما أيوب عليه

السلام منكم ببعيد، وبأبي وأمي النبيَّ ﷺ وهو يتلوى من الألم ويقول: إني لأوعكَ كما يوعكُ الرجلان منكم!

نحن مأمورون بالصبر على المرض، فإن كان الشفاء بعده فقد فزنا بالامتحان، وإن كان الموت فلقاء العبدِ ربَّه صابراً فوز ساحق أيضاً!

على أنَّ الإنسان يجب أن يعلم أن الشدة بتراء لا دوام لها، وأن المرضَ في أغلب الأحوال يعقبه الشفاء، فمهما ضاقتْ بالعبد أمراضه، وزادت أوجاعه، فليحسِن الظن فثمة شفاء قادم!

مرضَ سعد بن أبي وقاص فعاده النبيُّ ﷺ، فأخذ سعد يسأله عن الوصية، وكيف يفعل بماله، ظنَّ سعد أنها النهاية، ثم ها هو قد شفيَ وعاش بعدها عشرات السنوات!

ومرضَ رجلٌ فعاده النبيُّ ﷺ، فلاحظ أن وجعه شديد، فقال له: أكنتَ تدعو بشيءٍ؟

فقال: أجل، كنتُ أقول اللهم ما كنتَ معذبي بشيءٍ في الآخرة فعجله لي في الدنيا!

فقال له النبيُّ ﷺ: سبحان الله، إنكم لا تطيقون، هلا قلتَ اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار!

فقالها الرجل فشفيَ!

ألم المرض شديد لا شك،

والإنسان قد ينفد صبره،

نحن بشر نهاية المطاف،

ولكن تمني الموت منهي عنه،

وحُسن الظن بالله أولى،

والإقبال عليه سبحانه بالدعاء والتضرع أجدى،

ثم مرحباً بقضاء الله مهما كان.

حُسْنُ الخُلُق!

عندما أراد الله تعالى أن يمدح نبيَّه في القرآن لم يمدحه بوسامته رغم أنه كان كفلقة القمر، ولم يمدحه بنسبه رغم أنه من أرفع الناس نسباً، وإنما مدحه بحسن أخلاقه فقال عزَّ من قائل: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾

أهم درسٍ في الإسلام هو الأخلاق فإن فاتكَ فإنكَ لم تُدرك من الإسلام إلا القليل، وفي هذا يقول ابن القيم: الدين كله خُلق فمن فاقكَ في الخُلق فقد فاقكَ في الدين!

وعن الأخلاق قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: أحبُّ عباد الله إلى الله أحسنهم خُلقاً.

وقال: إنَّ من أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً!

وقال: ما من شيءٍ أثقلُ في الميزان من حسن الخلق.

وعندما سُئلت عائشة عن أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم قالت: كان خُلقه القرآن!

كان الشيخ عبد الرحمن السُميط رحمه الله في مهمةً دعوية في إفريقيا، وهو الذي أسلم على يديه أحد عشر مليون شخص على مدى تسعةٍ وعشرين عاماً، فتعطَّلتْ سيارته في منطقة نائية، ومرَّ به قس إيطالي ورفضَ مساعدته، وقال له بسخرية: ادعُ محمداً أن يُنقذك!

أصلحَ الشيخ السيارة، وتابع مسيره، وقدَّر اللهُ أن يُصادف القسَّ الإيطالي في الطريق وقد تعطلتْ سيارته! فترجَّل من السيارة برفقة شباب معه، وقاموا بمساعدة القس حتى عادتْ سيارته إلى العمل!

أخذ القس يتصببُ عرقاً من الخجل، فقال له الشيخ: هذه الأخلاق ليست من عندنا، هذا ما أمرنا به ديننا!

يقول الشيخ معلقاً على الحادثة: بعد مُدَّةٍ جاءني خبر إسلام كل من كان مع القس في السيارة وكانوا من المسيحين الكاثوليك، من دون أن نكلمهم كلمةً واحدة!

يمكنُ يا سادة أن يكون المرءُ داعياً إلى الله بحسنِ أخلاقه، فإنَّ بلاداً كثيرة مثل إندونيسيا وماليزيا لم تفتحها جيوش المسلمين، وإنما فتحها التجار المسلمون بحسن أخلاقهم، وصدق كلامهم، والتزامهم بمواعيدهم، وعدم الغش!

صحيح أننا أُمرنا بحُسن الخُلق مع الناس جميعاً،

ولكن الأقربين أولى بالمعروف،

فلنراجع أخلاقنا في بيوتنا،

مع زوجاتنا وأولادنا،

مع جيراننا وأقاربنا،

مع زملاء العمل والدراسة،

مع زبائن دكاننا،

مع مرضانا في العيادات، وعملائنا في الشركات!

الجنة ليست بعيدة كما نتوهم،

إنها قريبة جداً،

وبإمكاننا أن نخطو إليها كل يوم حين نُعامل الناس بأخلاق الإسلام!

خشيتُ أن يقذفَ في قلوبكما شراً!

روى المباركفوري في كتابه سيرة الإمام البخاري قال:

ركبَ الإمام البخاري سفينة وكان معه ألف دينار، فجاء إليه رجل من أهل السَّفينة وأظهر له الحب والمودة وأخذ يتقرب منه ويجالسه، ولما رأى البخاري منه هذا التودد حدَّثه عن الدنانير التي معه. وفي اليوم التالي قام هذا الرجل من نومه يبكي ويمزق ثيابه ويلطم وجهه، فاجتمع عليه ركاب السفينة يسألونه عن سبب فعله هذا، فأخبرهم أنه لديه صرة فيها ألف دينار وقد سُرقت منه، وهو يريد بهذا أن يأخذ مال البخاري!

فأخذ الناس يبحثون في السفينة معه، وعندها أخرج البخاري صرة دنانيره وألقاها في البحر دون أن يراه أحد، وهكذا فاتت على هذا المخادع فرصة لسرقة الدنانير!

في وقتٍ لاحق جاء الرجل إلى البخاري وسأله: ماذا فعلتَ بالدنانير؟

فقال له: ألقيتها في البحر!

فقال: كيف صبرتَ على ضياع هذا المال منك؟

فقال له البخاري: أفنيتُ عمري أجمع أحاديث النبي ﷺ، وعرفَ الناس صدقي وأمانتي، ولو أبقيتُ الدنانير معي لصدَّقكَ الناس في دعواك، واتهموني في أمانتي، وثقتي وعدالتي أثمن من دنانيري!

هذا الفهم للاهتمام بالسُّمعة الحسنة للإنسان بين الناس، استقاه البخاري من حادثة يعرفها جيداً حدثت مع النبي ﷺ، فقد كان معتكفاً في المسجد، فجاءت إليه أمنا صفيّة فحادثته، فلما أرادت أن ترجع إلى بيتها، قام معها ليوصلها، ومرَّ رجلان فرأياه، فأسرعا الخُطى، فقال لها: على رسلكما، هذه صفية بنت حُيي!

فقالا: سبحان الله يا رسول الله! أي وهل أنتَ موضع شك؟!

فقال: إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيتُ أن يقذف في قلوبكما شراً!

يُعلمنا النبيُّ ﷺ أن يحرص المرءُ على سُمعته، وأن لا يجعل نفسه موضع شُبهة عند الناس، فبرغم أنه المرسل المعصوم الذي مدحه ربه تعالى في القرآن بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ إلا أنه يعرف الطبيعة البشرية جيداً! فإذا كان هو بنبوته واصطفائه حرص على سمعته، فكيف بمن هم دونه، وجميعنا دونه!

كان أحد التجار جالساً في دكانه وعنده زبائن، فدخل عليه رجل وقال له: أين الدراهم الخمسة التي وضعتها عندك أمانة.

ففتح كيس نقوده، وأخرج خمسة دراهم وقال له: تفضّل هذه دراهمك!

أخذها الرجل ومضى، ولكنه بعد قليل عاد وقال له: يرحمكَ الله كنتُ قد وضعتُ الدراهم أمانة عند رجل حسبته أنتَ، فلما لقيته تذكرته، وعرفتُ أنه ليس لي عندك دراهم، فلِمَ أعطيتني ما ليس لي؟!

فقال له: أنا تاجر، والتاجر سُمعة، ولو قلتُ لكَ ليس لكَ عندي شيء لكان الناس فيَّ فريقين، فريق كذَّبني، وفريق شكَّ فيَّ، وما كنتُ لأريق سمعتي لأجل خمسة دراهم!

لا تُعينوا عليه الشيطان!

أُتيَ النبيُّ ﷺ برجلٍ قد شرب الخمر، فقال: اضربوه.

فضربه الصحابة حدَّ شارب الخمر.

فلما انصرفَ قال له بعضهم: أخزاك الله!

فقال لهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم: لا تقولوا هكذا، لا تُعينوا عليه الشيطان، ولكن قولوا: اللهمَّ اغفر له، اللهمَّ ارحمه!

كان لعمر بن الخطاب صديقٌ حسنُ الخُلق والسيرة، ذهبَ إلى الشَّام فيمن ذهب إليها بعد فتحها، ثم ما لبثَ أن انقلبتْ أحواله، وزيَّن له الشيطان أعماله، فأقبل على شرب الخمر حتى عُرف ذلك عنه.

وحدثَ أن جاء رجلٌ من الشام، فأخذ عمر يسأله عن الناس والحُكم وسير الأمور، وكان ممن سأل عنهم صاحبه هذا.

فقال الرجل: ذاك أخو الشيطان، إنه قارف الكبائر حتى وقع في الخمر!

فكتب إليه عمر يقول: من عمر بن الخطاب إلى فلان، سلامٌ عليكَ فإني أحمدُ إليك الله، ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾

ثم قال لأصحابه: ادعوا لأخيكم أن يُقبل بقلبه، ويتوب الله عليه.

فلما بلغَ كتابُ عمر الرَّجُلَ، جعلَ يقرأه ويردده، ويقول: غافر الذّنب، قابل التَّوب، شديد العقاب، وقد حذَّرني عقوبته، ووعدني أن يغفر لي، فلم يزل يرددها على نفسه، حتى بكى، وتاب، وأحسن التوبة.

فلما بلغ عمر بن الخطاب خبره قال: هكذا فاصنعوا، وإذا رأيتم أخاً لكم زلَّ زلة فسددوه، وادعوا الله أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه!

بهذه الشَّريعة جاء النبيُّ صلى الله عليه وسلم، بالسماحة والإشفاق، باللين والرحمة، بالأخذ بيد الناس إلى الله لا بالوقوف بينهم وبينه!

ما أرسل الله تعالى الأنبياء إلا للعصاة من خلقه، ولو كانوا مؤمنين ما احتاجوا إلى الأنبياء أساساً!

أرسلهم وملأ قلوبهم رحمة على خلقه، فإذا عاد أحد من الناس إلى الله فرحوا بعودته، وإذا ضلَّ إنسان ومات على ضلالة حزنوا لإنسان هلكَ على هذه الشاكلة!

زار النبيُّ صلى الله عليه وسلم يهودياً، فوجد له ابناً مريضاً، فجعل يعرض الإسلام عليه، والصبيُّ ينظر إلى أبيه.

فقال له الأب: أطِعْ أبا القاسم!

فأسلم الصبيُّ، وخَرج النبيُّ صلى الله عليه وسلم وهو يقول: الحمدُ لله الذي أنقذه من النار!

كم مرة انتكس صديق لنا فأخذنا بيده، وقلنا له: هذا ليس أنتَ، أنتَ الذي أعرفه يمشي في طريق الله، فوعظناه وذكرناه باللين والرحمة! فإن عاد فالحمد لله وإن لم يعد، فقد أعذرنا إلى الله وقمنا بواجبنا تجاه صديقنا!

هل قمنا في الثلث الأخير من الليل وتوضأنا، وصلينا ركعتين وقلنا: اللهم فلاناً صديقنا، كان يمشي إليك ثم انتكس فأعده إلى طريقك؟!

أَتَزَوَّجتَ؟!

يقول جابر بن عبد الله: كنتُ مع النبيِّ صلى الله عليه وسلم في غزوةٍ، فأبطأ بي جَملي، فمررتُ على النبيِّ صلى الله عليه وسلم فقال: جابر؟

قلتُ: نعم.

فقال: ما شأنك؟

فقلتُ: أبطأ بي جملي، فتخلفتُ.

فنزل النبيُّ صلى الله عليه وسلم عن راحلته، وجعل يدفع جملي بيده، ثم قال لي: اِركبْ!

فركبتُ، فقال لي: أتزوجتَ؟

قلتُ: نعم.

قال: بكرٍ أم ثيِّباً؟ والثيب التي سبقَ لها الزواج من قبل فهي إما مُطلقة أو أرملة.

قلتُ: بل ثيباً.

فقال: أفلا جارية تُلاعبها وتلاعبك، وتُضاحكها وتُضاحكك؟

فقلتُ: إنَّ أبي ماتَ وتركَ سبع بناتٍ، وإني كرهتُ أن أجيئهنَّ بمثلهنَّ، فأحببتُ أن أتزوج امرأةً تجمعهنَّ وتمشطهنَّ وتقوم عليهنَّ.

فقال: باركَ اللهُ لكَ.

ثم قال لي: أتبعُ جَملك؟!

فقلتُ: نعم.

فاشتراه مني بأوقية من فضة.

ثم وصل النبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى المدينة قبلي، ووصلتُ في المساء، فجئنا إلى المسجد، فوجدته بباب المسجد، فقال لي: الآن قدمتَ؟

قلتُ: نعم.

فقال: دَعْ جملكَ وادخُلْ فصَلِّ ركعتين.

فدخلتُ، فصليتُ، وأمرَ بلالاً فوزنَ لي أوقية من فضة، فأخذتها، فلما انصرفتُ، نادى عليَّ وقال: خُذْ جملكَ ولكَ ثمنه!

يُعلمنا النبيُّ صلى الله عليه وسلم درساً بليغاً من دروس الحياة، وهو أن نفسية البنت البكر، الصغيرة في السِّن أنفع للزواج، لأنَّ فيها إقبالاً على الحياة والزواج ليسا في المرأة الثيب التي عادة ما أن يكون لها أولاد فهي مشغولة بهم، أو مكلومة من الحياة من طلاق سبقته حياة عسيرة، وضرر قد يدفع الزوج الجديد ثمنه!

ويُعلمنا جابر درساً بليغ أيضاً، وهو أن يُقدِّر كل إنسان ظروفه، ويتصرف على هذا الأساس، وقد أحسنَ إذ تزوج امرأة ثيباً، لأنه لو أحضرَ إلى البيت فتاةً صغيرة بعمر أخواته اللواتي يقوم على تربيتهن لضعنَ، ولفرَّط في هذه الأمانة، وأكثر ما أعجبُ منه أن الرجل إذ ماتت زوجته، أو حصل بينهما طلاق سعى للزواج بفتاة بعمر بناته وهُنَّ معه، وهذا إن لم يكن حراماً بلا شك، إلا أنه ليس فيه شيء من فقه الحياة!

ثم انظروا إلى جبر الخواطر، جابر رجل فقير، وقد تزوَّج، وقد أراد النبيَّ صلى الله عليه وسلم أن يُعينه ببعض المال، بالمقابل أراد أن يحفظ له كرامته، فاشترى منه الجمل، ثم أعطاه ثمنه، وأعاده إليه!

يوجد ألف طريقة لمساعدة الناس دون جرح كراماتهم، فتخيروا طُرق العطاء!

اللهمَّ زوِّجْ أم سلمة!

كانت أم سلمة وزوجها من المسلمين الأوائل، هاجروا إلى الحبشة، ثم إلى المدينة، فكانا من أصحاب الهجرتين!

كلاهما عريقٌ في نسبه، ابنا عمومة من بني مخزوم، ويزيدُ عليها أبو سلمة في النسب أنه ابنة عمة النبيِّ صلى الله عليه وسلم، وأخوه من الرضاعة!

قالتْ أم سلمة يوماً لأبي سلمة: بلغني أنه ما من امرأةٍ يموتُ زوجها وهو من أهل الجنة، ثم لم تتزوج بعده، إلا جمع الله بينهما في الجنة، فتعال نتعاهد ألاَّ تتزوج بعدي ولا أتزوج بعدكَ!

فقال لها أبو سلمة: أتطيعيني؟

فقالت له: نعم.

فقال: إذا متُّ فتزوجي، اللهمَّ زوِّج أم سلمة بعدي رجلاً خيراً مني، لا يحزنها، ولا يؤذيها!

فلما مات أبو سلمة، قالت أم سلمة في نفسها: من خيرٌ من أبي سلمة؟!

ولما انقضتْ عدَّتها خطبها النبيُّ صلى الله عليه وسلم!

فأرسلت إليه: مرحباً برسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكني امرأة شديدة الغيرة، وإني ذات أولادٍ صغار، وليس أحدٌ من أوليائي شاهد!

فبعثَ إليها النبيُّ صلى الله عليه وسلم يقول: أمَّا أنكِ شديدة الغيرة فسأدعو الله أن يُذهبَ غيرتكِ، وأما صبيانكِ فسيكفيكِ اللهُ أمرهم، وأما الأولياءِ فليس أحد منهم إلا سيرضى بي!

وهكذا لم تتزوج أم سلمة من هو خير من أبي سلمة فحسب، وإنما تزوجتْ من هو خيرٌ من الناس كلهم!

الفكرة من هذا كله أن الحيَّ أبقى من الميت، وأن زواج المرأة بعد زوجها، أو زواج الرجل بعد زوجته، مسألة شخصية يُقدرها كل واحد منهما بحسب حاجاته وظروفه، فليست المرأة التي تتزوج بعد زوجها قليلة الوفاء، ولا الرجل الذي يتزوج بعد زوجته باحث عن المتعة والنساء!

هذه سُنة الحياة، وهكذا كان الناس قبلنا، وهكذا سيستمرون بعدنا، وليس في الحلال شيءٌ معيب، والشرع قبل العادات، والله لا يُشرِّعُ أمراً مخجلاً، ولكن الناس يُضيِّقون على الناس!

من أرادت أن تعيش على ذكرى زوجها وتربي أولادها فهذا شأنها،

ومن أرادتْ أن تتزوج فهذا شأنها أيضاً،

وليس لأحدٍ من أهلها أو أهل زوجها أن يمنعها بحجة عدم الوفاء لزوجها الميت،

نحن بشر من لحم ودم،

ولكل إنسان منا حاجات جسدية، وروحية، تتطلبُ الإشباع لتكون الحياة سوية،

فلا تُحرّموا ما أحلَّ الله خجلاً من كلام الناس،

الناس عندما لم يجدوا شيئاً يعيبوا فيه لوطاً عليه السلام وأهله جعلوا حسناته سيئات فقالوا: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾!

إذا وقع القدرُ عمِيَ البصر!

سُئل عبد الله بن عباس: كيف تفقَّدَ سُليمان عليه السّلام الهدهد من بين الطيور؟

فقال: نزلَ سُليمان عليه السلام منزلاً فلم يدرِ أين الماء، وكان الهدهدُ يدله على الماء في باطن الأرض!

فقالوا لابن عبّاس: كيف ذلكَ والهدهدُ يُنصبُ له الفخ، ويُلقى عليه التراب، فلا يراه، ويُصطاد؟

فقال: إذا وقعَ القدرُ عميَ البصرُ!

سبحان من أعطى خلقه شيئاً من كل شيءٍ، واختصَّ نفسه بملكِ كل شيء!

سليمان عليه السلام ملكَ الأرض كلها، حكمَ الإنس والجن، وكلَّمَ الطير والهوام، وكانت الريح تأتمر بأمره، هذا ما أعطاه الله إياه، ولكنه

أحاجه إلى الهدهد إذا أراد أن يستخرج الماء من باطن الأرض سأله عن مكانه، فسبحان من أحاجَ الخلقَ إلى الخلقَ واستغنى هو عن الجميع!

وسبحان من إذا أراد أن يقضيَ أمراً على أحدٍ من خلقه لم تنفع المخلوق لا قوته ولا عمله! فهذا الهدهد الذي يرى الماء في باطن الأرض، يأتي صبيٌّ صغير وينصبُ له الفخ، ويغطيه بالتراب، ويضع له دودةً يغريه بها، فيصطاده، يرى الماء من تحت التراب، ولا يرى الفخ، هذا لأنه إذا وقع القدرُ عميَ البصرُ، وقضاء الله واقع لا محالة!

ثم إنَّ الهدهد كان في اليمن حين رأى بلقيس وقومها يسجدون للشمس من دون الله، وسليمان عليه السلام كان في الشام، والمسافة بين الشام واليمن حوالي ألفي كيلومتر، قطعها الهدهد أربعة مراتٍ في سبيل الله، المرة الأولى حين ذهبَ مستطلعاً، والمرة الثانية حين عاد بالخبر إلى سليمان عليه السلام، والمرة الثالثة حين ذهبَ برسالة سليمان عليه السلام إلى بلقيس، والمرة الرابعة حين عاد!

ثمانية آلاف كيلومترٍ قطعها الهدهد في الدعوة إلى الله، فهل سألنا أنفسنا ماذا قدمنا نحن؟!

كان لبلقيس عرش عظيم، وقصر منيف، وملك مهيب، وحضارة متطورة، شاهد الهدهد كل هذا بعينه، ولكنه عندما عادَ إلى سليمان عليه

السلام لم يخبره بهذه الحضارة المادية الزائفة إلا في سياق الحديث، جوهر الحديث كان فيه ممتعضاً كيف أن هؤلاء القوم يسجدون للشمس من دون الله!

وترى الواحد منا إذا سافر للسياحة إلى دول الغرب، عاد مزدرياً قومه، ناظراً بعين التقديس إلى أصحاب الاختراعات، ناسياً غافلاً أن الإيمان يأتي قبل كل شيء، وأن موقع الإنسان الحقيقي هو في قربه أو بعده عن الله!

إلا بضعفائكم!

نظرَ سعد بن أبي وقاص في شأن النبيِّ صلى الله عليه وسلم وهو يوزِّع الغنائم على الجيش، فإذا الناس ليسوا سواءً، فالمعركة قد يشهدها الصنديد الذي يكون أولاً، ويقتحم الصفوف، وقد يحضرها الكبير في السن، والضعيف في جسده، وقد يحضرها من فيه شيء من الجُبن والخوف على نفسه فيكون في آخر الصفوف!

ولكنَّ النبيَّ ﷺ كان يعطي الجميع بمقدار واحد، الفارس الشجاع كالكبير في العمر!

فرأى سعد بن أبي وقاص أنَّ له فضلاً على بعض الناس، وأنه يجب أن تكون حصته أكبر!

فقال للنبيِّ ﷺ: يا رسول الله، الرَّجلُ يكون حامية القوم، أيكون سهمه وسهم غيره سواء؟!

فقال له النبيِّ ﷺ: ثكلتكَ أمك يا ابن أم سعد، وهل تُرزقون وتُنصرون إلا بضعفائكم؟!

تأملوها جيداً: وهل تُرزقون وتُنصرون إلا بضعفائكم؟!

لعلَّ اللهَ أجرى لكَ الرِّزقَ بحسنةِ أبوين بلغا من الكبر عتياً وأنتَ تنفقُ عليهما، فأراد أن تكون سبباً في رزقٍ يرسله إليهما ولولا إحسانك معهما ما كان هذا الرزق لكَ!

ولعلَّ الله أجرى لكَ الرزق بسبب جارٍ مسكين جعلتَ له راتباً شهرياً في الخفاء، تريدُ أن ترحم حاجته، وتحفظُ له ماء وجهه، فلما رأى الله هذا منكَ أعطاكَ ما لو لم يكن لكَ هذه الصدقة الخفيّة ما كان ليعطيكَ!

ولعلَّ الله أجرى لكَ الرزق بسبب ابنٍ فيه عاهة أو مرض مزمن، فحمدتَ الله وما تأففتَ، وأنفقتَ في علاجه وما بخلتَ، تحسبُ أنك الذي ترزقه وفي الحقيقة هو سبب رزقك عند الله!

وروى صاحب روح البيان في تفسير القرآن قال:

أوحى الله تعالى إلى نبي من أنبيائه أني قضيتُ عُمر فلان نصفه بالفقر ونصفه بالغنى، فخيِّره حتى أُقدِّم له الذي يريدُ أولاً!

فدعاه فأخبره، فقال الرجل: حتى أشاور زوجتي.

فتشاورا، وقررا أن يكون نصف الغنى أولاً، ففتحَ الله لهما أبواب الرزق، وكانا كلما أنفقا شيئاً على نفسيهما أنفقا مثله على الفقراء. فلما انقضتْ نصف المدة ولم يرفع الله عنهما الغنى!

فسأل ذاك النبيِّ ربه، فأوحى إليه أني وجدته شاكراً، وللشاكرين المزيد، قضيتُ لعبدي عمره كله في الغِنى!

أَنْزِلُوا النَّاس منازِلهم!

مرَّ سائلٌ بأم المؤمنين عائشة فأعطته رغيفاً، ثم مرَّ رجلٌ عليه ثياب وهيئة، فعرفتْ أنه عزيز قوم قد انقطعتْ به السُّبل، فأجلسته، وقدمت له الطعام، فأكل ومضى.

ولما سُئلت عن ذلك، قالت: قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: أَنزِلوا الناس منازلهم!

هذا الكلام لا يعني احتقار بسطاء الناس، وإنما القصدُ إكرام الناس من علماء وفقهاء وأمراء بما يليقُ بمكانتهم، فما يُقدَّم للوزير ليس كما يُقدم للخفير، لا نُفاضل بين الناس من حيث الكرامة والاحترام، وإنما يُراعى مقتضى حال الشخص ومركزه.

دخلَ هارون الرشيد يوماً على الكسائي وهو لا يراه، وكان الكسائي معلماً لولديه الأمين والمأمون، فقام الكسائي لينتعل حذاءه، فنهضَ الأميران كل واحدٍ منهما إلى فردة حذاء وأنعلاه.

وبعد مدة جلس الرشيد في مجلس، وقال للكسائي: يا كسائي أي الناسِ أكرمُ خدماً؟

فقال له: أمير المؤمنين أعزه الله.

فقال له الرشيد بنبرة الراضي عن فعل ولديه: بل الكسائي يخدمه الأمين والمأمون!

وحدّثَ الجلوس بما كان منهما!

الشاهد في القصة أن الرشيد لم ينزعج من خدمة ولديه لأستاذهما حين أنعلاه حذاءه، وإنما رآها من مكارم الأخلاق، وإنزال الأستاذ منزلته، وتقديم الاحترام له!

والشيءُ بالشيء يُذكر، أكثر التلاميذ أدباً مع معلميهم هما سيبويه النحوي الفذ، وابن القيم الفقيه العبقري!

فأما سيبويه فكان إذا عرضَ قول أستاذه الخليل بن أحمد الفراهيدي في مسألة، وأراد أن يُخالفه فيها، قال: قال الخليل كذا. وقال بعضهم كذا وكذا وهو الصواب يعني ببعضهم نفسه، يتأدب أن يبوح باسمه في معرض مخالفة شيخه واستاذه!

وأما ابن القيم فكان يعرضُ أقوال الفقهاء، ويرجح بينها، ويسمي كل فقيه باسمه، فإذا أراد أن يعرض قول شيخه ابن تيمية قال عنه: قال الشيخ قدَّس الله روحه في الجنة!

فأنزلوا الناس منازلهم!

وغَدَرَاتي وفَجَرَاتي؟!

جاء أبو طويلٍ الممدود إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم وقال له: أرأيتَ رجلاً عمل الذنوب كلها، فلم يترك منها شيئاً، وهو في ذلكَ لم يتركْ حاجةً ولا داجةً إلا أتاها، فهل له من توبة؟

فقال له النبيُّ صلى الله عليه وسلم: نعم، تفعلُ الخيرات، وتترك السيئات، فيجعلهنَّ اللهُ لكَ خيراتٍ كُلُّهنَّ!

فقال: وغدراتي وفجراتي؟

فقال له النبيُّ صلى الله عليه وسلم: نعم!

فقال: الله أكبر، فما زال يُكبِّر حتى توارى!

يا له من ربٍّ، يبارزه عبده بالمعاصي، فلا يترك صغيرةً ولا كبيرةً إلا فعلها، ثم إذا استوحشَ وعلِمَ أن لا أنيسَ إلا الله، وإذا شعر بالغربة وعلِمَ أن لا ملجأ له إلا الله، فجاء تائباً آيباً، نادماً منكسراً، عازماً على عدم العودة، استقبله ربه كما يستقبلُ أهلُ المسافر غائبهم إذا عاد من غربته، ألا وإن أوحش الغربة هي البعد عن الله، وأجمل الأُنس هو الأُنس بالله!

لا تستعظِمْ ذنبكَ أمام رحمة الله، رحمة الله أكبر من كل ذنوبك، وإن من عظيم رحمته أن لا يغفر الذنوب فقط لمن أحسنَ التوبة، ولكنه يُبدِّل

السيئات التي فعلها إلى حسناتٍ، وانظر لقول النبيِّ ﷺ في هذه القصة: تفعلُ الخيرات، وتترك السيئات، فيجعلهنَّ اللهُ لكَ خيراتٍ كُلُّهنَّ!

وقول النبيِّ ﷺ هذا ما هو إلا مصداق لقول ربنا جل في علاه: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

لا تجعل الشيطان يقف بينك وبين الله، فإن من طرقه الخبيثة أن العبدَ إذا ندمَ على ذنوبه، وعزمَ على التوبة، وجاءه فقال له: من أي شيءٍ تتوب، من الزنا أم من الخمر؟ من السرقة أم من الكذب، من الرشوة أم من أكل الربا، من العقوق أم من قطع الرحم؟!

يُعظِّمُ لكَ ذنوبك ويُصغِّرُ لكَ رحمة اللهِ في عينيكَ، فلا تلتفِتْ له، أقبِلْ على الله بكل خليةٍ فيك، اِبكِ بين يديه، واستغفره، واَعملْ صالحاً ما استطعتَ، وأبشِر، فواللهِ إن صدقتْ توبتك، واستقامت إنابتك، لترينَّ كل سيئةٍ عملتها قد صارت حسنةً في ميزانك، ولا أحد أكرم من الله!

وما يدريكم؟!

كان في عهد النبيِّ ﷺ أخوان شقيقان، أحدهما أصلحُ من الآخر، فماتَ الصالحُ أولاً، ثم بعد أربعين يوماً مات الثاني.

فذكرَ الصحابة فضلَ الأول عند النبيِّ ﷺ.

فقال: ألم يكن الآخر مسلماً؟

قالوا: بلى يا رسول الله.

فقال: وما يدريكم ما بلغتْ به صلاته بعده!

إنما مثلُ الصلاة كمثل نهر غمرٍ عذبٍ بباب أحدكم، يقحمُ فيه كل يومٍ خمس مراتٍ، فما ترون ذلكَ يُبقي من دونه؟!

العمر لا يزيدُ المؤمن إلا خيراً، ذلك أنه في سعي دائمٍ إلى الله سبحانه وتعالى، والأيام فُرص وهِبات، الصالح يغتنم الفرص ويقبل الهدايا، والطالح يفوت الفرص ويرد الهدايا!

الصالحون الذين سبقوكَ في حياتهم قد تسبقهم بما تبقّى من حياتكَ!

لعلَّ جنتكَ أمامكَ وستدركها.

الربُّ الذي أدخل بغياً الجنة بسقيا كلبٍ وضع في طريقك قلوباً عطشى لكلمة حلوة، فاغتنِمْ!

والربُّ الذي أدخلَ رجلاً الجنة بغصنٍ قطعه عن الطريق كي لا يؤذي المسلمين وضع في طريقك بشراً في حياتهم عثرات، وديون، وأمراض، وأحزان تؤذيهم، فاجتَهِدْ!

والربُّ الذي أدخلَ الجنة رجلاً ليس له من الخير شيء غير أنه كان ذا مالٍ وكان يأمر غلمانه إذا جاؤوا إلى المديون ليقبضوا منه الدين أن يمهلوه إذا كان معسراً، وأن يخففوا عنه المبلغ إذا كان موسراً، قد وضعَ أمامكَ آلاف المحتاجين، فبادِرْ!

والربُّ الذي أدخلَ الجنة رجلاً عاصياً أمرَ أولاده إذا ماتَ أن يحرقوه وينثروا رماده مع الريح، فأمر سبحانه به فأقامه بين يديه، وسأله عما دفعه لفعل هذا، فقال له: خشيتكَ يا رب! فأمرَ به إلى الجنة!

فما زال أنتَ في عمركَ متسعٌ لتزيد في الطاعة، وتبكي على خطيئتك، فسارِعْ!

ربي وربك الله!

حدَّثَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم أصحابه عن ليلة المعراج التي صعد فيها إلى السماء فقال:

لما كانت الليلة التي أُسري بي فيها، أتتْ عليَّ رائحة طيبة، فقلتُ: يا جبريل ما هذه الرائحة؟

فقال: هذه رائحة ماشطة ابنة فرعون وأولادها!

قلتُ: وما شأنها؟

فقال: بينما هي تمشطُ ابنة فرعون ذات يوم، إذا سقط المشط من يدها، فقالتْ: بسم الله!

فقالت لها ابنة فرعون: أبي؟

فقالتْ: لا، ولكن ربي ورب أبيك الله!

قالت: أخبره بذلك؟

قالت: نعم!

فأخبرته، فدعاها، وقال يا فلانة: وإنَّ لكِ رباً غيري؟

قالت: نعم، ربي وربك الله!

فأمر بوعاءٍ من نحاس، ووضع فيه زيتاً، فلما حميَ، جعل يسألها من ربكِ: فتقول: ربي وربك الله.

فجعل يلقي بأولادها واحداً تلو الآخر، وفي كل مرة يسألها: من ربكِ؟

فتقول: ربي وربك الله!

فلما بقيَ ابنها الرضيع، فكأنها تقاعست من أجله، فقال لها: يا أماه، اقتحمي فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة!

فقالت لفرعون: إن لي عندك حاجة.

قال: وما حاجتكِ؟

قالت: أن تجمع عظامي وعظام أولادي وتضعها في ثوب واحد!

فقال: ذلك لكِ.

ثم أمر بها فألقيت في الزيت!

يا للإيمان ما يفعلُ بالناس، إنه إذا تمكن من قلب الإنسان قلب الدنيا رأساً على عقب، كان فرعون هو الملك، والماشطة هي الأَمَة. فلما تواجه الإيمان مع الكفر انقلبتْ الأدوار، صار فرعون هو العبد والماشطة هي الملكة!

وهذا بالضبط ما حصل مع بلال بن رباح، كان مولى لأمية بن خلف، حتى جاءت اللحظة الحاسمة، وأعلن بلال إسلامه، وحصلت بينهما المواجهة الشهيرة، وانقلبت الأدوار وصار بلال هو السيد، وأمية هو العبد!

فاللهم هب لنا من الإيمان ما يقلب في أنظارنا الدنيا رأساً على عقب!

إنه من أهل الجنّة!

كان أبو هريرة يقول للناس: حدثوني عن رجلٍ دخل الجنّة ولم يُصَلِّ قط؟!

فإذا لم يعرفوه، سألوه من هو؟

فيقول: أُصيرم بني عبد الأشهل عمرو بن ثابت بن وقيش!

أما القصة فهي كالتالي:

الأُصيرم هو لقبٌ غلبَ عليه فكان يُنادى به، واسمه الحقيقي عمرو بن ثابت. كان الأُصيرم يأبى الدخول في الإسلام على عكس قومه بنو عبد الأشهل، فلما كان يوم أُحدٍ، وخرج النبيُّ ﷺ لقتال قريش، راجع الأُصيرم نفسه في شأن هذا الدين، وتفكَّر في هذا الرجل الذي نزل يوماً من غارٍ مظلم في مكة يقول دثروني زملوني، كيف أصبح اليوم أُمة كاملة، وقوةً يُحسبُ لها حساب في جزيرة العرب، وكيف قد تبعه خيرة أهل المدينة المنورة، فخلصَ إلى أن الرجل نبيٌّ حقاً، وأنَّ هذا الدين الذي جاء به هو من عند الله فعلاً، فشرحَ اللهُ صدره للإسلام!

فأخذَ سيفه، ولحقَ بالجيش، فما وصل إلا والمعركة دائرة، والقتال على أشده، فقاتل ببسالةٍ قتال الأبطال، حتى أُصيبَ إصابةً بليغة، فلما رآه

المسلمون عرفوه، فقالوا: هذا واللهِ الأُصيرم، ولقد تركناه وراءنا وإنه لمنكرٌ لهذا الدين!

فسألوه: ما جاء بكَ يا عمرو؟ أحرباً مع قومكَ؟ أم رغبةً في الإسلام؟

فقال: بل رغبةً في الإسلام، آمنتُ باللهِ ورسوله وأسلمتُ، ثم أخذتُ سيفي فغدوتُ مع النبيِّ صلى الله عليه وسلم، فقاتلتُ حتى أصابني ما أصابني!

ولم يلبث الأُصيرم قليلاً حتى مات بين أيديهم، فذكروه للنبيِّ صلى الله عليه وسلم فقال: إنه لمن أهل الجنة!

وهذه القصة لا يُستدلُّ بها على أن الصلاة ليستْ بتلك الأهمية، ولا على أن تاركَ العبادات أمره يسير ويكفيه إيمانه دون عمل ليدخل الجنة، لأن الأُصيرم إنما آمن بعد الصلاة وقُتل قبل الصلاة التي بعدها!

يُستدلُّ بهذه القصة أن الإسلام يجبُّ ما قبله! وأن التوبة الصادقة تجبُّ ما قبلها، وأن الإنسان إذا عزم على التوبة بينه وبين الله، وعلمَ الله صدق توبته، ثم وافته المنية قبلَ الله تعالى منه توبته تكرماً وإن لم يشرع بأعمال التائبين!

يُستدلُّ بهذه القصة على أن الأعمال بالخواتيم،

وأن المرء يُبعثُ على ما ماتَ عليه،

على أن نُحسن الظن بالله بأنه أرحم وأكرم من أن يعلم أن عبده لا يريدُ إلا وجهه،

وأنه يسعى في رضاه وإن عصاه، ثم يقبضه على معصية!

إنَّها جِنان!

أُصيبَ حارثة بن سُراقة يوم بدر بسهمٍ طائشٍ لا يُدرى أُطلِقَ من معسكر المسلمين أم من معسكر المشركين فاستشهد، فصار الناس يتحدثون بذلك كالمشككين باستشهاده.

فجاءت أمه الرُّبيعُ بنت النَّضر إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم وقالت له: يا رسول الله، أخبرني عن حارثة، لئن أصابَ خيراً احتسبتُ وصبرتُ، وإن لم يُصب الخير اجتهدتُ في الدعاء!

فقال لها النبيُّ صلى الله عليه وسلم: يا أم حارثة إنها جنان، وإنَّ ابنكِ أصابَ الفردوس الأعلى، والفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها!

ليس المهم كيف يموتُ الإنسان، المهم إلى أين كان يسيرُ لحظة موته، لا فرقَ بين سهم طائش وسهم مقصود ما دام القلبُ في طريقه إلى الله، لا يهم في حادث سيارة، أو في مرض، أو في حريق، المهم عندما حانت تلك اللحظة كم كان مقدار الله في قلبك!

الذي قتل تسعةً وتسعين نفساً ثم جاء إلى عابدٍ يسأله هل له من توبة، فأخبره أن لا توبة له، فقتله وأتمَّ به المئة، أراد بعد ذلك أن يتوب، فجاء إلى عالمٍ هذه المرة، فأخبره أن باب التوبة مفتوح، وأن رحمة الله أكبر من ذنوب الإنسان مهما بلغتْ، ولكن نصحه أن يُغادر قرية السوء التي يعيش بها، ويتجه إلى قرية الصالحين، فعزمَ على التوبة، وخرج يريدُ تلك القرية ولا شيء في قلبه إلا أن يُصلح ما بينه وبين الله، فماتَ في الطريق، فأخذته ملائكة الرحمة على ما كان في نيته!

اِجعل الله دوماً في نيتك، ورضاه نصب عينيكَ، إذا فتح اللهُ لكَ باب طاعةٍ فلا تُغلقه، وإذا فتح لكَ الشيطان باب معصية فأسرع بالرجوع، زِدْ في الطاعة، واستغفِرْ من المعصية، أرِ اللهَ أنه لا شيء في قلبكَ أكبر منه سبحانه ثم لا عليكَ بأي طريقةٍ كانت النهاية!

أبو بكر ماتَ على فراشه، وعمرُ وعليٌّ شهيدين في صلاة الفجر، وعثمان مذبوحاً على المصحف، وخالد على فراشه، وأبو عبيدة بالطاعون، اختلفت النهايات ولكن الحياة تشابهتْ، جميعهم كانوا يسيرون إلى الله!

إلا المجاهرين!

كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم جالساً بين أصحابه، ولم يكونوا يعرفون أنهم على موعد مع حديثٍ يجمعُ البُشرى للمذنب الذي يأتي الذَّنب ثم تنكسِرُ نفسه، وينفطرُ قلبه إذ نكثَ العهد بينه وبين الله سبحانه، والوعيد للمذنبِ المصرّ المكابر، إلى أن قال لأصحابه: كل أمتي مُعافى إلا المجاهرين، وإنَّ من المجانة/ المجنون أن يعمل الرجل بالليلِ عملاً، ثم يصبحُ وقد ستره الله، فيقول: يا فلان، عملتُ البارحة كذا وكذا. وقد بات يستره ربُّه، ويصبحُ يكشفُ ستر الله عنه!

كُلنا ذو ذنبٍ، ولا يخلو أمرئٍ من أن يكون له كبيرة أو صغيرة، ولكن شتَّان بين مذنبٍ ومذنب!

شتَّان بين من يجاهدُ نفسه كي لا يعصي ربّه، ويقطعُ عند الملكِ عهداً، ثم تمضي الأيام، فيوسوسُ له الشيطان معصيةً، وتزينها له نفسه، وتغلبُ عليه نزعة الطين التي خُلق منها، فيأتي تلك المعصية، ثم إذا فرغَ منها انتبه،

وتذكر أنه قد حنثَ بالوعد، وأخلَّ بالعهد، فأقبل على الله استغفاراً ودعاءً، وزاحمَ تلك المعصية بالحسنات، وجدد العهد للملك الدَّيان، وحمدهُ حمداً يليقُ بكرمه، حمداً أنه قد ستره فلم يفضحه بين الناس، وحمداً لأنه لم يقبضه وهو على معصيةٍ، وأنه أمهله ليتوب، وإنَّ انكسار المذنب توبة، وندمه أجر، ودمعته غالية مقبولة عند الرحمن!

ثم هناك مذنبٌ عاقرَ ذنباً، فاطلعَ اللهُ عليه وشاءَ أن يتلطفَ به ويستره، فإذا أصبحَ، فلا هو استغفرَ ولا رجعَ، ولا ندمَ ولا ارتدعَ، وإنما زاد غياً، فلقيَ صاحباً له، فحدثه بمعصيته، وروى قصص ذنبه كما تُروى البطولات، فهذا هيِّن عند الله، لا ينظرُ إليه بعين رحمته، لأنه عبدٌ آبِقٌ، رفضَ هدية الستر من سيده، فأصبح يفضح نفسه!

إنَّ الله سبحانه ستِّير يُحبُّ السِتر، لهذا جعل التوبة بين العبِد وربه، ولم يجعل للتوبة واسطة لا من شيخ ولا من ولي، فنحن قوم إذا أذنبنا لا نذهبُ لبشرٍ مثلنا لنعترف له كما يفعل النصارى، وإنما إذا أذنبنا نسكبُ العَبرات، ونُكثر الطاعات، ونأتي القربات، وندفعُ الصَّدقات، ونقدِّم لله ما يُحب ليغفر لنا ما يكره، فلا تفضحوا أنفسكم، ولا تخلعوا عنكم رداء سترٍ قد وضعه الله عليكم مِنةً منه وكرماً!

وما دام العبدُ يأتي الذنب مُنكِراً،

ويُكثرُ من الاستغفار، فهو على خير،
أما الخطر كل الخطر فعلى الذي يعتبرُ الذنوب بطولة ومفاخرة،
فيحدّثُ بما صنعَ، ويذكرُ بما شَعر، ولا يدري أنه من المجون أن يهتك المرءُ سترَ الله عليه!

ما بالُ حنظلة؟!

تزوَّج حنظلة بن أبي عامرٍ الرَّاهب جميلة بنت عبد الله بن أُبي بن سلول في الليلة التي كانت في صبيحتها غزوة أُحد، وكان قد استأذن النبيَّ صلى الله عليه وسلم أن يبيتَ مع عروسه فأذِنَ له، ثم لما سمعَ النداء أن يا خيل اللهِ اركبي، حملَ سلاحه وخرجَ ليلتحق بالجيش وهو ما زال على جنابةٍ لم يغتسل، ولما التقى الجيشان واحتدمَ القتال، وانكشف المسلمون بسبب معصية الرُّماة للأمر النبويِّ القاطع الذي قال فيه: لا تبرحوا أماكنكم!
ثبتَ حنظلة يُقاتل قتال الشجعان، وكاد أن يقتل أبا سُفيان بعد أن أوقعه عن فرسه، لولا أن رجلاً من المشركين عاجله بطعنةٍ بالرمح في ظهره خرجت من صدره، وارتقى حنظلة شهيداً تحت أقدس رايةٍ عرفتها البشرية

راية النبيِّ صلى الله عليه وسلم، وفي سبيل أقدس قضية هي لا إله إلا الله، القضية التي لأجلها خُلقت السماوات والأرض والخلائق، وقام سوق الجنة والنار!

وعندما انتهى القتال، ونزل كل فريق يُعاين قتلاه، قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: ما بال حنظلة بن الرَّاهب؟ إني رأيتُ الملائكة تُغسِّله بين السماءِ والأرض، بماء الغيم في صحاف من فضة!

فقالوا: إنه سمع النداء يا خيل الله اركبي فخرجَ وهو جُنبٌ ولم يغتسل!

من ترك شيئاً لله عوَّضه اللهُ خيراً منه!

كان بإمكان حنظلة أن يتذرَّع بأنه عريس ولا يخرج للقتال، ولو أنه لم يخرج ما لامه أحد، فلم يمضِ على زواجه إلا سُويعات، ولكن الصحابة لم يكونوا كذلك، كان أمر اللهِ عندهم مقدَّم على أمورهم، والواحد منهم لا يعرفُ له مكاناً غير الذي أراد اللهُ له سبحانه أن يكون فيه. تركَ حنظلة كل شيءٍ لله، ومن صدقه وحماسه لتلبية نداء القتال خرج دون أن يغتسل من جنابته، فكان الجزاء من جنس العمل، تركَ الغسل خشية أن يتأخر عن الجيش، فأرسل الله سبحانه ملائكته لتغسله بين السماء والأرض في صحائف من فضة، وعندما سمع الصحابة قول النبيِّ صلى الله عليه وسلم في حنظلة، بحثوا عنه فإذا شعره يقطرُ ماءً، فازدادوا إيماناً على إيمانهم!

كُنْ للهِ كما يريدُ يكُنْ لكَ كما تريدُ!

لا تحفل بالنهايات،

عِشْ في سبيل اللهِ فقط، أرِه في كل تصرف لكَ أنكَ لا تريدُ سواه،

أره أن كل صدقةٍ تُخرجها هي له خالصة،

وكل جبر خاطر تقوم به أنك لا تريدُ إلا وجهه الكريم،

وهو أعدل وأرحم أن تعيشَ له،

فانياً عمركَ في سبيل رضاه ثم لا يختم لكَ بالخير،

فاللهمَّ حسن الخاتمة!

توبةُ الفُضيل!

كان الفُضيل بن عياضٍ في شبابه قاطعاً للطريق، يكمنُ للمسافرين في الليل، فإذا وقع على رجلٍ وحيد أو رجلين هجم عليهما وسلبهما ما معهما.

وكان سبب توبته انه عشِقَ جارية، فبينما هو يرتقي الجدران إليها ليقابلها، سمع جاراً لها يقوم الليل ويقرأ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ

قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾

فأصابته هذه الآية في قلبه مباشرة، فقال: يا رب قد آن!

فرجع من لحظته، وأوى إلى خربة، فإذا فيها ناسٌ يريدون السَّفر، فقال بعضهم: نُسافر الآن

وقال بعضهم: نسافر حين نصبح، فإن الفُضيل بن عياضٍ يقطعُ الطريق علينا!

فلما سمعَ حوارهم قال في نفسه: ويلكَ يا فُضيل، تسعى في الليل بالمعاصي، وتُخيف المسلمين، واللهِ ما أرى اللهَ إلا قد ساقكَ إليهم لترتدع!

اللهم إني قد تبتُ إليكَ وجعلتُ توبتي مجاورة بيتك الحرام.

فذهبَ الفُضيل إلى مكة، وتفرّغ للعبادة والعلم، حتى صار أحد أشهر التابعين وأعظمهم في تاريخ الإسلام!

وعن الفضيل بن عياض قال الذهبي: الفُضيل، الإمام القدوة، الثبت، شيخ الإسلام!

وقال عنه ابن حجر: الفُضيل ثقة عابد إمام!

وقال عنه عبد الله بن المبارك: ما بقيَ على الأرض عندي أفضل من الفُضيل بن عياض!

وقال عنه النسائي: الفُضيل رجل ثقة، مأمون، صالح!

الفكرة من كل هذا أن لا تفقدَ الأمل من أحدٍ أن يعودَ إلى الله، فليسَ بعد الشرك ذنب أكبر من القتل، وإن الذي قتل مئة نفسٍ قد تركَ قريته وخرج تائباً، فمات في الطريق، فقبضته ملائكة الرحمة!

والسَّحرة الذين خرجوا لنزال موسى عليه السلام يوم الزينة، ما لبثوا أن أسلموا، كانوا في الصباح سَحرةً، وفي المساء شُهداء، صلبهم فرعون في جذوع النخل فلم يردهم ذلك عن دينهم شيئاً!

ولكثرة ما كان عمر بن الخطاب شديداً على المسلمين كانوا يقولون لن يُسلم عُمر ولو أسلمَ حمارُ الخطَّاب! ثم أسلم عمر، فكان إسلامه فتحاً، وهجرته نصراً، وخلافته رحمةً!

والفكرة الثانية لا تأمن الفتنة على أحدٍ، فالذين عبروا البحر مع موسى عليه السّلام خرجوا معه من مصر مؤمنين، فشقَّ لهم البحر بعصاه، ومشوا فيه، ثم لما عبروا إلى الضفة الأخرى، عبدوا العجِل!

هذه القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن، يُقلبها كيف يشاء، فسلوه الثبات، فقد كان النبيُّ ﷺ يدعو دائماً: يا مُقلِّب القلوب ثبِّتْ قلبي على دينك!

سيّد الشهداء حمزة!

قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم يوماً لأصحابه مُبيناً أهمية قول كلمة الحق: « سيد الشهداء حمزة، ورجل قام إلى إمام جائرٍ فأمره ونهاه، فقتله»!

أرسلَ عمر بن هبيرة الفزاري والي الأمويين إلى العراق إلى محمد بن سيرين أن يأتيه في مجلسه، فجاءه ابن سيرين ومعه ابن أخيه، فرحَّبَ به الوالي، وأكرم وفادته، ورفعَ مجلسه، وسأله عن مسائل في الفقه، فأجابه ابن سيرين عنها.

ثم قال له الوالي: كيف رأيتَ الناس يا ابن سيرين؟

فقال له: رأيتُهم والظلم فيهم فاشٍ، وأنتَ عنهم لاهٍ!

فوكزه ابن أخيه يريدُ منه أن يسكت، فقال له ابن سيرين: إنكَ لستَ الذي تُسأل عنهم، وإنما أنا الذي أُسأل، ومن أمانة العلم تبيينه، وإنها لشهادة، ومن يكتمها فإنه آثم قلبه!

وعندما أراد الظاهر بيبرس التوجه إلى الشام لقتال التتار، استدعى الفقهاء وأخذ منهم فتوى تجيز له أن يأخذ من أموال الرعية دون إذنهم لتجهيز الجيش، ثم سألهم هل بقي من فقهائكم أحد؟

فقالوا: بقي الشيخ الصالح محي الدين النووي.

فطلبه، وأعطاه رقعة الفتوى، وقال له: دوِّن اسمكَ مع الفقهاء. فرفضَ الإمام النووي

فقال له بيبرس: ما سبب امتناعك؟

فقال له الإمام النووي: اِعفني من ذلك!

ولكن بيبرس أصرَّ أن يعرف السبب، فقال له الإمام النووي: أعرفُ أنكَ كنتَ مملوكاً للأمير بندقدار وليس لكَ مال، ثم وليتَ أمرَ المسلمين، فأخذتَ من مالهم لنفسك دون وجه حق، وأنَّ لكَ ألف مملوك عند كل واحدٍ منهم أكثر من ألف دينار، وعندك مئتي جارية وكل جارية لها أكثر من عشرة آلاف درهم، فإذا أخذتَ كل مال مواليك حتى لم يبقَ عليهم إلا ثيابهم، وأخذتَ مال جواريكَ حتى الحُلي الذي في آذانهن، فجهزتَ الجيْشَ ثم لم يبقَ مال أفتيتُ لكَ بجواز أخذ مال الناس!

فغضبَ منه بيبرس، وأمر بإخراجه من دمشق، وأن لا يعود إليها والأمير على قيد الحياة!

رغم أن بيبرس أراد تجهيز الجيش للجهاد بمال الناس إلا أن النووي رفضَ ذلكَ وناقشَ الأمير بما أخذ بغير حق، وطلب منه أن يبدأ بماله هو، ونحن نرى اليوم الضرائب الجائرة التي يطأطئُ لها الفقهاء الرؤوس، وتُقتطع من جيوب البسطاء، وأهل الحكم يرقدون في النعيم!

ورغم أن ابن هبيرة أكرم ابن سيرين إلا أنه لما سأله عن حال الناس، أخبره بالظلم الواقع عليهم، ولم يخفْ في الله لومة لائم، ونحن نرى اليوم ذمم الفقهاء تُشترى بالدرهم والدينار، يدخل أحدهم على الحاكم فيمدحه حتى يوصله إلى درجة الخلفاء الراشدين، وهو يعلم بالظلم ولا يُحدثُ به!

فرحم الله أحمد بن حنبل موقف حق واحدٍ أدخله التاريخ من أوسع أبوابه!

حسبكِ!

روى الإمامُ الذَّهبيُّ في سير أعلام النبلاء في ترجمة أمنا عائشة أنها قالت: دخلَ الحَبَشُ المسجد يلعبون، فقال لي النبيُّ صلى الله عليه وسلم: يا حُميراء، أتحبين أن تنظري إليهم؟

فقلتُ: نعم.

فقام بالباب وجئته، فوضعتُ ذقني على كتفه، وأسندتُ وجهي إلى خده! وجعلتُ أنظر فقال لي: حسبُكِ!

فقلتُ: يا رسول اللهِ لا تعجل!

فأقام لي، ثم قال: حسبُكِ!

فقلتُ: لا تعجل يا رسول الله!

وما بي حُبُّ النَّظر إليهم، ولكن أحببتُ أن يبلغَ النساءَ مقامُه لي، ومكاني منه!

وإنني لا أعرف في هذا الحديث ممن أعجبُ!

من الرَّجلِ الذي على عاتقه دعوة البشرية قاطبة من مشرق الأرض إلى مغربها، وعليه قيادة المجتمع المدني عسكرياً وسياسياً، فإذا به لا يشغله كل هذا في أن يكون زوجاً رائعاً حنوناً، ينظرُ في رفاهية زوجته، ويبادرها بأن يعرض عليها شيئاً غلبَ على ظنِّه أنها ستجد فيه سعادةً له، فهو لو انتظرَ حتى تطلب منه أن تشاهد عرض الأحباش وهم يلعبون بالحراب في المسجد لبدا الأمر عادياً، ولكنه لم ينتظر حتى يبدو الأمر عادياً، كانت مكارم الأخلاق تقفُ مذهولة منه، فهو على مقاسها، وهي على مقاسه، إنه يبادر ويسأل ويهتم ويكترث!

أم أُعجبُ من عائشة رضي الله عنها التي لا تخجل في أن تعيش مشاعرها، وأنوثتها، وغيرتها كما هي، وتستمتعُ بعيش هذه اللحظات بعفوية، لتُخبرنا أنه لا أروع من الحُبِّ الحلال، وأن قتل المشاعر، وكبتها باسم الورع ليس من الدين في شيء، فهذا الدين ما جاء ليكبت الغرائز

وإنما ليهذبها، ولا ليحارب المشاعر وإنما ليوجهها ويضعها في طريق الحلال، ثم يترك للناس مساحة الاستمتاع بها حلالاً!

حتى أنها لا تخجلُ أن تُصرِّحَ بما في قلبها تجاه ضرائرها، فهي اكتفتْ من المشاهدة سريعاً، وعندما قال لها النبيُّ ﷺ: حسبكِ. كانت قد أخذتْ حظَّها من المشاهدة، ولكنها بقيت تقول له: لا تعجَل يا رسول الله، لأنها تريدُ بهذا أن يبلغ ضرائرها وقوف النبيِّ ﷺ الطويل لها، ومكانتها في قلبه!

المرأة هي المرأة، لا تتوقع من الإيمان أن يُبدِّل طبيعتها وغريزتها وفطرتها، الإيمان يُؤدِّب هذه الأشياء فقط!

والرجل هو الرجل، لا تتوقع من الإيمان أن يُبدِّل طبيعته وغريزته وفطرته، الإيمان يُؤدب هذه الأشياء فقط!

ليرينَّ اللهُ ما أصنع!

يقول أنس بن مالك: غابَ عمي أنسُ بن النضر عن غزوة بدر، فقال للنبيِّ ﷺ: يا رسول الله، غبتُ عن أول قتالٍ قاتلتَ فيه المشركين، وإن أشهدني الله قتال المشركين ليرَينَّ ما أصنعَ!

فلما كان يوم أُحد قاتلَ قتالاً شديداً، وعندما خالفَ الرُّماة أمرَ النبيِّ ﷺ ونزلوا عن الجبل، وانكشفَ المسلمون وصاروا بين خالد بن الوليد وفرسانه، وجيش قريش الذي عادَ للقتال بعد التفاف خالد، قال أنس بن النضر: اللهمَّ إني أعتذرُ إليكَ مما فعل هؤلاء، يعني المسلمين، وأبرأ إليكَ مما فعل هؤلاء، يعني المشركين.

وأُشيع أن النبيَّ ﷺ قد قُتل، فمرَّ أنس بن النضر وهو يُقاتل على جماعةٍ من المسلمين قد توقفوا عن القتال، فقال لهم: ما يُقعدكم؟!

قالوا: قُتل رسول الله!

فقال لهم: فما تصنعون بالحياة بعده؟! قوموا فموتوا على ما مات عليه!

ثم قاتلَ المشركين حتى استشهد، وبعد انتهاء المعركة وجدوه وبه أكثر من ثمانين ضربة بسيفٍ، أو طعنة برمحٍ، أو رمية بسهمٍ، وقد مثَّلَ المشركون بجسده فما عرفه إلا أخته بعلامة كانت في إصبعه!

وفي أنس بن النضر نزل قول الله تعالى: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾

إنَّ اللهَ يُحِبُّ صادقَ العهدِ معه، ليس في الحربِ فقط، وإنما في السِّلم كذلك، فالحياة في سبيل اللهِ عمل جبَّار تماماً كالموت في سبيل الله!

فإذا عاهدتَ اللهَ أن إذا أعطاكَ المالَ أن تكون كثير الصدقة، فإياكَ إن أغناكَ أن تحنث بالعهد، فإنه لا شيء أحب إليه من وفاء عبده على ما عاهده، وتذكر أن الذي أغناك بعد فقرٍ قادر على أن يفقركَ بعد غنى!

وإذا عاهدتَ اللهَ أن إذا شفاك من مرضٍ أن تكثر من الخطى إلى المساجد، وأن تثني الركب في حلق العلم وتحفيظ القرآن، وأن تحج وتعتمر، فإياك إن شفاكَ أن تحنث بالعهد، فإنه لا شيء أحبُّ إليه من وفاء عبده بما عاهد، وتذكر أن الله الذي شفاك بعد مرضٍ قادر على أن يمرضكَ بعد عافية!

وإذا عاهدتَ اللهَ أن لا تعصِيه،

فجاهد نفسكَ على أن لا تعصي،

الذنب الذي تركته للهِ لا تعد إليه مهما كان،

وإن انتكستَ فعُدْ أدراجكَ على الفور،

وجدد العهد، وقل له يا رب: أنا على عهدك ووعدك، ليست إلا زلة قدم،

وسوسة شيطان، وزينة نفس،

فإن الباب الذي فُتح لأنس بن النضر لم يُغلق بعد،
فيا لحظ الداخلين إلى الله منه!

يُصِبْ منه!

خلقَ الله سبحانه وتعالى هذه الدنيا دار امتحان وبلاء لا دار جزاءٍ وعطاء، ولم يفهم سُنة الله في الكون من يعتقد أن العافية دليل على حُبِّ الله للعبد، وأن البلاء دليل بغضه له، على العكس تماماً فالأنبياء كانوا أكثر الخلقِ ابتلاءً وهم صفوة البشر!

أُبتليَ نوحٌ عليه السلام بكفر زوجته وقومه، قضى تسعمئة وخمسين سنةً يدعوهم إلى الله فما آمن معه إلا قليل!

وخرجَ إبراهيم عليه السلام من بابل بعدما أُبتلي بكفر أبيه وقومه وأُلقي في النار!

وفي بطن الحوت مكثَ يونس عليه السلام، وبفرعون وبني إسرائيل أُبتلي موسى عليه السلام، أما عن شيخ الصابرين أيوب عليه السّلام فحدِّث ولا حرج، ثم ألقِ رحلكَ في مكة، وشاهد حبيبكَ في الشِعْبِ محاصراً، وفي

الطائف مرجوماً، وعند الكعبة ساجداً وسلى الجزور فوق رأسه! وعن سُنة الله في الخلق قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من يُرد الله به خيراً يُصبْ منه»!

لم يُنجِبْ إبراهيم عليه السّلام، فقررتْ سارة أن تهبه مملوكتها هاجر ليتزوجها علَّه يجد عندها ما لم يجده منها، وحملت هاجر بإسماعيل عليه السلام، وتعلَّقَ قلب الخليل بالصبيِّ الرضيع وأمه، فغارتْ سارة بدافع الفطرة البشرية، وصدر منها ما يصدر من الزوجات حين يغرنَ من الضرائر، ولما طال الأمر ووجده إبراهيم عليه السلام كثيراً، شكا أمره إلى الله، فأوحى الله تعالى إليه أن يا إبراهيم أما يُرضيكَ أن تكون سارة نصيبك من البلاء؟!

ما من مسلم إلا وقد ابتلاه الله بشيء نُغِّص به عيشه حتى يمتحنه أولاً، وحتى لا يركن إلى الدنيا ثانياً!

من الناس من له من الأولاد ما لا يكاد يقوى على إطعامهم، ومن الناس من لديه من الأموال ما لا تأكله النيران وقد حُرِمَ الإنجاب!

بعض البلاء في مرضٍ يُصيب الجسم، وبعض البلاء في ضيقٍ في الرزق، وأكثر البلاء في البشر!

جار السوء بلاء وامتحان، والمدير الفظُّ الغليظُ بلاءٌ وامتحان، والحاكم الظالم بلاء وامتحان!

الزوجة السيئة ابتلاء، وكذلك الزوج السيء!

وقد يكون الابتلاء في ولد عاق، أو قريبٍ مؤذٍ، أو حماةٍ سليطة اللسان!

فمن وجد بلاءً واحداً في حياته فليحمد الله عليه فإنَّ الله تعالى علم ضعفه فلم يشأ أن يزيد عليه البلاء، وإلا فإنَّ النَّاظر في سيرة الأنبياء يجدهم ذاقوا ألواناً من الابتلاءات، وانظُر إلى لوطٍ عليه السّلام وقد أُبتليَ بالزوجة الكافرة، وبالقوم الذين يمارسون الفاحشة التي ما سبقهم بها أحدٌ من العالمين، غربةٌ في قومه، وغربة في بيته!

فاصبروا فإن الحياة دار امتحان، وإن الأوائل كانوا يتواصون في الشدائد قائلين: إنما هي أيام تمضي والموعد الجنّة!

إنه من أهل النار!

كان في المدينة رجلٌ يُقال له قُزمان، إذا ذُكر للنبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: هو من أهل النار!

فلما كانت غزوة أُحدٍ خرج قُزمان في جيش المسلمين لقتال قُريش، فقاتلَ قتالاً شديداً، وقتلَ وحده ثمانية من المشركين، وأصابته جراحٌ بليغة، فحملوه بعد انتهاء المعركة إلى دار بني ظفر.

وقال له المسلمون يُصبرونه: واللهِ لقد أبليتَ يا قُزمان بلاءً حسناً، فأبشِرْ!

فقال: بماذا أَبشر؟ فواللهِ ما قاتلتُ إلا عن أحساب قومي، ولولا ذلك ما قاتلتُ!

ولما اشتدَّتْ عليه جراحه أخذ سهماً من كنانته فقتل به نفسه!

إنَّ اللهَ سبحانه لا يقبلُ من العملِ إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم! ولو كان الله سبحانه يقبلُ العمل الصالح الذي يُبتغى به غيره، لقبلَ من قُزمان، معركة حامية الوطيس بين الإيمان والكفر، وهو في معسكر الإيمان، قاتل قتال الأبطال، وأثخن في قريش إثخان الفرسان، وهو أكثر من قتل منهم في ذلك اليوم، فلم تذكر كُتب السيرة أن أحداً من جيش المسلمين قتل ثمانية من جيش المشركين غير قُزمان! ولكن للأسف أن كل هذه الشجاعة والبسالة لم تكن للهِ، وإنما خرجَ حميَّةً، قومه من أهل المدينة من المسلمين قد خرجوا للحرب فخرجَ معهم، فأكبه اللهُ على وجهه في النار!

نحن البشر لا نرى من الأعمال إلا ما ظهر منها، وقد أُمرنا أن نحكم على الظواهر، ونترك النوايا لربِّ النوايا، فهو وحده المطلع على خفايا النفوس، إنه لا يرانا من أعلى، وإنما يرانا من الداخل!

قبل أن تحمل الصدقة لتضعها في يد فقير اصلِحْ نيَّتك، فليس لكَ من أجرٍ إلا بمقدار ما كان من صدقتكَ للهِ، لن ينفعك مدح المادحين إن كانت صدقتك رياءً، ومن باب يا أيها الناس شاهدوني أنا محسن كريم!

وقبل أن تلبس ثياب إحرامك للحج أصلِحْ نيَّتك، فليس لكَ من أجر مالٍ ولا إحرام ولا طواف ولا سعي ولا رجم ولا هدي إلا بمقدار ما كان لله سبحانه من كل هذا، فإن كان حجَّكَ ليقولوا عنكَ ضيفُ الرحمن، أو لتكتبَ على لافتة دكانك الحاج فلان، أو لتنال مركزاً مرموقاً، فأنتَ قد تكلفتَ نفقةً، وكسبتَ مشقّةَ السَّفر، وليس لكَ من الأجر شيء!

النوايا مناط الأعمال،

فمن نوى الخير وأحيل بينه وبين نيته أعطاه الله سبحانه أجره كاملاً كأنه فعل،

ومن فعلَ الخيرَ فعلاً يريدُ به ثناء الناس،

والشهرة كان عمله للناس،

وأجره من الناس، والله غنيٌّ عنه وعن عبادته!

فأصلحوا نواياكم!

كان النبيُّ ﷺ هيِّناً، ليِّناً، سَمْحاً، قريباً من الناس، وعندما سُئلتْ عائشة عن خُلقِه، قالتْ: كان خُلقُه القرآن!

وقال مرةً لأصحابه محدِّثاً إيّاهم عن أهمية الرِّفق، ولين الجانب: إنَّ الرِّفقَ لا يكون في شيءٍ

إلا زانه، ولا يُنزعُ من شيءٍ إلا شانه!

على أنَّ الرِّفقَ له مواضع، والحزمُ له مواضع، ووضع الرِّفق في موقف الحزم حمق، تماماً كوضع الحزمِ في موقف الرِّفق!

عندما أراد أبو بكر الصديق أن يوصيَ بالخلافة لعمر بن الخطاب من بعده، اعترضَ بعضُ الصحابة على هذا القرار، وصارحوا أبا بكر في السبب فقالوا: إنَّ عمر كان يشتدُّ علينا وأنتَ الخليفة وهو الوزير، فكيف يصنعُ وقد صار الخليفة؟!

فقال لهم أبو بكر قولة السياسي المحنك العالم بالنفوس: إنَّ عُمرَ كان يشتدُّ لما يرى من رفقي، فكان يُقوّم رفقي بشدته، وإنه إذا صار الأمرُ إليه ليكونَنَّ على غير ما عهدتموه!

وصدقتْ فراسة أبي بكر، فإنَّ عمر بن الخطاب كان حازماً دون أن يفقد رقَّته، وكان رقيقاً دون أن يفقد حزمه، وهنا كان سر عظمته!

يقول زياد بن أبيه: ما غلبني معاوية في شيءٍ إلا مرة واحدة، استعملتُ رجلاً فكسرَ متاعي، فخشيَ أن أعاقبه، ففرَّ مني إلى معاوية فكتبتُ إليه: إنَّ في هذا أدب سوءِ لمن استعملته! يريدُ أن يقول لمعاوية أنك بحمايتك هذا الذي أخلَّ بواجبه وفرَّ إليكَ تشجيعاً له!

فكتبَ معاوية إليَّ: إنه لا ينبغي أن نسوس الناس سياسة واحدة، أن نلينَ جميعاً فيمرحُ الناس في المعصية، ولا نشتدُّ جميعاً فنحملُ الناس على المهالك، ولكن تكون أنتَ للشِّدة والفظاظة، وأكون أنا للين والألفة!

درس عظيم ليس في سياسة الدولة فقط، وإنما في سياسة البيوت أيضاً! فإذا اشتدَّ الأبوان أوشكا أن يكسرا الأولاد، ويصبح البيت كثكنة عسكرية! وإذا لانا معاً أوشكا أن يُضيعا الأولاد، ولا بد من بعض الحزم لضمان التربية!

لهذا عليهما أن يتناوبا في الحزم واللين، فإذا اشتدَّ الأبُ في موقف كانت الأم صدراً حنوناً، تسمع لهم، وتخبرهم بهدوءِ بخطئهم، وتسعى لإصلاح الأمر، وتدبر اعتذار الأولاد من الأب وعودة المياه إلى مجاريها! وإذا اشتدَّت الأم في موقف وجبَ على الأب أن يلين، لأننا نريدُ تربية الأولاد لا كسرهم، وتقويمهم لا هزمهم!

إياكم والظَّن!

كان النبيُّ ﷺ يعلمُ أن المرءَ لا يُؤتى إلا من قِبَلِ قلبه، لهذا حرصَ على تنقية قلوب المسلمين، فقال يوماً لأصحابه: «إياكم والظنَّ، فإنَّ الظنَّ أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، وكونوا عباد اللهِ إخواناً»!

وكثيراً ما كان ابن القيم يذكُر قول أبي بكر بن عيَّاش: ما سبقكم أبو بكر وعمر بكثرة صيامٍ ولا صلاة، ولكن بشيءٍ وقر في القلب!

وإنَّ سوء الظنِّ بالناس من أكثر ما يُفسد القلب!

روى أهل الأخبار أنَّ صاحباً للتابعي الجليل إبراهيم بن أدهم مرَّ عليه وهو جالسٌ مع أصحابه، فنظرَ إليهم، ولم يُسلِّمْ عليهم!

فقال له بعضهم: أرأيتَ يا إبراهيم كيفَ نظرَ إلينا ولم يُلقِ السَّلام علينا؟

فقال إبراهيم: لعلَّه مكروب، فلا يذهلُ عن أصحابه إلا من كان به كرب. ثم قام إبراهيم من مجلسه ولحقه، فلما أدركه قال له: ما لكَ لم تُلقِ علينا السَّلام يا صاحبي؟

فقال: امرأتي تلِدُ وليسَ عندي ما يُصلحها!

فعادَ إبراهيم الى مجلسه، وقال لمن فيه: لقد ظلمناه مرَّتين، مرَّةً أسأنا به الظنْ، ومرَّةً تركناه حتى احتاج!

ثم غادرهم، وذهبَ إلى بيته فلم يجد في البيتِ إلا دينارين، فاشترى بدينارٍ لحماً وعسلاً وزيتاً ودقيقاً، وأسرع إلى بيت صاحبه، فلما طرقَ الباب قالت له الزوجة وهي في ألم الوضع: من بالباب؟!

فقال: إبراهيم بن أدهم، خُذي! عند الباب خرَّجَ الله عنكِ، ثم انصرف!

فلما فتحت وجدت الأغراض وفوقها الدينار الآخر، فجعلتْ تقول: اللهمَّ لا تنسَ هذا اليوم لإبراهيم بن أدهم!

هذه الدنيا قاسية تطحنُ الناس كل يوم، مستأجرٌ أدركه آخر الشهر وليس عنده الإيجار، ومريض كادتْ علبة دوائه أن تنفد وليس معه ثمن غيرها، وأب تُطالبه الجامعة بقسط ابنه ولا يجد مالاً، ومديون حان وقت سداد دينه ولم تتيسر أموره، وأمثال هؤلاء كُثر، فباللهِ عليكم إن سار هؤلاء في الطرقات هائمين على وجوههم فهل عليهم من عَتبٍ!

ربما مرَّ بكَ أحدهم ولم يركَ من ثقل الهم والدين، فأحسِنْ الظنَّ بالناس!

الذي لا يدعوك إلى منزله ليس بالضرورة بخيلاً ربما كان عفيفاً ولا يريدُ أن يفضح حاجته!

والذي لم يزرك في مناسبة ربما منعته كرامته أن يحضر دون هدية!

فترفقوا، ولا تكونوا أنتم والدنيا على الناس!

كنتُ أشتهي موت ابني!

يقول محمد بن خلف: كان لإبراهيم الحربي ابن عمره إحدى عشرة سنة، حفَّظه القرآن، ولقَّنه جانباً كبيراً من الفقه، فماتَ الغلام، فجئتُ أعزيه به.

فقال لي: كنتُ أشتهي موت ابني هذا!

فقلتُ له: يا أبا اسحاق أنتَ عالمُ الدنيا، وفقيه المسلمين تقول هذا في صبيٍّ حافظ للقرآن عالمٍ بالفقه؟!

فقال لي: نعم، رأيتُ في منامي كأنَّ القيامة قد قامتْ، وكأنَّ صبياناً بأيديهم قِلال فيها ماء، يستقبلون الناس فيسقونهم، وكان ذلك اليوم حاراً شديداً، فقلتُ لأحدهم: اِسقني من هذا الماء

فنظرَ إليَّ وقال: إنكَ لستَ أبي!

قلتُ له: فأي شيءٍ أنتم؟

فقال: نحن الصبيان الذين متنا في الدنيا، وخلَّفنا آباءنا، فنستقبلهم نسقيهم الماء.

فلهذا تمنيتُ موته!

إنَّ من رحمةِ اللهِ بعباده أنه أحياناً يُهيئهم لما سيصيبهم، حتى إذا وقعَ قدره سبحانه عليهم، وجدوا قدرةً على الصبر والتجلد، برؤيا يراها العبدُ في منامه، بخطبة يسمعها في مسجد تُغيِّر نظرته للحياة، بمشهد يراه في الشارع فيقلب تفكيره رأساً على عقب، حدَّثني صديق عزيز عليَّ مرةً قال: دخلتُ المستشفى أشكو مرضاً في معدتي، وكنتُ اقول بيني وبين نفسي: طال البلاء يا رب فإلى متى؟

ثم أدخلوا معي في الغرفة مريضاً ليأخذ جرعة الكيماوي، أعطوه إياها على هيئة أمصال، فامتصتْ تلك الجرعات عافيته وغيرتْ لونه! ثم خرج متحاملاً على ولديه بعد ساعتين!

فقلتُ: يا رب لكَ الحمدُ، تأدبتُ وفهمتُ الرسالة، وحفظتُ الدرس، أين ما أصابني مما أصابَ هذا الرجل، قليل ألم في البطن، وحمية قاسية، ماذا تساوي أمام جرعات الكيماوي!

لم يكن إبراهيم الحربي ساذجاً ليتمنى موت ابنه، ولكن الله أرسل له رسالةً على هيئة رؤيا ليثبته إذا ما وقع القدر!

كان إبراهيم الحربي أفقه أهل زمانه، يقول عنه اللغوي البارع ثعلب: ما فقدتُ إبراهيم الحربي في مجلس لغة ولا نحو منذ خمسين عاماً!

وقال عنه أبو بكر الخطيب: كان إبراهيم الحربي إماماً في العلم، رأساً في الزهد، عارفاً بالفقه، بصيراً بالأحكام، حافظاً للحديث، مميزاً لِعللِهِ، قيماً بالأدب، جمَّاعة للغة، صنّف غريب الحديث، وكتباً كثيرة، وأصله من مرو!

فلا تزهدوا برسائل الله،

فإن الله يعيدك إليه بضيقٍ في الصدر بعد الذَّنب،

بالجنازة تمرُّ بكَ،

بآيةٍ تسمعها فتشعرُ أنها نزلتْ فيك،

بحديثٍ نبوي دون مناسبة،

بمرضٍ يُشعركَ بضعفك،

بغدر صديق فيريكَ أن لا أمان سواه،

بهجر حبيب فيثبتُ لكَ أنه وحده يبقى إذا ما غادر الناس،

ما أفقركَ إليه سبحانه، وما أغناه عنكَ، ولكنه يُعيدكَ إليه!

خيركم لأهلي من بعدي!

قال النبيُّ ﷺ يوماً لأصحابه: خيركم خيركم لأهلي بعدي!

وحفظَ خيرهم الدرس جيداً، فعندما أنشأ عمر بن الخطاب الدواوين، وكتبَ فيها نصيبَ المسلمين من الأعطيات، جعلَ أعلى راتبٍ من بيت المال هو راتب أمهات المؤمنين! ثم بعدهنَّ آل بيت رسول الله ﷺ، ثم كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار من أهل بدر، ثم الذين أسلموا قبل الفتح، ثم بقية الناس!

وعندما أصابَ المسلمين قحط وجدب، وخرج عمر بن الخطاب ليستسقي بالمسلمين، نادى على العباس بن عبد المطلب، ودعا وقال: اللهم إنا كنا نستسقي بنبيك، وإنه قد مات، فالآن نستسقيك بعمِّ نبيِّك!

هكذا كان حُبُّ الصحابة لآل بيت النبوة فلا تصدقوا التاريخ المزور، ولا روايات المنحرفين بعقائدهم، فيتعبدون إلى الله ببغض الصحابة!

وكان عبد الرحمن بن عوف من أثرى الصحابة، وأغنياء أهل زمانه، وباع حديقةً له بأربعمئة ألف درهم، وقسم المبلغ بين أمهات المؤمنين!

وعن أم بكرٍ بنت المسور أن عبد الرحمن بن عوف باع في مرةٍ ثانية أرضاً له لعثمان بن عفان بأربعين ألف دينار، فقسم المبلغ بين بني زهرة أخوال النبي ﷺ، وبين أزواجه!

وأرسل عبد الرحمن بن عوف مع المسور نصيب عائشة.

فقالت له: من أرسل هذا؟

فقال لها: عبد الرحمن بن عوف.

فقالتْ: إنَّ رسول الله ﷺ قال: لا يحنو عليكُنَّ بعدي إلا الصابرون!

سقى الله ابن عوفٍ من سلسبيل الجنة!

الوفاء عزيز كما قالت العرب! والنبلاء يحفظون أحبة أحبتهم بعد موتهم، فانظروا إلى الذين تركهم أحبتكم بعدهم، زوجة صديقك العزيز وأولاده من بعده كُنْ لهم الكتف والسند، صديقات أمك بعد موتها أكرمهن، أحباب أبيك بعد موته اُجبرْ خواطرهم!

قرأتُ مرةً عن شاب قال: ماتَ أبي وأنا صغير، واشتهيتُ أن أشتري دراجة، ولم يكن عند أمي مال، وكانت أمي قد حدثت أمامي أنها وجدت في وصية أبي رقم هاتف ويقول عنه إذا احتجتم شيئاً من بعدي فاتصلوا بهذا الرقم!

وكانت أمي عزيزة نفس، ولكني كنتُ صغيراً فاتصلتُ أنا دون علمها وقلتُ له: أنتَ لا تعرفني ولكن أبي رحمه الله قال، إذا احتجنا شيئاً أن نتصل بك، وإني أريدُ دراجة، أنا ابن فلان!

فلم تغب شمس ذلك اليوم إلا وقد جاء إلى بيتنا حاملاً الدراجة معه، وترك لأمي مبلغاً من المال، وقال لها: يا أختي يصلك مثله كل شهر بإذن الله!

يا للوفاء!

ولو بشقِّ تمرة!

كان شُعبة بن الحجاج أحفظ أهل الأرض في زمانه لحديث النبيِّ صلى الله عليه وسلم، قال عنه سفيان الثوري: شُعبة أمير المؤمنين في الحديث!

وقال عنه أحمد بن حنبل: لم يكن في زمان شُعبة مثله في الحديث.

وقال عنه الشافعي: لولا شُعبة ما عُرف الحديث في العراق!

درسَ على يد شُعبة خلقٌ كثير، صار منهم بعد ذلك مشاهير من فقهاء هذه الأمة، وأشهر من درس على يديه: عبد الله بن المبارك، وسفيان الثوري، والكسائي، والقاضي أبو يوسف، والأصمعي، وهارون الرشيد!

كان كريماً سخيَّ النفس، يروي عنه صديقه أبو داود الطيالسي فيقول: كنا عند شُعبة فجاء سليمان بن المغيرة يبكي.

فقال له شُعبة: ما يُبكيكَ يا أبا سعيد؟

فقال: ماتَ حماري، وذهبتْ مني الجُمعة، وذهبتْ حوائجي.

فقال له: بكم اشتريته؟

قال: بثلاثة دنانير.

فقال له شُعبة: واللهِ ما عندي غير ثلاثة دنانير، فخذها، واشترِ بها حماراً، ولا تبكِ!

يا لجبر الخواطر يا شُعبة!

وعن أبي داود أيضاً قال: كنا عند شُعبة نكتب ما يُملي علينا، فجاء سائل، فقال شُعبة: تصدقوا عليه. فلم يتصدق أحد!

فقال: تصدقوا فإنَّ أبا اسحاقٍ حدثني عن معقل بن عدي بن حاتم أنَّ النبيَّ ﷺ قال: اتقوا النار ولو بشق تمرة!

فلم يتصدق أحد!

فقال: تصدقوا فإنَّ عمرو بن مُرة حدثني عن خيثمة بن عدي أن النبي ﷺ قال: اتقوا النار ولو بشق تمرة، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة!

فلم يتصدق أحد!

فقال: تصدقوا فإنَّ مُحلا الضَّبي حدثني عن عدي بن حاتم أن النبي ﷺ قال: اتقوا النار ولو بشق تمرة!

فلم يتصدق أحد!

فقال: قوموا عنِّي، فواللهِ لا أحدثكم ثلاثة أشهر!

ثم دخل بيته، فأخرجَ عجيناً وأعطاه للسائل وقال: خذه، فإنه كان طعامنا لليوم!

وعن سليمان بن حربٍ قال: لو نظرتَ إلى ثياب شُعبة لم تكن تساوي عشرة دراهم، وكان شيخاً كثيراً للصدقة!

الصدقة لا تحتاج إلى كثير مال،

وإن كان الأغنياء أولى أن يقوموا بها،

ولكنها تحتاج إلى سخاء نفس، وطيب قلب،

ولا يمنعك أنك ليس بإمكانك أن تعطي إلا القليل، فالحرمان أقل منه!

وإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، فتصدقوا،

واتقوا النار ولو بشق تمرة،

فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة، ولا تجمعوا على السائل الحرمان، وسوء الكلام!

أكثرتَ لها!

يقول أسلمُ مولى عمر بن الخطاب: خرجتُ مع عمر بن الخطاب إلى السوق، فلحِقَتْ عمر امرأةٌ شابة، فقالتْ: يا أمير المؤمنين، ماتَ زوجي

وتركَ صِبيةً صغاراً، واللهِ ما يُنضجون كراعاً، ولا لهم زرع ولا ضرع، وخشيتُ أن تأكلهم الضَّبعُ، وأنا بنتُ خُفاف بن إيماء الغفاري، وقد شهد أبي الحُديبية مع النبي صلى الله عليه وسلم!

فوقفَ معها عُمر ولم يمضِ، ثم قال: مرحباً بنسبٍ قريب.

ثم انصرفَ إلى بعيرٍ كان مربوطاً في الدار عليه غِرارتين/ ما يُشبه الكيس ملأها طعاماً، وحملَ بينهما نفقةً وثياباً، ثم اقتادَ البعير حتى وصل إليها، فناولها خِطامه، ثم قال: اقتاديه فلن يفنى حتى يأتيكم اللهُ بخير. فأخذته ومضتْ!

فقال رجل: يا أمير المؤمنين، أكثرتَ لها!

فقال له عمر: ثكلتكَ أمكَ، واللهِ لأرى أبا هذه وأخاها قد حاصرا حصناً زماناً ففتحناه، ثم أصبحنا نستفيء سهامهما فيه!

بالطبع كانت هذه المرأة تحصلُ على نصيبٍ من بيت المال شأنها شأن بقية المسلمين، فقد أنشأ عمر بن الخطاب ديواناً كاملاً للأُعطيات، ولكن لأن المرأة أرملة ولا معيل لها، ولم يتركْ لها زوجها لا بستاناً، ولا أغناماً، فلم تكُنْ تكفيها النفقة.

وبالقانون فليس لها أكثر من نصيبها كباقي المسلمين، وقد كان عُمر حازماً في هذا الشأن على نفسه وأولاده، ومن باب أولى على الناس،

ولكنه خلوقٌ ووفي وكريم، كيف لا وقد تخرَّج من مدرسة النبوة التي يقول فيها سيدنا: حُسن العهد من الإيمان!

فعندما عرف عمر نسب المرأة، عرفَ فضل أهلها، ورحَّبَ بها، وأثنى على نسبها، وأعطاها الذي أعطاها، ووعدها أن يصل إليها مثل الذي أخذته كل مرةٍ ليغنيها عن السؤال!

وعندما قال له أسلمُ أن الذي أعطاه للمرأة كثير، غضبَ عمر، وأخبره أن أباها وأخاها كانا من المجاهدين في سبيل الله، وأنهما شاركا في حصار حصنٍ فتحه الله على المسلمين، وهو اليوم يدرُّ مالاً وفيراً على بيت المال، فكيف لا يعطيها والمسلمون يأكلون بفضل اللهِ من ثمرة جهادهما!

النبيل يُنزل الناس منازلهم،

ويرحم عزيز قوم جارتْ عليه الدنيا وقلبتْ أحواله،

ويحفظ ماء وجوههم،

ويقيل عثراتهم، ويحفظ ماضيهم، ويراعي فضل أهاليهم وصحبتهم القديمة معه، *فكونوا نبلاء!*

قُمْ فأعْلِمه!

يقول عبد الله بن عمر بن الخطاب: كنتُ جالساً عند النبيِّ صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رجل فسلَّم ثم مضى.

فقلتُ: يا رسول الله إني أُحبُّ هذا!

فقال لي: هل أعْلَمته؟

قلتُ: لا.

قال: قُمْ فأعلمه!

فأتيته، فسلَّمتُ عليه، فأخذتُ بمنكبه، وقلتُ: واللهِ إني لأحبكَ في الله!

فقال لي: وإني أحبكَ في الله!

يُعلِّمنا النبيُّ صلى الله عليه وسلم أن لا نكتم مشاعرنا الجميلة، وأن نُعبِّر عنها، فما دامت بالحلال فليس هناك ما يخجل المرءُ منه، ثم وهل الحُب مدعاة للخجل؟! على العكس تماماً إن البغض الذي نسارع لإظهاره في خصوماتنا هو المخجل وأولى بنا أن نكتمه!

سأله عمرو بن العاص مرةً: يا رسول الله من أحبُّ الناس إليكَ؟

فقال: عائشة.

فقال له: ومن الرجال؟

فقال: أبوها!

لم يجد حرجاً أن يقول إنه يُحبُّ زوجته!

وعندما نزل عليه الوحي، وأصابه الخوف والبرد، التجأ إلى خديجة، واحتمى بحضنها، وقال لها: دثريني

المشاعر لا تُقلل من قيمة الناس، وهذا هو سيد الناس يعيشُ مشاعره عن آخرها!

يحسبُ بعض الأزواج أنه إذا أظهر حبه لزوجته فهذا نقص في رجولته، أو أنها ستطمع فيه وتستخف به، وأية رجولة أروع من أن يبوح الرجل لزوجته بحبه، ثم وهل تُمتلكُ المرأة إلا من قلبها!

ويحسبُ بعض الآباء أن ضرورات الأبوة أن يكون حازماً عابساً كي يكون له هيبة وإلا استهان الأولاد به، هذا العبوس والحزم يجعلهم منضبطين كأنهم جنود في ثكنة عسكرية، ولكن متى ما كانت البيوت كالثكنات العسكرية فهي بيوت قاسية لا يخرج منها إلا القساة والمرضى النفسيون، فاتقوا الله في أولادكم، وفي أنفسكم، جاهروا بالحُب، وعيشوه، وتلذذوا به، ولا تجعلوا قلوبكم مقابر لأجمل أحاسيس فيها!

فجحَدَ فجحدتْ ذريته!

كان كل حديثه حلو وماتع، وكان يُحدِّثُ أصحابه باستمرار عن أخبار الغيب الذي لم يشهدوه، فيؤنسهم، ويربط على قلوبهم، ويزيد لهم إيمانهم!

وحدَّثهم مرةً فقال: لما خلق اللهُ آدم مسحَ على ظهره، فسقطَ من ظهره كل نسمةٍ هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسانٍ منهم وبيصاً من نور، ثم عرضهم على آدم.

فقال: يا رب من هؤلاء؟

فقال له: هؤلاء ذريتك!

فرأى آدم رجلاً منهم، فأعجبه وبيص ما بين عينيه، فقال: يا رب من هذا؟

فقال له: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يُقال له داود.

فقال: يا رب كم عمره؟

فقال له: ستون سنة!

فقال: يا رب زده من عمري أربعين سنة!

فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت، فقال: أولمْ يبقَ من عمري أربعون سنة؟!

فقال له: أولمْ تُعطها لابنك داود!

فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: فجحدَ آدمُ فجحدتْ ذريته، ونسيَ آدم فنسيت ذريته، وخطِىء آدم فخطئت ذريته!

هذا حديث شيِّق لو أردنا أن نكتب في دروسه الصفحات لفعلنا، ولكن يكفي من القلادة ما أحاط بالعُنق كما تقول العرب دلالةً على الاختصار!

الدرس الأول:

خلق الله سبحانه أرواح الناس كلها دفعةً واحدة، ثم أبقاها عنده، فإذا أراد أن يخلقَ إنساناً أرسل إليه الملكُ بالروح التي خلقها قديماً، فنفخها فيه وهو جنين في بطن أمه!

الدرس الثاني:

يعلمُ الله أهل الجنة وأهل النار قبل خلقهم، وما النور الذي كان بين عيني كل واحدٍ منهم قبل خلق أجسادهم إلا مقدار إيمانهم، لهذا أُعجب آدم عليه السلام بالنور بين عيني داود عليه السلام.

الدرس الثالث:

كان اللهُ تعالى قد أوحى إلى آدم عليه السلام أن عمره سيكون ألف سنة، وكان آدم عليه السلام يحسبُ هذا، لهذا عندما جاءه ملكُ الموت، أخبره أن الموعد لم يحِنْ بعد، وقد بقي له أربعون سنة، وهذا أمر خاص

بآدم عليه السلام وحده، والشواذ لا يلغي القاعدة، والاستثناء لا يُبنى عليه، والقاعدة «وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ»!

الدرس الرابع:

لا يستطيع الإنسان أن يخرج من قفص بشريته مهما حاول، والناس مفطورون على حُب الحياة وكراهية الموت، والأنبياء نهاية المطاف ناس، لهذا جحدَ آدم عليه السلام وعده القديم بأن يعطي ابنه داود عليه السلام أربعين سنة! ولأننا ذريته وبضعة منه، فالجحود والنسيان والخطيئة فينا! وأقربنا إلى الله أسرعنا امتثالاً، وأكثرنا استغفاراً، وأوفانا اعتذاراً إلى الله!

نحن نكلؤك يا رسول الله!

خرجَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم في غزوة ناحية نجد، فظفرَ وغَنِمَ، وفي طريق عودته أراد أن يُعسكر بالجيش ليستريح، ولا بُدَّ للقوم من حارس حتى لا

يُفاجئهم عدو قد لحق بهم يريدُ ثأراً. فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: مَنْ رجلان يكلآنا في ليلتنا هذه من عدونا؟

فقال رجلٌ من المهاجرين، ورجل من الأنصار، نحن نكلؤك يا رسول الله.

فخرجا إلى فم الشِّعب بعيداً عن الجيش يحرسان، فقال الأنصاري للمهاجريِّ: أتكفيني أول الليل وأكفيك آخره، أم تكفيني آخره وأكفيك أوله؟

فقال المهاجري: بل اكفني أوله وأكفيك آخره!

فنام المهاجري، وقام الأنصاري يُصلي، ووصل بعض العدو، فلم رأوه قائماً عرفوا أنه حارس لجيش يُعسكر في الشِّعب، فرموه بسهم أصابه، فانتزعه وألقاه وأكمل صلاته! فرموه بسهم ثانٍ أصابه، فانتزعه وألقاه وأكمل صلاته! فرموه بسهم ثالث فلم يعد يقوى على الوقوف، فزحف عند صاحبه، وأيقظه وقال: قُمْ فقد أُصِبتُ!

فلما رأى المهاجري صاحبه الأنصاري مضرجاً بدمائه قال له: يغفرُ اللهُ لك، ألا كنتَ أيقظتني أول ما رموك؟

فقال: كنتُ في سورة من القرآن افتتحتها أُصلي بها، فكرهتُ أن أقطعها، وأيمُ اللهِ لولا أن أُضيِّع ثغراً أمرني النبيُّ صلى الله عليه وسلم بحفظه، لكان قطعُ نفسي أهون عليَّ من أن أقطعها!

مضى الجيلُ الأول إلى ربه بفخرٍ، النبيُّ صلى الله عليه وسلم بعد أن بلّغ الرسالة وأدى الأمانة، والصحابة بعد أن كانوا سيفه الذي حاربَ به، وعكازه الذي اتكأ عليه، وقوسه الذي رمى به أعداءه. ولكن الثغور التي أمر النبيُّ صلى الله عليه وسلم بحراستها ما زالت قائمة تريدُ من يحرسها!

بيت المسلم ثغر يجب حراسته،

وحراسته بتربية الأولاد على القرآن والسُّنة، والأخلاق الحميدة، وحُب الخير للناس، والاعتزاز بهذا الدين!

والمجتمعُ المسلم ثغر يجب حراسته،

وحراسته تكون بإقامة العدل فيه، بردِّ المظالم إلى أهلها، بإعانة الفقير والمسكين، وبنجدة الملهوف، ونصح العاصي، وتشجيع المحسن، وبحماية المجتمع من الأفكار الهدامة، والمعتقدات البالية، والرد عليها، وبيان خطرها!

المسجد ثغر، ودار تحفيظ القرآن ثغر، والمدرسة ثغر، والمستشفى ثغر، وكل بقعة في المجتمع ثغر،

وكل ثغر حراسته وفق ما جاء به الاسلام العظيم هو عبادة،
فالعبادة ليست صلاةً وصياماً وحسب،
إن إقامة الدين معتقداً وسلوكاً عبادة من أسمى العبادات!
فاحموا ثغوركم!

الورع الكاذب!

رأى عمر بن الخطاب رجلاً في السوق يحملُ تمرةً ويُنادي عليها صارخاً: لقد وجدتُ تمرةً فمن صاحبها؟!
فقال له عمر: كُلها يا صاحب الورع الكاذب!
كثيرون هم الذين نجدهم أصحاب ورعٍ في بسائط الأمور، حتى لنعتقدَ أنهم بقية من أصحاب النبيِّ صلى الله عليه وسلم، فإذا عرفنا بقية أحوالهم، وجدنا أن بينهم وبين أخلاق الإسلام وورعه كما بين المشرق والمغرب! اهتمام بالقشور على حساب اللُّبِ، وبالمظهر على حساب الجوهر، والسواك سُنة، ولكن عدم أكل لحوم الناس فريضة!
ورأى عمر بن الخطاب رجلاً يمشي متماوتاً، فسأل ما به: فقالوا هو ناسك زاهد!

فضربه عمر بالدرة، وقال له: لا تُمِتْ ديننا أماتكَ الله، فإن الإسلام ليس بمريض!

الزهد ليس أن يمشي المرء هزيلاً كأنه على بعد خطوات من الموت، ولا أن ينكش شعره، ولا يلبس ثياباً بالية، إنما الزهد تركَ الحرام، فمن تركَ الحرام كان زاهداً ولو ملكَ مال قارون، ومن غاصَ في الحرام لم يكن زاهداً ولو لم يملك ثمن رغيف خبز!

وقد سُئل الحسن البصري: أيكون المرءُ زاهداً وهو يملك ألف درهم؟

فقال: نعم، إذا كانت الدراهم في يده ولم تكن في قلبه!

وروى الإمام أحمد في مسنده إلى أبي الدرداء أنه قال: أستعيذُ باللهِ من خشوع النفاق!

فقالوا: وما خشوع النفاق؟

فقال: أن ترى الجسد خاشعاً والقلب ليس بخاشع!

وقال سفيان الثوري: سيأتي أقوام يخشعون رياءً وسُمعة، وهم كالذئاب الضواري، غايتهم الدنيا، وجمع الدراهم من الحلال والحرام!

وجاء رجل زنى بامرأةٍ إلى الإمام أحمد يسأله عن ابنه من الزنا.

فقال له الإمام: لماذا لم تعزِلْ؟

فقال الرجل: بلغني أن العزل مكروه!

فقال له: أولم يبلغكَ أن الزنا حرام؟!

ورأتْ عائشة رجلاً متماوتاً، فقالتْ: ما هذا؟

فقالوا: زاهد.

فقالتْ: قد كان عمر بن الخطاب زاهداً، وكان إذا قال أسمعَ، وإذا مشى أسرعَ، وإذا ضربَ في ذاتِ اللهِ أوجعَ!

فاللهم إنا نعوذ بك من الورع الكاذب،

ومن خشوع الجسد وفجور القلب،

وأن نُريَ الناس شيئاً ونُري الله غيره!مكتبة

فاللهُ أحقُّ بالوفاء!

جاءت امرأةٌ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم فقالتْ: يا رسول الله، إن أمي ماتتْ ولم تحج، فأحجُّ عنها؟

فقال لها: نعم، حُجِّي عنها!

وجاءت امرأة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالتْ: يا رسول الله، إنّ أمي نذرتْ أن تحُجَّ فماتتْ قبل أن تحج، فأحُجَّ عنها؟

فقال لها: نعم، حجي عنها، أرأيتِ لو كان على أمكِ دينٌ أكنتِ تقضينه؟

قالت: نعم.

فقال: اقضوا اللهَ الذي له، فإنَّ اللهَ أحقُّ بالوفاء!

البرُّ لا ينقطعُ بالموت، وإنَّ من تمام البرِّ أداء ديون الميت، الديون التي للناس، والديون التي لله أيضاً!

قد ينزل بالإنسان مرضٌ قبل موته، ويضطره هذا المرض لأن يستدين، وباركَ الله بمن أعان إنساناً، ومدَّ يداً، ورحم حاجة، وراعى كرامة، وجبر خاطراً، وواسى مصاباً!

فيرحل هذا الإنسان عن الدنيا وعليه دين، والله تعالى من عدله يسامحُ بحقِّه ولكنه لا يسامح بحقوق الناس! وفي الحديث يغفرُ اللهُ للشهيد كل شيءٍ إلا الدَّين!

فكل شيءٍ هو حقُّ الله، وقد غفره تكرماً منه سبحانه، أما الدين فهو حقُّ الناس!

وإن كان لا يُغفرُ الدَّين للشهيد الذي قدّم روحه ودمه قرباناً لله، فمن باب أولى أن لا يُغفر لمن دونه!

فانظروا في أحوال أمواتكم، وابحثوا عن ديونهم واقضوها، فهذا باب عظيم من أبواب البر!

وكما نقضي عن أحبابنا ديون الناس عليهم، فكذلك دَينُ اللهِ تعالى أحق بالوفاء، فمن مرضَ في رمضان ومات دون أن يقضي ما أفطره فعلى أقربائه أن يصوموا بدلاً منه، والمرأة التي عليها أيام فطر لم تصمها فماتت يجب على أهلها أن يصوموها عنها.

وأنبل من هذا من سعى لأداء ديون المسلمين عند اللهِ وليس بينه وبينهم قربى، أعجبتني مبادرة قام بها أشخاص شرح الله صدورهم لعمل خير، وهو أنهم في رمضان نظروا حولهم، وسجلوا أسماء العجائز وكبار السن الذين لا يستطيعون الصيام، ولا يجدون مالاً ليدفعوا كفارة الصيام، فدفعوها عنهم لأن دين اللهِ أحق بالسداد!

ما حَملكَ؟!

كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يُكثر أن يُحدِّثَ أصحابه عن أحداث من الغيب تسليةً لهم وتعزيةً وتثبيتاً، فحدَّثهم مرةً عن رجلٍ أعطاه اللهُ مالاً كثيراً، ولكنه لم يشكر هذه النعمة، ولم يعمل خيراً قط، وإنما كان مسرفاً على نفسه، كثير الذنوب!

فلما حضرته الوفاة، جمعَ أولاده عنده وقال لهم: أيُّ أبٍ كنتُ لكم؟

فقالوا: خير أب.

فقال لهم: فإني لم أعمل خيراً قط، فإذا متُّ فأحرقوني، ثم اسحقوني، ثم ذروني في يومٍ عاصفٍ!

فلما ماتَ نفَّذُوا وصيته، حرقوا جثته، ثم سحقوا عظمه، ثم نثروا رماده في يوم عاصفٍ ففرقته الريح!

فجمعه اللهُ تعالى، وأقامه بين يديه، وقال له: ما حملكَ؟ أي لِمَ فعلتَ هذا؟

فقال: مخافتك يا رب!

فغفرَ اللهُ له!

لا يُفهمُ من هذا الحديث أنه لا بأس افعَلْ ما شئتَ ما دمتَ تحسِنُ الظنَّ بالله! وإنما يُفهمُ منه أنَّ حسن الظنِّ بالله ومخافته لا يتعارضان مع العمل الصالح، وإنما يتكاملان، فالعبد في الدنيا بين ذنبٍ وتوبة، بين فعل

خير وفعل شر، وحسن الظنِّ يعني أن يعرفَ العبدُ أن رحمةَ اللهِ أكبر من ذنوبه، دون أن يتجرأ على الله، ويبارزه بالمعاصي متكلاً على حسن الظن فقط! بل إن حسن الظن بالله يبقى ناقصاً ما لم يقترن بالعمل، صحيح أنه لن يدخل أحد الجنة بعمله حتى النبيّ صلى الله عليه وسلم، وإنما برحمة الله، ولكن ليس شيء أجلب لرحمة الله من العمل الصالح، وإلا لو تركنا العمل واعتمدنا على حُسن الظن فما الغاية من إرسال الله تعالى الأنبياء بالشرائع والعبادات، كان يكفي أن يقولوا للناس: إن لكم رباً رحيماً فافعلوا ما شئتم!

وفي الحديث درس عظيم من دروس العقيدة، وهي أن لا يتألى أحد على الله تعالى، ويقطع بالنار لإنسان مهما بلغ من الفجور والمعصية، وإنما نحكمُ على هذه المعاصي، وذلك الفجور، بأنه خطأ، ويتنافى مع دين الله وسنة نبيه، نحكم على الفعل لا على الفاعل، أما الجنة والنار فبيد الله تعالى وحده، من أدخله النار فبعدله سبحانه، ومن أدخله الجنة فبرحمته!

فتأدبوا!

اللهمَّ بارِكْ لهما!

كان لأبي طلحة الأنصاري ولدٌ قد مرضَ مرضاً شديداً، فخرجَ أبو طلحة من بيته إلى بستانه، ثم إلى المسجد، وفي هذه الأثناء ماتَ الصبيُّ، فقامتْ أم سُليمٍ إليه، فغسَّلته وكفَّنته، وتركته في فراشه كأنه نائم، فلما عاد أبو طلحة سأل زوجته أم سليم: ما فعلَ ابني؟

فقالت له: هو أسكنُ ما كان!

ثم قرَّبتْ إليه طعامًا فأكل، ثم أراد منها ما يريدُ الرجل من زوجته، فأجابته، فلما فرغا، قالتْ له: قُمْ ادفِنْ الصبيِّ!

فلما كان الصباح جاء أبو طلحة إلى النبيِّ ﷺ وأخبره بالذي كان من زوجته أم سُليم.

فقال له النبيُّ ﷺ: أعرستم الليلة؟

فقال أبو طلحة: نعم.

فقال: اللهمَّ بارك لهما!

فولدتْ أم سُليم من بركة تلك الليلة بعد تسعة أشهر غلاماً ببركة ودعاء النبيِّ ﷺ.

فقالتْ له أم سُليم بعد أن وضعته: احفظه حتى تأتيَ به النبيَّ ﷺ، وأرسلتْ معه بعض تمراتٍ ليُحنكه بها، فيكون أول شيءٍ يدخل جوف الغلام ريق النبيِّ ﷺ!

فأخذ النبيُّ ﷺ الغلام، ثم قال لأبي طلحة: أمعكَ شيءٌ؟

فقال أبو طلحة: تمرات.

فأخذها النبيُّ ﷺ، ثم مضغها بفمه الشريف، ثم حنَّكَ بها المولود، وأسماه عبد الله!

يا للإيمان حين تُخالط بشاشته القلوب، فإياكَ أن تتهم أم سُليم بأنها ناقصة الأمومة، واللهِ إنها لامرأة طاعنة في الإيمان، جبل في الصبر، قمة في الفهم، عملاقة في الرضا، تعرفُ أن الفزع لا يردُّ غائباً، فلم تُردْ أن تُفسِدَ على زوجها ليلته، أرادتْ أن يتناول طعامه ويستريح أولاً، ثم تخبره بموت ابنهما، ولكن قدَّر الله شيئاً آخر، وإنَّ الحيَّ أبقى من الميت، وإن الدين اتباع، وكان إذا ماتَ لأمهات المؤمنين أخ أو أب، تنتظِرُ مرور ثلاثة أيامٍ، ثم تغتسل وتأخذُ طيباً، ثم تقول ليس لي في الطيب من حاجة، ولكن لا يحل لمسلم أن يحد على مسلم فوق ثلاث!

كانوا في أحزانهم تماماً كما في أفراحهم في رضى الله تعالى ووفق شرعه!

هي النخلة!

كان الصحابة عند النبيِّ صلى الله عليه وسلم، وكان من عادته أن لا يتركَ مجلساً يمضي دون فائدة.

فقال لهم: إنَّ من الشجر شجرةً لا يسقطُ ورقها، وإنها مثل المسلم، فحدثوني ما هي؟

فبدأ الناس يُسمّون له شجراً من شجر البوادي، وهو يقول: لا.

وكان عبد الله بن عمر في أول شبابه حاضراً المجلس، فوقع في قلبه أنها النخلة ولكنه خجل أن يتكلم لصغر سنه.

ولما لم يعرف الصحابة ما هي الشجرة، قالوا: حدثنا ما هي يا رسول الله؟

فقال: هي النخلة!

فلما انفضَّ المجلس قال عبد الله لأبيه عمر بن الخطاب، وقع في قلبي أنها النخلة، فاستحييتُ أن أقول

فقال له عمر: لو أنكَ قلتَ هي النخلة لكان ذلكَ أحبَّ إليَّ من الدنيا كلها!

الفكرة من هذا كله أنَّ الإنسان يُحِبُّ أن يفخر بأولاده، وأن يراهم ناجحين ومميزين، وهذه من الفطرة التي فطر الله الناس عليها، والمؤمن والكافر في هذا سواء، فهذا عائد إلى أصل الطبيعة الإنسانية، ولا علاقة له بمنسوب الإيمان في قلب الآباء والأمهات!

فإذا كان الكاتب ينتشي فرحاً بروايةٍ تُحققُ نجاحاً، والفلاح يسعدُ بمحصول وافر بعد تعبٍ طويل، والصيادُ يفخرُ بصيده الكثير، فالآباء والأمهات أشد فرحاً بنبوغ أولادهم من الأديب بروايته، ومن الفلاح بمحصوله، ومن الصياد بصيده!

فيا أيها الأبناء: قد تجدون من يفرحُ بنجاحكم من الناس أصحاب القلوب الطيبة، وقد تجدون من يدعو لكم بالبركة في رزقكم من الناس التي تحبُّ الخير للناس، ولكن كآبائكم وأمهاتكم لن تجدوا، فهم وحدهم من دون الناس الذين يسعدهم أن تكونوا أفضل منهم، وتحققوا نجاحاً أكثر مما حققوه، ومالاً أكثر من الذي جنوه.

فالله الله، في قلوب تؤثركم على أنفسها،

بل لا تجد سعادتها إلا بسعادتكم،

ونجاحها إلا بنجاحكم،

ومن قبل قد نغّصَ على نوحٍ عليه السلام فرحة نجاته بأن علم أنَّ ابنه كان من القوم الكافرين!

ما بالنا نكره الموت؟

جاء سليمان بن عبد الملك من الشام يريدُ مكة، فمرَّ بالمدينة المنورة وأقام فيها أياماً، وفي أحد أيام إقامته قال لمن عنده: هل بالمدينة أحدٌ أدركَ أحداً من أصحاب النبيِّ صلى الله عليه وسلم؟

فقالوا له: أبو حازم، سلمة بن دينار، وكان لقيَ عبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، فأرسل في طلبه، ولما دخلَ عليه، قال له سليمان: ما هذا الجفاء يا أبا حازم؟

فقال له: وأيَّ جفاءٍ رأيتَ مني يا أمير المؤمنين؟

فقال سليمان: أتاني وجوه أهل المدينة ولم تأتني!

فقال له: يا أمير المؤمنين أعيذك باللهِ أن تقول ما لم تكن رأيتني قبل اليوم، ولا رأيتُكَ، فأين جفاء رجلين لا يعرفُ أحدهما الآخر!

فقال سليمان: يا أبا حازم ما بالنا نكره الموت؟

فقال له: لأنكم خرَّبتم الآخرة، وعمرتم الدنيا، فكرهتم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب!

فقال سليمان: فكيف القدوم غداً على الله يا أبا حازم؟

فقال له: أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله، وأما المسيءُ فكالعبد الآبق عاد إلى سيده!

فقال سليمان: فأين تجدني؟

فقال له: اِعرضْ نفسكَ على كتاب الله تعرف مكانك: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ، وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾

فقال سليمان: يا أبا حازم فأيُّ عباد الله أكرم عليه؟

فقال له: أولو المروءة والنُهى.

فقال سليمان: فأي الأعمال أفضل؟

فقال له: أداء الفرائض مع اجتناب المحارم.

فقال سليمان: فأي الدعاء أسمع؟

فقال له: دعاء المحسن إلى المحسن!

فقال سليمان: فأي الصدقة أفضل؟

فقال له: للسائل البائس، وجهد المقِلِّ، ليس فيها مَنٌّ ولا أذى!

فقال سليمان: فأي القول أعدل؟

فقال له: قول الحق عند من تخافه وترجوه!

فقال سليمان: فأي الناس أعقل؟

فقال له: من عمل بطاعة الله، ودلَّ الناس عليها.

فقال سليمان: فأي الناس أحمق؟

فقال له: رَجُلٌ انْحَطَّ فِي هَوَى صاحبه وَهُوَ ظَالِمٌ، فَبَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَا غَيْرِهِ !

فقال سليمان: ما بقيَ مثلكَ يا أبا حازم!

قصة عظيمة، لو أردنا أن نتوقف عند كل جملةٍ فيها ما كفاها كتاباً كاملاً ليفيها حقَّها، ولكن حسب القلادة ما أحاطتْ بالعُنق!

ما بالنا نكره الموت؟

في الحقيقة لا يوجد إنسان يحبُّ الموت،

المؤمن والفاجر كلاهما يُحِبُّ الحياة،

ولكن شتَّان بين من يكره الموت لأنه ليس له في الحياة إلا هوىً يتبعه،

أو شهوة يقضيها، أو مال يجمعه، أو سلطة يتجبر فيها على العباد!

وبين من يكره الموت لأنه خائف وجِلٌ من اللهِ سبحانه،

إذا تذكَّرَ ذنوبه ارتعدَ وخاف، وخجل أن يلقى الله فلا يغفر له،
ثم إذا قارنَ رحمة الله بذنوبه،
عرف أن رحمة الله راجحة فهان عليه ما يجد،
وسعي هذا يبقى بين الخوف والرجاء وهذا هو الإيمان!

واللهُ أغيرُ مني!

قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم يوماً لأصحابه: إن دخلَ أحدكم على أهله، ووجدَ ما يُريبه، أشهدَ أربعاً!

فقام سعد بن معاذٍ متأثراً، وقال: يا رسول الله، أأدخل على أهلي، فأجدُ ما يريبني، أأنتظرُ حتى أُشهد أربعاً؟! لا والذي بعثكَ بالحق إن رأيتُ ما يريبني في أهلي لأطيحنَّ بالرأس من الجسد، ولأضربنَّ بالسيف غير مُصفح، وليفعل الله بي ما يشاء!

فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: يا معشر الأنصار ألا تسمعون ما يقول سيدكم؟

فقالوا: يا رسول الله لا تلمه، فإنه رجل غيور، واللهِ ما تزوّج فينا قط إلا عذراء، ولا طلّقَ امرأةً له فاجترأ أحد منا على الزواج منها من شدة غيرته!

فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: أتعجبون من غيرة سعد، والله أنا أغير منه، والله أغيرُ مني!

الغيرة عن الأعراض من شيم النبلاء، وإنَّ الله لا يُحب الديوث، على أن الغيرة إنما يجب أن تكون بعقلٍ، مبنية على الشواهد، وإلا صارت مرضاً نفسياً، وشكاً مقيتاً تجعل الحياة جحيماً!

روى ابن كثير في البداية والنهاية في أحداث سنة 286 للهجرة قال:

تقدمتْ امرأة إلى قاضي مدينة الرَّبى، فادَّعتْ على زوجها بصداقها خمسمئة دينار، فأنكر هو ذلك!

فجاءت ببنية تشهدُ لها، فقال الشهود: نريدُ أن تكشفَ عن وجهها حتى نعلم إن كانت هي الزوجة أم لا؟

فقال الزوج: لا تفعلوا، هي صادقة فيما تدعيه.

فأُعجبتْ الزوجة من غيرته عليها، وقالتْ هو في حل من صَداقي!

فقال القاضي لمن حوله: اكتبوا هذا في مكارم الأخلاق!

إنَّ مما يندى له الجبين أن ترى الرجل يشارك صورة زوجته في مواقع التواصل وليست في نيته غير أن يُري الناس أنه سعيد في زواجه،

ولكن ينسى هذا أن الزوجة دُرَّة مصونة،

له من دون الناس، يحميها، ويغطيها برموش عينيه،

لا عن تهمة لها، وإنما حماية،

ولأن صون الأعراض من شيم الكرام، ثمّ، لا أحد أغير من الله!

إذا لم تستحِ فاصنَعْ ما شئتَ!

كان القعنبيُّ في شبابه طائشاً، مدمناً على شرب النبيذ! فجلسَ يوماً على قارعة الطريق ينتظرُ أصحابه ليذهبوا إلى الحانة ويشربوا، فإذا برجلٍ يركبُ حماراً وحوله ناس كثيرون يمشون، كل يوقره ويُجله، هذا يقول له يا إمام، وذاك يقولُ له يا إمام!

لفت هذا المشهد القعنبيَّ، فاخترقَ صفوف الناس حتى وصل عند الإمام، وأمسكَ بلجام حماره، وقال له: من أنتَ؟

فقال له: شُعبة بن الحجاج! وكان شُعبة يُلقّبُ بأمير المؤمنين في الحديث!

فقال القعنبيُّ: من شُعبة؟

فقالوا له: مُحدِّث.

فقال: وما مُحدِّث؟

فقالوا: يُخبرُ الناس حديث النبيِّ صلى الله عليه وسلم.

فقال له: حدثني!

فقال له شُعبة: حدثني منصور بن المعتمر، عن ربعي بن خِراش، عن أبي مسعود البدري، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: مما أدركَ الناس من كلام النبوة الأول، إذا لم تستحِ فاصنعْ ما شئت!

فهمَ القعنبيُّ الرسالة، فعاد إلى بيته، وأقبل على العبادة، ثم ارتحل إلى المدينة ودرس عند الإمام مالك، فحفظ عنه الموطأ كاملاً، حتى قال عنه الإمام الذهبي: القعنبي أوثق من روى الموطأ!

ولما حفظَ العلم عن مالكِ، أراد أن يعود إلى البصرة ويتلقى الحديث عن شُعبة بن الحجاج فلم ينسه طوال عمره، فلما عاد إلى البصرة، وجد شُعبة قد ماتَ، فلم يروِ عنه إلا الحديث الذي كان سبباً في توبته: مما أدركَ الناس من كلام النبوة الأول، إذا لم تستحِ فاصنعْ ما شئتَ!

من كان يتصور أن الشاب المستهتر، شارب النبيذ، سيصبحُ يوماً أوثق رواة الموطأ، وشيخ الإمامين العظيمين البخاري ومسلم!

من كان يتصور أن عُمر بن الخطاب الصلف الشديد في الجاهلية سيصبحُ فاروق هذه الأمة، وأعدل حكام أهل الأرض!

من كان يتصور أنَّ عكرمة بن أبي جهلٍ الذي أهدرَ النبيُّ ﷺ دمه يوم فتح مكة، سيستشهدُ في اليرموك وهو قائد ميمنة جيش المسلمين!

من كان يتصور أن سُهيل بن عمرو الذي آذى الإسلام بلسانه، وقال للنبي ﷺ يوم الحُديبية، امحُ محمد رسول الله واجعلها محمد بن عبد الله، فلو كنتُ أشهد أنك رسول الله ما حاربتك! سيسلم نهاية المطاف، وسيقف عند الكعبة بعد موت النبيِّ ﷺ خطيباً ويقول للناس: واللهِ إن الرجل لنبي، فلا تكونوا آخر من أسلم وأول من ارتدَّ! ثم يموت بعد ذلك شهيداً في فتح بلاد الشام!

وحده الله سبحانه من يملك الهداية فلا تفقدوا الثقة بأحد،

فقد روى الإسلام كثيرون بدمائهم وكانوا من قبل قد حملوا السيوف وحاربوه!

الثلاثة أصحاب الغار!

حدَّثَ النبيُّ ﷺ أصحابه يوماً عن أخبار الأولين فقال: بينما ثلاثة نفرٍ يتماشون أخذهم المطر، فأووا إلى غارٍ في جبل، فانحطَّتْ على فم غارهم صخرة من الجبل، فأطبقتْ عليهم!

فقال بعضهم لبعضٍ: انظروا أعمالاً صالحة عملتموها، فادعوا الله بها لعله يُفرّج عنكم!

فقال أحدهم: اللهم إنه كان لي والدان شيخان كبيران، وامرأتي، ولي صبية صغار أرعى عليهم، فإذا عدتُ حلبتُ، فبدأتُ بوالديَّ فسقيتهما قبل بَنِيَّ، وإنه نأى بي الشجرُ يوماً فلم آتِ حتى أمسيتُ فوجدتهما قد ناما، فحلبتُ كما كنتُ أحلبُ، فجئتُ باللبن، فقمتُ على رؤوسهما أكره أن أوقظهما من نومهما، وأكره أن أسقي الصبية قبلهما، وهم يتضاغون من الجوع عند قدميّ، فلم يزل هذا دأبي ودأبهم حتى طلع الفجر! فإن كنتَ تعلمُ أني فعلتُ هذا ابتغاء وجهك فافرجْ لنا فُرجةً نرى منها السماءِ!

ففرَّج الله لهم فُرجةً فرأوا منها السماء

وقال الثاني: اللهمَّ إنَّه كانت لي ابنة عم أحببتها كأشدِّ ما يُحب الرجال النساءِ، وطلبتُ إليها نفسها فأبتْ حتى آتيتها بمئة دينار، فتعبتُ حتى جمعتها، فجئتها بها، فلما قعدتُ بين رجليها قالت: يا عبد الله اتق الله ولا

تفضَّ الخاتم إلا بحقه! فقمتُ عنها! فإن كنتَ تعلمُ أني فعلتُ هذا ابتغاء وجهك فافرجْ لنا فُرجة!

ففرجَ الله لهم فُرجة!

وقال الآخرُ: اللهمَّ إني كنتُ استأجرتُ أجيراً بصاع أَرُزٍّ، فلما قضى عمله قال: أعطِني حقي.

فعرضتُ عليه حقَّه فرغِبَ عنه، فلم أزل أزرعه حتى جمعتُ منه بقراً، وراعيها!

فجاءني وقال: اتقِ الله ولا تظلمني، وأعطِني حقي.

فقلتُ: اذهبْ إلى تلك البقر وراعيها فخذها.

فقال: اتقِ الله ولا تهزأ بي!

فقلتُ: إني لا أهزأ بك، خُذ البقر وراعيها.

فأخذه وذهبَ به، فإن كنتَ تعلم أني فعلتُ ذلكَ ابتغاء وجهك، فافُرجْ لنا ما بقيَ.

ففرَّج اللهم لهم ما بقيَ!

لو تأملنا في الأعمال الصالحة التي دعا بها هؤلاء الثلاثة لوجدنا أنها كلها تتعلقُ بحقوق العِباد! فأحدهم قدَّم واجب البرِّ وهو حق أبويه عليه. والثاني

قدم واجب حفظ الأعراض وهو حق الناس عليه. والثالث قدَّم واجب دفع الأُجرة وهو حق العاملين عنده عليه!

لم يذكُرْ أحدهم لا صلاةً ولا صياماً ولا قياماً، هذا لنعرف أنَّ هذه العبادات – على جلال قدرها – فإنها لا تُغني وحدها دون القيام بحقِّ الناس!

أما الآن فسؤال أريدُ أن تسأله لنفسك، قُلْ: ماذا لو كنتُ أنا رابع هؤلاء الثلاثة فبِمَ كنتُ سأدعو؟!

إن كان لكَ عملٌ عظيم في مواقف البر، وصون الأعراض، ودفع الحقوق فأنتَ على الطريق، فثابرْ وزِدْ!

وإن لم يكُنْ لكَ فراجعْ نفسك، وأعِدْ حساباتك، فإن الأعمال الصالحة منجاة إذا وقعت المصاعب، ولا بُدَّ أن يكون لكَ بابُ فرجٍ تدخل منه!

اِجتنبوا الخمر!

كان من عادة النبي صلى الله عليه وسلم أن يقُصَّ على أصحابه من أخبار الأولين، وهذا من بليغ حكمته لأنه يعرفُ أن القصّة مطيَّة سريعة لإيصال المراد، فقال لهم مرةً يُحدِّثهم:

اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث، إنه كان رجلٌ ممن خلا قبلكم تعبَّدَ، فعشقته امرأة غويَّة، فأرسلتْ إليه جاريتها، فقالت له: إنَّا ندعوك للشهادة.

فانطلقَ مع جاريتها، فطفقتْ كلما دخلَ باباً أغلقته دونه، حتى أفضى إلى امرأةٍ وضيئة، عندها غلام، وباطية خمر!

فقالتْ: إني واللهِ ما دعوتكَ للشهادة، ولكن دعوتكَ لتقعَ عليَّ، أو تشربَ كأساً من هذه الخمرة، أو تقتل هذا الغلام!

قال: اِسقني من هذا الخمر كأساً!

فسقته كأساً، فقال: زيديني!

فلم يلبث أن وقع عليها، وقتل الغلام!

فاجتنبوا الخمر، فإنها واللهِ لا يجتمعُ الإيمان وإدمان الخمر، إلا ليوشك أن يُخرِجُ أحدُهما صاحبه!

لما وصلَ عبد الرحمن الداخل صقر قريش إلى الأندلس جاؤوه بزقٍ فيه خمر فقال لهم: إني بحاجةٍ إلى ما يزيدُ في عقلي لا ما يُنقصه!

خلق الله تعالى النَّباتَ فيه حياة ولكن دون روح وعَقل، وخلقَ الحيوانات فيها حياة وروح ولكن دون عَقل، وخلقَ الإنسان فيه حياة وروح وعقل.

فالحيوان أعلى رُتبةً في الخلق من النبات بالروح، والإنسان أعلى رُتبة في الخلق من الحيوان بالعقل. فالذي يشربُ الخمرَ ويُذهب عقله بيديه إنما

ينحَدر بنفسه من درجة الانسانية إلى درجة الحيوانيّة. فما الفارق بينهما إلا العقل، وقد قام هذا بتغييب عقله!

هذه الدنيا مليئة بالاختبارات، والإنسان يُبتلى بما يكره وبما يُحبُّ، فالإنسان يكره المرضَ والفقرَ، ولكنه قد يُبتلى بهما، ليرى الله سبحانه ما يفعل عبدُه بهذا البلاء يصبرُ أم يكفر!

والإنسان يُحبُّ المال والنساء، وقد يُبتلى بهما، لينظر الله سبحانه وتعالى ما يفعل عبده، أيحمدُ ويشكر، أم يزيغ ويهلك.

وبرأيي إن بلاء الإنسان بما يكره، أسهل من بلائه بما يُحبُّ، والسبب أن الإنسان إذا ابتليَ بالفقر أو المرض تنكسرُ نفسه، وانكسار النفس مدعاة للقرب من الله. أما الابتلاء بما يُحبُّ المرء، فمدعاة إلى الطغيان وما خبر قارون منكم ببعيد!

وإني أكاد أقسِمُ أن صبرَ يوسف عليه السلام على امرأة العزيز حين دعته إليها كان أشقُّ من صبره حين أُلقيَ في الجُبِّ، فالجُبُّ قدرٌ وقع عليه ولم يختره، أما عند زليخة فكان عليه أن يُجاهد نفسه، وقد تكاملتْ لديه كل مسببات الوقوع بالإثم: فهو شاب أعزب، وهي امرأة جميلة، وهي سيدة القصر وهو يعيش في كنفها وعليه طاعتها، وهي غلقت الأبواب وهو آمن

من الفضيحة. ويا له من امتحان، فسبحان من أراه البرهان، وصرف عنه السوء والفحشاء!

وبينهما أمور متشابهات!

عن النعمان بن بشير قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: الحلال بيِّن، والحرام بيِّن، وبينهما أمور متشابهات، لا يعلمهنَّ كثير من الناس، فمن اتقى المتشابهات فقد استبرأ لدينه وعِرضه، ومن وقع في الشبهات كراعٍ يرعى حول الحِمى يوشك أن يقع فيه، ألا إنَّ لكل ملكٍ حِمى وحمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحتْ صلح الجسد كله، وإذا فسدتْ فسدَ الجسدُ كله ألا وهي القلب!

هذه المسافة بين الحلال والحرام تحتاج لتركها إلى الورع، وعن الورع قالوا: هو ترك الحلال خوف الوقوع في الحرام!

وعن سعد بن أبي وقاص، وحذيفة بن اليمان، أن النبيَّ ﷺ قال: فضل العِلم أحبُّ إليَّ من فضل العبادة، وخير دينكم الورع!

وهذه صور مشرقة من صور ورع الأوائل:

جيء لعمر بن الخطاب بمسكٍ وعنبر من البحرين، فقال: واللهِ لوددتُ أني أجدُ امرأةً تزنُ لي هذا الطيب حتى أُفرقه بين المسلمين.

فقالتْ له امرأته عاتكة: أنا جيدة الوزن، فهلمَّ أزِنُ لكَ!

فقال لها: لا.

قالت: ولِمَ؟

فقال: أخشى إن قسمته أن يبقى شيء على إصبعكِ، فتمسحين به عنقكِ، فأصيبُ فضلاً عن المسلمين!

واشتهى عمر بن عبد العزيز عسلاً، فأرسلتْ زوجته فاطمة بنت عبد الملك رجلاً على دابةٍ من دواب البريد إلى بعلبك بدينار، فاشترى لهم عسلاً.

فقالتْ فاطمة: إنكَ اشتهيت العسل، فهل لكَ فيه؟

فقال: نعم.

فلما شربَ قال: من أين جئتم به؟

قالت: وجهنا رجلاً على دابةٍ من دواب البريد إلى بعلبك فاشتراه لنا!

فقال لها: ما ينبغي لنا أن نستعمل دواب بريد المسلمين في خاصة حاجتنا!

ونادى على الرجل فقال له: انطلِقْ بالعسل إلى السوق فبعه، وأعِدْ إلينا مالنا، وما تبقى فاشترِ به علفاً لدواب البريد نظير استخدامنا لها!

خليفة المسلمين يرى أنه ليس له حقٌّ أن يستخدم دابةً للمال العام في حاجة خاصة له! بهذا وصل الأوائل!

وعن العباس بن سهم أن امرأةً من الصالحات أتاها خبر موت زوجها، فرفعتْ يديها عن العجين، وقالتْ: هذا طعام قد صار لنا فيه شريك!

كل ما يتركه الميت وراءه هو ميراث، وقد بلغ الورع بهذه المرأة أن ترفع يدها عن العجين حتى لا تأكل منه قبل أن تُقسم تركة زوجها!

فذلكَ لكِ!

قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم يوماً لأصحابه، محدِّثاً إياهم عن غيبٍ لم يشهدوه: إنَّ الله تعالى خلقَ الخلقَ حتى إذا فرغ منهم قامت الرَّحم، فقالتْ: هذا مقام العائذ بكَ من القطيعة.

فقال: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلكِ، وأن أقطع من قطعكِ؟

قالتْ: بلى.

قال: فذلكَ لك!

ثم قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: اقرأوا إن شئتم ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾

قيل لسعيد بن المسيب: لقد ماتَ إبراهيم بن محمد بن طلحة.

فقال: كيف مات؟

فقيل له: انهار عليه قصره وهو فيه!

فقال: لا يمكن هذا، يأبى الله أن يموت مثله هكذا!

فنبشَ الناس ركام القصر، وأزالوا ما تهدّم منه، فأخرجوا إبراهيم حياً ما به كسر، ولا في جسده خدش!

فقالوا لسعيد: كيف عرفتَ أنه لم يمُتْ تحت الهدم؟

فقال: لأنه واصل للرحم، وواصل الرحم يوقى ميتة السوء!

وفي الحديث القدسي يقول ربنا عزَّ وجل: أنا الرحمن، خلقتُ الرَّحم، وشققتُ لها اسماً من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها بتته/ قطعته!

وليست صلة الرَّحم زيارة بزيارة، وهدية بهدية، وموقف بموقف، فهذا وإن كان خُلقاً حسناً، وفيه أجر، ويندرج تحت صلة الأرحام، إلا أننا نفعله مع غير الأقرباء، فمن زارنا زرناه، ومن سأل عنا سألنا عنه، ومن دعانا إلى

مأدبة دعوناه، ومن أهدانا أهديناه! وإنما صلة الرحم أن لا تقبل أنتَ بالقطيعة إذا ما قبل أقاربك بها!

وقد قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: ليس الواصل بالمكافئ، وإنما الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها!

يقعُ من الأقرباء الأذى، وهذا حق وواقع نشاهده ونعيشه، فما من عائلة إلا وفيها حاسد أو مبغض، والناس عقول وأهواء، نفسيات ومشارب، ونحن مأمورون بالصّبر لا بالقطع، بالمحاولة مرةً ومرتين وعشراً حتى نجد صدىً، أو نُعذر أمام الله تعالى.

جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إنَّ لي قرابةً أصلهم ويقطعونني، وأحلمُ عليهم ويجهلون عليّ، وأحسنُ إليهم ويسيئون إليَّ!

فقال له: لئن كنتَ كما تقول لكأنما تُسفّهم الملَّ (الرماد الحامي)، ولا يزال معكَ من اللهِ ظهير ما دمتَ على ذلك!

كأنما تنحتون الفضَّة!

جاء رجلٌ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم فقال: إني تزوجتُ امرأةً من الأنصار.

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: هل نظرتَ إليها، فإنَّ في عيون الأنصار شيئاً؟

فقال: قد نظرتُ إليها.

فقال له النبيُّ صلى الله عليه وسلم: على كم تزوجتها؟

قال: على أربع أواقٍ!

فقال له النبيُّ صلى الله عليه وسلم: على أربع أواقٍ؟! كأنما تنحتون الفضَّة من عرض هذا الجبل! ما عندنا ما نُعطيك، ولكن عسى أن نبعثكَ في بعثٍ تُصيبُ منه.

فبعثَ بعد أيامٍ بعثاً إلى بني عبسٍ وأرسلَ ذلكَ الرجل معهم عله يغنم شيئاً، ويدفع المهر.

وكواليس الحديث على الشكل التالي:

جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يخبره أنه تزوَّج امرأةً من الأنصار، أي أنه قد خطبها ولم يدخل عليها بعد، فسألهُ إن كان نظرَ إليها، لأن في عيون الأنصار شيئاً، بمعنى في عيونهن ما قد يستقبحه الخاطب من صغر العين، وهذا هدي نبوي شريف أن ينظر الخاطب إلى المخطوبة، فيرضى صفاتها الخَلقِيَّة، فلا يخطبها دون أن يراها حتى إذا حُملتْ إليه لم تعجبه، فتصبح الحياة بعدها لا تُطاق، فيظلمها ويظلم نفسه!

ثم سأل عن المهر، فأخبره أنه دفعَ لها أربع أواقٍ فضة، أي ما يُعادل أربعين ديناراً للأوقية، فاستكثر النبيُّ ﷺ هذا، وقال: أربع أواقٍ كأنما تنحتون الفضة من عرض هذا الجبل!

بمعنى من أين لكم هذا المال، وهل هذا الجبل هو من فضة، حتى إذا احتاج أحدكم قام إليه بمعوله فقطع منه ما يريدُ!

والرجل كما ترون ألزمَ نفسه مهراً ليس عنده، وجاء يطلب عون النبيِّ ﷺ، فبعثه في غزو علّه يصيب من الغنائم ما يقضي ما وعد به من مهر!

الأصل أن الزواج للعفة، عفة الشاب والفتاة معاً، وليس عقداً من عقود التجارة، والبنات لسنَ سلعاً للبيع! على أن المهر هو شرع ربنا، ولكن يجب أن تكون الأمور بالعقل، فالخاطب الفقير ليس كالغنيّ، فلا يُحمّل الأهلُ الخاطبَ ما لا يُطيق، وهو أيضاً عليه أن لا يوافق على ما لا يُطيق، لأنه متى وافق فوجبَ عليه أن يدفع!

إذا اشترط الأهل مهراً عالياً فهذا ليس حراماً، وقد أراد عمر بن الخطاب أن يُحدد المهور عندما رأى مغالاة الناس فيه، فقامتْ إليه الشفاء بنت عبد الله وهو على المنبر وقالتْ له: لا يحق لك يا أمير المؤمنين، فإن الله قال:

«وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا»

فبأي حق تريد أن تحدده؟

فقال: أصابتْ امرأة وأخطأ عمر!

على أن المهور لا يُنظر إليها بعين الحلال والحرام فقط، وإنما بعين العقل، وفهم الحياة، وقدرات الناس، فمتى تسابق الناس في غلاء المهور، عزفَ الشباب عن الزواج، وتعنَّستْ الفتيات، وهذا فيه دمار للمجتمع، فاتقوا الله في أولادكم وبناتكم!

لا يَعلمهُنَّ إلا نبيّ!

عندما قَدمَ النبيّ ﷺ إلى المدينة جاءه عبد الله بن سلام وكان من أحبار اليهود وعلمائهم، وقال له: إني سائلك عن ثلاث خِصال لا يعلمهنَّ إلا نبي!

فقال له النبي ﷺ: سَلْ!

فقال: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول ما يأكلُ منه أهل الجنة؟ ومن أين يُشبه الولد أباه أو أمه؟

فقال له النبيُّ صلى الله عليه وسلم: أخبرني بهنَّ جبريل آنفاً!

فقال عبد الله بن سلام، ذلك عدو اليهود من الملائكة!

فأكمل النبيُّ صلى الله عليه وسلم كلامه وقال: أما أول أشراط الساعة، نار تخرج من المشرق تحشُر الناس إلى المغرب!

وأما أول ما يأكل منه أهل الجنة زيادة كبد الحوت!

وأما شبه الولد أباه أو أمه، فإذا سبقَ ماءُ الرجل ماء المرأة نزعَ إليه الولد، وإذا سبقَ ماء المرأة ماء الرجل نزع إليها!

فقال عبد الله بن سلام: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله!

يا رسول الله إن اليهود قومٌ بُهتٌ، وإنهم إن يعلموا إسلامي يبهتونني عندكَ، فأرسِلْ إليهم فاسألهم عني: أي رجل عبد الله بن سلام فيكم؟

فأرسل النبيُّ صلى الله عليه وسلم إليهم، وقال: أي رجلٍ عبد الله بن سلام فيكم؟

قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وعالمنا وابن عالمنا، وأفقهنا وابنُ أفقهنا!

فقال لهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم: أرأيتم إن أسلمَ تسلمون؟

قالوا: أعاذه الله من ذلك!

فخرج عبد الله بن سلام فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

فقالوا: شرُّنا وابن شرِّنا، وجاهلنا وابن جاهلنا!

فقال عبد الله بن سلام: هذا الذي كنتُ أتخوَّفُ منهم!

هؤلاءِ هم اليهود على مرّ العصور، لا يتغيَّرون ولا يتبدلون!

شقَّ لهم موسى عليه السلام البحر، ومشى بهم دون أن تبتل أقدامهم، ولما عبروا إلى الضفة الأخرى، ووجدوا قوماً يعبدون الأصنام، قالوا لموسى عليه السّلام: ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾

قتلوا الأنبياءَ نبياً بعد نبي! وفاوضوا الله تعالى في بقرة، قال لهم اذبحوا بقرة، هكذا نكرة، فأي بقرةٍ تُجزئ، ولكنهم تارة يسألون عن عمرها، وتارة عن لونها، وتارة عن عملها عند صاحبها!

والبعض منا ما زال يُؤمن أنه بالمفاوضات والتطبيع سيأخذ منهم شيئاً!

مكتبة

واثنين!

جاءت امرأةٌ إلى النبيِّ ﷺ فقالتْ: يا رسول الله، ذهبَ الرِّجال بحديثك، فاجعلْ لنا من نفسِكَ يوماً نأتيكَ فيه، تُعلمنا مما علَّمك الله.

فقال: اجتمِعْنَ في يوم كذا، في مكان كذا.

فاجتمَعْنَ ... فأتاهُنَّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم، فعلمَهُنَّ، ووعظَهُنَّ، ثم قال: ما منكنَّ من امرأة تُقدِّم بين يديها من وَلدها ثلاثة، إلا كانوا لها حجاباً من النار. أي لا يموتُ لامرأة ثلاثة من أولادها في حياتها فصبرتْ واحتسبتْ إلا حرَّمها الله تعالى على النار.

فقامتْ امرأةٌ فقالتْ: يا رسول الله واثنين؟

فقال: واثنين، واثنين، واثنين!

في الحديث درسان مهمان:

الأول: حرص المسلمات الأوليات على التفقه في الدين، فهذه المرأة جاءت تطلبُ أن يكون للنساء مجلساً خاصاً لهُنَّ يتعلمنَّ فيه من النبيِّ صلى الله عليه وسلم، لأنه لا يتعارض أبداً أن تقوم المرأة بأمر بيتها وأن تتفقه في دينها، وقد عرفتْ هذه الأمة عشرات النساء الفقيهات منهن على سبيل المثال لا الحصر:

- زينب بنت أحمد التي كانت ضليعة في مذهب أبي حنيفة، وقد درسَ عندها ابن خلدون حين جاء إلى دمشق!

- كريمة المروزية كانت متقنة لصحيح البخاري، وقد حضرَ مجلسها في المسجد الحرام علماء كثر منهم الخطيب البغدادي!

- ومن شيخات ابن القيم ست الكتبة نعمة علي الطراح، وكريمة عبد الوهاب القرشية!

- وقد روى ابن تيمية الحديث عن أم العرب فاطمة بنت أبي القاسم بن عساكر!

- وذكر ابن الجوزي أنه سمع الحديث من ثلاث نسوة، وأورد بسنده ثلاثة أحاديث عن كل واحدة منهنَّ حديثاً!

يمكن للمرأة أن تهتم بأنوثتها ودينها، ويمكن أن تكون أُماً وحافظة للقرآن متقنة للتجويد، فتفقهنَ يرحمكنَّ الله!

الثاني: هذه الدنيا دار فقد وكدر ومشقة، ما منا إلا وقد ودَّع حبيباً إلى قبره، وكلنا نهاية المطاف سيودعنا أحباؤنا، وإن السخط على قدر الله لا يُغيّر من الواقع شيء، وإنما يزيد في الحزن ويُفسد الدين والأجر، أما الصبر فنهايته الجبر، فلكل من فقد حبيباً، للأم التي فقدتْ الابن، وللأب الذي فقد البنت، وللولد الذي فقد الأم أو الأب، تصبروا يصبركم الله، الفقد عزيز نعم، والموت أليم هذا حق، ولكن المؤمن مأمور أن يرضى عن الله في كل أقداره، وتعزوا عن كل فقد بفقد النبي ﷺ فكل عزيز بعده يهون!

لا أحملكم على شيء!

لما كانتْ غزوة تبوك ووافقت من المسلمين ساعة عُسرة، ولم يكن لدى النبيِّ صلى الله عليه وسلم ما يُجهِّز به الجيش، أمر الأثرياء بالصدقة، وأمرَ عامة المسلمين أن يُجهِّز كل شخصٍ نفسه. وفي هذه الأثناء أرسل جماعة من فقراء المسلمين أبا موسى الأشعري إلى النبي صلى الله عليه وسلم يطلبون منه أن يُجهزّهم، فجاءه أبو موسى وقال: يا نبيَّ الله إن أصحابي أرسلوني إليكَ لتحملهم.

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: واللهِ لا أحملكم على شيء!

يقول أبو موسى: فوافقته/ وجدته ساعتها وهو غضبان، ورجعتُ حزيناً من منعهِ لنا، ومن مخافة أن يكون قد وجدَ في نفسه عليَّ.

فرجعتُ إلى أصحابي فأخبرتهم بما قال.

فلم تمضِ ساعة حتى جاء بلال بن رباح ونادى: يا عبد الله بن قيس/ اسم أبي موسى أجِبْ رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه يدعوك.

فلما جاء أبو موسى أعطاه النبيُّ صلى الله عليه وسلم ما يركبُ عليه هو وأصحابه في الغزوة.

فرجع أبو موسى إلى أصحابه ففرحوا بذلك، وتجهزوا للمسير إلى تبوك.

كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم غاضباً لله لأنه شقَّ عليه أن لا يجد ما يحمل الناس عليه، فلما هدأ، وصار عنده ما تقر به عينه أرسل إلى أبي موسى.

وفي هذا درس مهم للزوجة إذا علمتْ قلة ذات يد زوجها أن لا تزيد في طلباتها وتثقل كاهله، لأن ذلك يمكن أن يسوِّد معيشته التي هي سوداء أساساً بسبب فقره وقلة ماله، ليس هناك أصعب على الحُر من أن يكون من الواجب عليه أن يُنفق ثم لا يجد! وما يجب على الزوجة من الصبر وعدم الإكثار من الطلب واجب على الأولاد أن يُراعوا أحوال أبيهم وأمهم وأن لا يشعروهم بالعجز والضعف، يكفي ما يشعران هما به من تلقاء أنفسهم، فترفقوا!

ما من إنسان إلا وتمرَّ به ساعات غضب يخرج فيها عن طوره، ويقول أو يفعل ما لم يكن ليقوله أو يفعله في ساعة رضاه، ولكن النبلاء إذا ما هدأوا أسرعوا يصلحون ما كان منهم ساعة الغضب دون حرج، فها هو النبيُّ صلى الله عليه وسلم يرسلُ في طلب أبي موسى ويعطيه ما سأله إياه، وها هو

موسى عليه السلام عندما عاد إلى بني إسرائيل ووجدهم يعبدون العجل الذي صنعه لهم السامري غضب لله، ومن شدة غضبه ألقى الألواح التي كُتبتْ فيها التوراة، فلما هدأ، وعاد إلى طبعه، كان أول شيء فعله أن أخذ الألواح، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾

لا تُخطئ مرتين، مرة حين تغضب، ومرةً حين يمنعكَ الكبر أو عزة النفس أن لا تصلح ما أفسدتَ ساعة غضبك!

لا يشقى بهم جليسهم!

حدَّثَ النبيُّ ﷺ يوماً أصحابه فقال: إن للهِ ملائكة يطوفون في الطُرق، يلتمسون/ يبحثون عن أهل الذكر، فإن وجدوا قوماً يذكرون الله، تنادوا/ نادى بعضهم على بعض: هَلُمُّوا إلى حاجتكم! فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا.

فيسألهم ربهم وهو أعلم منهم: ما يقول عبادي؟

قالوا: يسبحونك، ويكبرونك، ويحمدونك، ويمجدونك.

قال: فهل رأوني؟!

فيقولون: لا واللهِ ما رأوكَ.

فيقول: كيف لو رأوني.

فيقولون: لو رأوكَ كانوا أشدَّ لك عبادة، وأشدَّ لك تمجيداً، وأكثر لك تسبيحاً.

فيقول: فما يسألوني؟

فيقولون: يسألونك الجنة.

فيقول: وهل رأوها؟

فيقولون: لا واللهِ يا رب ما رأوها.

فيقول: فكيف لو رأوها؟

فيقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشدَّ عليها حرصاً، وأشدَّ لها طلباً، وأعظم فيها رغبة.

فيقول: فمِمَّ يتعوَّذون؟

فيقولون: من النار.

فيقول: وهل رأوها؟

فيقولون: لا واللهِ ما رأوها.

فيقول: فكيف لو رأوها؟

فيقولون: لو رأوها كانوا أشدَّ منها فِراراً، وأشدَّ لها مخافة.

فيقول: فأشهدكم أني قد غفرتُ لهم!

فيقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، وإنما جاء لحاجة.

فيقول: هم الجلساءُ لا يشقى بهم جليسهم!

احْرصْ دوماً على أن تكون في صحبة صالحة، إذا نسيتَ ذكَّروك، وإذا ذكرتَ أعانوكَ، وإذا تراخيتَ شدوا أزركَ، وإذا شددتَ لم تجد نفسكَ وحدك، احْرِصْ على هؤلاء الذين تستحي أن تفعلْ بينهم معصية، وتجنَّب أولئك الذين تستحي أن تفعل معهم طاعة، فإنَّ الصاحب ساحِبْ!

وأُنظُرْ للكلب في سورة الكهف كيف خلَّد الله ذكره في القرآن الكريم لأنه مشى مع صحبة صالحة، فلا يكن كلبٌ أفقه منك!

والصديق الصالح شفيعٌ يوم القيامة، فأكثِرْ من الصحبة الصالحة، فإنَّ أهل النار يتحسرون على أنه ليس لديهم صديق صالح يشفع لهم، اقرأ قول ربك وهو يخبرك عن حال أهل النار إذ يقولون: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ، وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾!

حتى الحوت في البحر!

جاء قبيصة بن المخارق إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم، فلما رآه علِمَ أنَّ هناك أمراً قد أشغله، فقال له: ما جاء بك يا قبيصة؟

فقال: يا رسول الله، كبر سني، ووهن عظمي، وأتيتك لتعلمني ما ينفعني الله به.

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: يا قبيصة ما مررتَ بحجرٍ ولا شجرٍ ولا مدرٍ إلا استغفرَ لكَ!

والذي يظهرُ من جموع الأحاديث النبوية في هذا المضمار أن هذا لعموم المؤمنين الذين نذروا أنفسهم لله ودينه، وليس خاصاً بقبيصة بن المخارق وحده! فقد روى الحكيم الترمذي أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: إنَّ اللهَ وملائكته، وأهل السماوات والأرض، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت في البحر، ليصلون على معلمي الناس الخير!

يقول خلفُ بن هشام وهو أحدُ القُرَّاءِ العشرة، أتيتُ سليم بن عيسى لأقرأ عليه، فكنتُ أقرأ عليه حتى بلغتُ يوماً سورة غافر، فلما قرأتُ قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ

بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بكى بكاءً شديداً، ثم قال لي: يا خلف، ألا ترى ما أعظم المؤمن؟ تراه نائماً على فراشه والملائكة يستغفرون له!

من كان لله كان الله له، ومن كان مع اللهِ كان الله معه، ومن سخَّر كل أعضائه لله، سخَّر الله كل الكون له!

ما أعظم المؤمن على الله، يستغفرُ له الحجر والشجر، وحملة العرش، وإذا ماتَ بكاه ممشاه إلى المسجد، وموضع سجوده!

حُبسَ الإمام أحمد في فتنة خلق القرآن وجُلِدَ، ثم أُخرجَ من السجن ووضع في إقامة جبرية في منزله، ومُنعَ التدريس ومن صلاة الجماعة، ومن الجهاد فَسخَّر الله جيشاً كاملاً يُجاهد عنه!

يقول المروزيُّ: دخلتُ على الإمام أحمد، وقلتُ له: ما أكثر الدَّاعين لكَ يا أبا عبد الله!

فقال: أخافُ أن يكون هذا استدراجاً، ولكن بأي شيءٍ قلتَ لي ما قلتَ؟

فقال له: جاءني رجلٌ من طرطوس فقال: كنا في بلاد الروم في الغزو إذا هدأ الليل رفعنا أصواتنا بالدعاء، وقلنا: ادعوا لأحمد بن حنبل! وكنا نمدُّ المنجنيق، ونرمي به، فإذا أخطأنا الرمي قلنا في الرمية التي تليها: اللهم هذا عن أحمد بن حنبل فنصيب!

لعنَ الله آكِلَ الرِّبا!

كان النبيُّ ﷺ جالساً بين أصحابه فحدَّثهم عن كبائر الذنوب فقال: «اجتنبوا السبع الموبقات: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرَّم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»!

وعن الربا قال لهم مرةً: «لعن اللهُ آكِلَ الرِّبا، وموكله، وشاهديه، هم فيه سواء»!

وفي صحيح الجامع من حديث ابن مسعود أن النبيَّ ﷺ قال: الربا ثلاثة وسبعون باباً، أيسرها أن ينكح الرجل أمه!

وكان إبن عباس إذا فسَّر قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ﴾.

يقول: يُعطى آكِلُ الربا يوم القيامة رمحاً ويُقال له: خذ رمحكَ لتبارز به ربّكَ!

وكان الأوائل يبتعدون عن أية شُبهة فيها ربا مخافة أن يقعوا فيه: كان أبو حنيفة يجلسُ في ظلِّ بيت صاحب له، واقترضَ صاحب هذا البيت منه بعض المال، واتفقا على أن يكون السداد في يوم كذا. فلما جاء اليوم ذهبَ أبو حنيفة إلى بيت صديقه وطرقَ الباب، ثم ابتعدَ ووقف في الشمس!

فسأله صاحبه: لِمَ تقِفُ بعيداً؟

فقال أبو حنيفة: خفتُ أن يكون ذلك لوناً من الربا!

فقال صاحبه: ولكنكَ كُنتَ تقعد قبل أن تقرضني!

فقال: كنتُ أقعدُ وأنتَ المتفضل عليَّ بظلِّ بيتك، فأخافُ الآن أن أقعد وأنا المتفضِلُ عليكَ بالمال!

كانوا يخافون من حديث النبيِّ صلى الله عليه وسلم: أيما لحمٍ نبتَ من حرام فالنار أولى به!

وقد لخَّصَ الفقهاء أسباب تحريم الربا بعدة نقاط أهمها:

- الربا أكل لأموال الناس بالباطل لهذا كانت حرمته!

- الربا يمنعُ الناس من الاشتغال بالمكاسب الحلال، فتتوقف بذلك عجلة الاقتصاد في المجتمع، وتسود الطبقية، وبالنهاية ينقسم المجتمع إلى فئتين: فئة غنية جشعة، وفئة فقيرة مستدينة!

- الربا يؤدي إلى انقطاع المعروف بين الناس، حيث يتوقف الإقراض لوجه الله!

- الغالب أن يكون المقرض غنياً والمقترض فقيراً، وبه يزداد الغني غنى، والفقير فقراً!

- والأهم من ذلك كله، الربا حرام بالنص القاطع قرآناً وسُنة، فإن عرفنا الحكمة من هذا التحريم، أو غابتْ عنّا، فهذا لا يُغيِّرُ من واقع الأمر شيئاً!

على منابر من نور!

لم يكن شيءٌ أبغضُ إليه بعد الشرك من الظلم، كان يُحبُّ العدل والعادلين، وإذا رأى ظلماً شَنَّعه، وجاءه أحد أصحابه مرةً يُريدُ أن يشهده على أُعطية قد أعطاها لابنه، فسأله: ألكَ ولد غيره؟

قال: نعم يا رسول الله؟

قال: أكلهم قد أعطيتهم ما أعطيته؟

فقال: لا!

فقال: فإني لا أشهدُ على جور!

وقال في مناسبة أُخرى يُرسي دعائم العدل: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور على يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم، وأهليهم، وما وُلّوا!»

اشترى عمر بن الخطاب فرساً من رجلٍ من الأعراب وأعطاه ثمنه، فلما ركبها ومشى بها فإذا بها عيب، ولا تسير كما تمنَّى. فرجعَ عمر وقال للأعرابي خُذ فرسكَ فإنها معطوبة.

فقال الأعرابي: يا أمير المؤمنين لا آخذها فقد بعتك إياها سليمة!

فقال له عمر: اجعلْ بيني وبينك حكماً!

فقال الأعرابي: يحكم بيننا شُريح بن حارث الكندي.

فقال عمر: رضيتُ به!

فلما استمعَ شريحُ على عمر والأعرابي، قال لعمر: هل أخذتَ منه الفرس سليمة؟

فقال عمر: أجل.

فقال له شُريح: احتفظْ بما اشتريتَ أو رُدَّ كما أخذتَ!

فقال عمر: وهل القضاء إلا هكذا، قول فصل وحكم عدل، سِرْ إلى الكوفة فإني وليتكَ قضاءها!

بهذا العدل سادت الأمة، بأن يقف الخليفة أمام القاضي وخصمهُ أحد رعيته! ثم يقضي القاضي لصالح الأعرابي، فيفرح عمر بالعدل وإن كان الخاسر في القضية!

على أن العدل ليس في المحاكم فقط، في كل مواقف الحياة مساحة للعدل أو للظلم!

فيا أيها الزوج المعدد هل عدلتَ بين زوجاتك في المعاملة والنفقة؟

ويا أيها الأب هل عدلتَ في الأعطيات بين أولادك؟

ويا أيها الجار الذي نشبَ بينه وبين جاره خلاف فتبيَّن أنه الظالم، هل ارتدعتَ أم تماديتَ؟

ويا أيها المدير هل ساويت بين موظفيك أم ميّزتَ، فتركتَ الكبيرة لأجل موظف أحببته، وعاقبت على الصغيرة موظفاً تكرهه؟

كُنْ عادلاً ما استطعتَ، وارضَ بالحقِّ ولو كان عليكَ،

فإن الراضي بالحق مقيم له،

وتذكروا أن المقسطين يوم القيامة على منابر من نور!

هَلُمِّي ما عندكِ!

دخلَ أبو طلحة الأنصاري يوماً على زوجتهِ أم سُليم فقال لها: قد سمعتُ صوتَ رسول الله ﷺ ضعيفاً، أعرفُ فيه الجوع، فهل عندك شيء؟

فقالت: نعم، وأخرجتْ أقراصاً من شعير بالكاد تكفي ثلاثة رجال.

فأرسل أبو طلحة أنسَ ابن مالكٍ ليدعو النبي ﷺ، فذهبَ أنسٌ فوجده جالساً في المسجد ومعه الناس، فلما رآه النبي ﷺ قال له: أرسلكَ أبو طلحة؟

فقال: نعم.

فقال: أَلِطعام؟

فقال: نعم.

فقال النبي ﷺ لمن معه: قوموا!

ولما وصلوا إلى بيت أبي طلحة، قال أبو طلحة لأم سُليم مستغرباً هذا المأزق الذي هو فيه، الطعام قليل والضيوفُ كُثر: يا أم سُليم قد جاء رسول الله ﷺ بالناس، وليس عندنا ما نُطعمهم!

فقالتْ له: الله ورسوله أعلم!

فدخلَ النبيُّ ﷺ وحده، وأخذ الخبز من أم سُليم وفتَّه بيده الشريفة، ثم صبَّتْ عليه أم سُليم مرقاً من عندها، فلما خلطه، دعا بالبركة، وطلب

من أبي طلحة أن يُدخل عليه عشرة رجال، فدخلوا وأكلوا حتى شبعوا، ثم خرجوا فدخل عشرة غيرهم فأكلوا حتى شبعوا، وبقيَ على هذه الحال حتى دخل سبعون رجلاً كانوا رفقة النبي صلى الله عليه وسلم، فأكلوا جميعاً وخرجوا، والطعام على حاله!

أُنظُرْ لحُبِّ الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم، عرفَ أبو طلحة أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم جائع من صوته، فذهبَ إلى بيته مسرعاً يبحثُ له عن طعام!

هكذا هم النبلاء، لماحون يعرفون حاجات الناس من إشارات صغيرة، فيسارعون في قضائها، ويحفظون لهم كراماتهم، ويغنونهم عن السؤال والطلب!

كُنْ لماحاً، زيارة لبيت صديق تكشف لكَ حاجةً لم يستطِعْ أن يبوح بها، تَغيُّرُ عادةٍ كان يفعلها فتوقف عنها تُنبئك أنه في ضيق، بعض الناس يعزُّ عليهم أن يطلبوا، وإن طلبوا فكنايةً وتلميحاً، كالمرأة التي دخلتْ على الأمير فقالتْ له: أشكو إليكَ قلة الفأر في بيتي!

فقال لها: ما أحسنَ كنايتكِ، ثم أعطاها ما يكفيها

فرحمَ الله اللماحين، والذين يعرفون حاجات الناس من كناياتهم!

كان الطعام قليلاً، ثم ببركة يد النبي صلى الله عليه وسلم الشريفة حلّتْ به البركة، وأكل الجميع حتى شبعوا، والقليل الذي تحل فيه البركة خير من الكثير الذي تُنزع منه!

لا تنظرْ إلى قلة راتبك، ولكن تحسس البركة فيه!

عندما يمضي الشهر وليس في بيتك مريض يحتاجُ دواءً فهي البركة!

وعندما يمضي الشهر ولا تستدين فهي البركة!

وعندما تجد أولادكَ حولك يسارعون في برِّك فهي البركة!

وعندما تجد زوجتك تسعى في رضاك ووصلك فهي البركة!

كان عمر بن الخطاب يقول: إني لا أسأل الله الرزق، فقد فرغَ من قسمته، ولكني أسأله البركة فيه!

وتكفُرنَ العشير!

خرجَ المعتمدُ بن عبَّاد ملك إشبيلية برفقة زوجته اعتماد الرميكيَّة، وكان يحبها حُباً جمَّاً، وكانتْ هي تبادله من الحُب مثله، وأثناء مرورِهما بأحد الشوارع، رأت اعتماد أولاداً يلعبون بالطين، فاشتهتْ أن تنزلَ وتلعبَ معهم، فاستأذنت المعتمدَ أن يسمح لها بهذا، ولكنه رفضَ وأخبرها أنه لا

يليق بالملكة أن تلعب بالطين في الطرقات، ثم أمرَ الموكب أن يمشي في طريقه. ولأن المعتمد رأى الحزنَ في عيني زوجته قرَّرَ أن يُعوِّضها، فلما عادَ إلى قصره، بنى بركةً كأنها حُفرة، ثم وضع فيها الحناء وعجنه بالمسك حتى صار كالطين، ثم نادى عليها، فلما حضرتْ أشار إلى الحُفرة وقال لها: الآن اِلعبي!

ثم بعد أيام خاصمته كما يتخاصم الأزواج، فقالتْ له: واللهِ ما رأيتُ منكَ خيراً قط!

فقال لها: ولا يوم الطين؟! فخَجِلتْ من قولها واعتذرتْ منه!

قبل هذا بمئات السنوات مرَّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم على جماعة من النساء وقال لهنَّ: يا معشرَ النساءِ تصدَّقنَ، فإني أُريتكُنَّ أكثر أهل النار!

قُلنَ: وبمَ ذلك يا رسول الله؟

فقالَ: تُكثِرنَ اللعنَ، وتكفُرنَ العشير/الزوج، لو أحسنَ إلى إحداكُنَّ الدَّهر، ثم رأتْ منه شيئاً قالتْ: ما رأيتُ منك خيراً قط!

لا تستغربوا إذ أقول إنَّ هذا الحديث في صَفِّ النساء وليس ضِدَّهُنَّ، والسببُ برأيي أنه يُخبرنا نحن معاشر الأزواج أنَّ هذا هو طبع النساء وليس مسألة شخصية بين المرء وزوجته! فالزوجة حين تغضبُ وتُنكِرُ إحسان زوجها معها فالأمر له علاقة بطبعِها لا بزوجِها، وعندما يتفهَّمُ الأزواج هذا

الطبع في النساء فالأجدرُ أن ينسوا كل الكلام الذي يتفوَّهنَ به لحظة غضبهنَّ، لأن الله سبحانه خلقهنَّ لوظيفة عظيمة هي تقديم الحُب، زوجةً وأماً، فكان من الطبيعي أن تغلبَ عليها عاطفتها، ولأن المرأة عاطفية، نسَّاءة للإحسان في ساعة الغضب، جعل الشرع الحكيم العصمة بيدِ الزوج لا بيد الزوجة، ولو كانتْ الزوجة هي التي تُطلِّق لن يستمرَّ زواج أكثر من عام!

طبعاً هذا الكلام ليس تشجيعاً للنساء على كُفران العشير محكومات بطبعهنَّ، وإنما شرح للسبب الذي لأجله يكفرنَ العشير، وإلا لو كان مُبرِّراً أن ينساق كل إنسان إلى طبعه ما قام دين ولا دنيا، فاشتهاء الرجال للنساء لا يُبرِّر الزنا، وشهوة المال لا تُبرِّر السَّرقة، على الإنسان أن يُهذِّب طبعه، ولا ينساق وراء نزعاته الإنسانية فيتركها تقوده يميناً وشمالاً، وإنما كان الكلام نصيحة إذا ما وقع الفأس في الرأس، وانتهى الأمر، وليس حضَّاً على كُفران العشير، وإلا فإنه بنصِّ الحديث معصية شنيعة!

بالمقابل كُفران العشير ليس حِكراً على النساء وإن كُنَّ واقعات فيه أكثر من الرجال، وإلا فإن الواقع يشهد أن كثيراً من الأزواج يكفرون عشيراتهم، فتُحسنُ المرأة إليه عُمراً، تجدها تتحملُ معه الأيام الصعبة، تصبرُ على قِلة

ذات يده، تفني نفسها في خدمته وخدمة أولاده، ثم إذا جرتْ الدنيا في يده، نسيَ معروفها معه!

افهموا طباع بعضكم البعض، تجاهلوا وتغاضوا لتستمر البيوت، وتذكروا دوماً أن الله يُحب العبد الوفيَّ، وقد قالت العرب: الحُرُّ يقيده المعروف!

فكونوا أحراراً وتذكروا أن المعروف دَين، فسدِّدوا ديونكم!

إلاَّ أن تطوَّع!

جاء رجل من أهل نجدٍ إلى النبي ﷺ يسأله عن الإسلام، فقال له النبيُّ ﷺ: خمس صلوات في اليوم والليلة.

فقال: هل عليَّ غيرها؟

فقال له النبي ﷺ: لا، إلا أن تطوَّع. ثم أكمل كلامه محدثاً عن أركان الإسلام فقال له: وصيام رمضان

فقال: هل عليَّ غيره؟

فقال له النبي ﷺ: لا، إلا أن تطوَّع. ثم حدَّثه عن الزكاة.

فقال: هل عليَّ غيرها؟

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: لا، إلا أن تطوَّع.

فقام الرجلُ ومضى وهو يقول: واللهِ لا أزيد على هذا ولا أنقص.

فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: أفلحَ إن صدقَ!

بدايةً هذه الحادثة كانت قبل أن يُفرض الحج، لهذا لم يذكره له النبيّ صلى الله عليه وسلم في أركان الإسلام.

والحديث لا يُذكر في باب الاستهانة بالنوافل، والتقليل من شأن التطوع في الصلاة والسُّنة، وقيام الليل، والصدقة، والصيام والتطوع. وإنما في باب ليعرف المسلم ما له وما عليه، وأنه ما تقرَّبَ أحدٌ إلى الله سبحانه بأحب ما افترضه عليه. بمعنى أن الذي يصلي الفجر في جماعة أفضل عند الله ممن يقوم الليل كله ثم ينام عن صلاة الفجر، وهنيئاً لمن نال الحُسنيين.

ثم ما منا من أحدٍ إلا ويقصر في العبادة، فلا تخلو صلاتنا من قلة خشوع وحديث نفس، ولا يخلو صيامنا من كلمة في غير موضعها، أو نظرة لا تحل، ومن رحمة الله تعالى بنا أنه شرع لنا النوافل ليجبر لنا تقصيرنا في الفرائض، فصلاة السُّنة ترمم نقص الخشوع، وصيام النافلة يُرمم ما خُدش من صيام الفرض، والصدقة تُطفئ غضب الرب كما يُطفئ الماء النار.

على أنه يجب أن يُعلم أنه لن يدخل أحدٌ الجنة بعمله،

حتى النبي صلى الله عليه وسلم، وإنما ندخلها بإذن الله كرماً منه بعد أن يتغمدنا برحمته.

وهذا الكلام ليس لترك العمل والعبادة، على العكس تماماً ما أُستجلبتْ رحمة الله بشيء أفضل من عبادته، والامتثال لأمره، ولكن هذا الكلام كي لا يغترَّ عابد بعبادته، وكي لا يقنط عاصٍ بسبب معصيته، وإنما نعبدُ الله امتثالاً لأمره، محسنين الظنَّ به أنه أرحم من أن يعذّب جباهاً سجدتْ له رهباً ورغباً، وأرحم من أن يُعذّب بطوناً تركت طعامها وشرابها تقرباً له، وأرحم من أن يُعذّب أيدٍ امتدتْ بالخير والصدقة على عباده.

فإذا أحسنتَ العبادة زِدْ،

وإذا قصَّرتْ استغفِر وعُدْ،

وسدّدوا وقاربوا وأحسنوا الظن بربكم.

تم بحمد الله